رسائل شوق وحنين
(٢)

رسائل إلى رسول الله

أربعون رسالة في الشوق للجمال المحمدي

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

تهدف هذه الرسائل إلى ثلاثة أهداف كبرى:

أولا ـ بيان كمالات رسول الله ﷺ في المجالات المختلفة، فالحب لا يكون إلا بعد إدراك الكمال.

ثانيا ـ رد الشبهات والتحريفات عن رسول الله ﷺ، ذلك أنها تتنافى مع الكمال، وقد تسيء إليه، وقد تكون هي الحجاب الذي يحول بين القلب وبين المحبة.

ثالثا ـ التوسل برسول الله ﷺ لتحقيق ما يرتبط بالكمال من سلوك وأخلاق وغيرها، وقد جعلنا ذلك في خاتمة كل رسالة، مثلما يقدم للدعاء بالثناء على الله، ثم يختم بطلب الحاجات.

ولم يكن هدفنا من التوسل طلب الحاجة فقط، وإنما كان هدفنا الأكبر منه تبيين الأثر السلوكي لمحبة رسول الله ﷺ في كل جانب من الجوانب، لأن العقيدة التي لا تثمر عملا عقيدة الكسالى والمدعين، لا المجدين والصادقين.

وقد جمعنا في هذه الرسائل أربعين صفة من صفات رسول الله ﷺ، وشرحناها، وبينا أدلتها المختلفة من خلال تلك الخطابات الموجهة إليه.

رسائل إلى رسول الله ﷺ

أربعون رسالة في الشوق للجمال المحمدي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1440 ـ 2019

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

هذا الكتاب محاولة للتقرب من رسـول اللـه ﷺ، من خلال رسـائل موجهـة إليـه، تخاطبـه مباشـرة، ومن غـير حـواجز، فلا حـواجز ولا حجب تحـول بيننـا وبين رسـول اللـه ﷺ غـير تلـك الأوهام التي صنعناها بأنفسـنا، وإلا فـإن رسـول اللـه ﷺ أقـرب إلينا منا، ويمكننا أن نتواصل معه متى نشاء.

وكيف لا يمكن ذلك، وعلاقته بأمته ـ كما يـذكر في أحاديثـه الكثـيرة ـ علاقـة ممتـدة، لا منقطعـة.. والقطيعـة إن حصـلت ليست من النبـوة، وإنمـا من المتعـاملين معهـا، ذلـك أنهـا مثـل الشمس، لا تحتجب إلا على من يشاء أن يحجب نفسه عنها.

وبمـا أن أجمـل نجـوى مـع اللـه هي الحـديث في تنزيهـه وتقديسـه وحمـده؛ فـإن أجمـل حـديث مـع رسـول اللـه ﷺ هـو الحديث عما آتاه الله من أصناف الكمال والجمال.. حتى يكـون ذلك بمثابة الترياق الذي يزيل الشـبهات، والإكسـير الـذي يـزرع المحبة في القلب.

فنحن مطالبون في علاقتنا برسول الله ﷺ أن تكون علاقة محبـة، لا مجـرد طاعـة، ذلـك أن المحب لا يكتفي بالطاعـة الظـاهرة، وبـأداء التكـاليف، وإنمـا يضـيف إلى ذلـك التعامـل الوجداني معها، وهو ما يجعلها في أرقى مراتب الكمال.

ولهذا، فإن هذه الرسائل تهدف إلى ثلاثة أهداف كبرى:

أولا ـ بيان كمالات رسول الله ﷺ في المجالات المختلفة، فالحب لا يكون إلا بعد إدراك الكمال.

ثانيا ـ رد الشبهات والتحريفات عن رسـول اللـه ﷺ، ذلـك

أنها تتنافى مع الكمال، وقد تسيء إليه، وقد تكون هي الحجـاب الذي يحول بين القلب وبين المحبة.

ثالثا ـ التوسل برسول الله ﷺ لتحقيق ما يرتبـط بالكمـال من سـلوك وأخلاق وغيرهـا، وقـد جعلنـا ذلـك في خاتمـة كـل رسـالة، مثلمـا يقـدم للـدعاء بالثنـاء على اللـه، ثم يختم بطلب الحاجات.

ولم يكن هدفنا من التوسل طلب الحاجة فقط، وإنما كـان هدفنا الأكبر منه تبيين الأثر السلوكي لمحبة رسول اللـه ﷺ في كل جانب من الجوانب، لأن العقيـدة الـتي لا تثمـر عملا عقيـدة الكسالى والمدعين، لا المجدين والصادقين.

وقـد جمعنـا في هـذه الرسـائل أربعين صـفة من صـفات رسول الله ﷺ، وشرحناها، وبينا أدلتهـا المختلفـة من خلال تلـك الخطابات الموجهة إليه.

وتلـك الصـفات هي: السـراج المنـير.. الوسـيلة العظمى.. أسـوة المتـألمين.. النبـأ العظيم.. الرحمـة المهـداة.. القـرآن الناطق.. العالم الراسـخ.. العـارف المحقـق.. الإمـام الممكّن.. القائـــد الملهم.. المبلـــغ الأمين.. الواعـــظ الخطيب.. البشـــير النـــذير.. الحكيم البليـــغ.. المعلم الناصـــح.. الشـــهم الشـــجاع.. المخلِص المخلَص.. رسول العـالَمين.. النـبي المعصـوم.. خـاتم النبـــيين.. المخلّص الموعـــود.. المؤيـــد بـــالمعجزات.. المنبـــأ بـــالنبوءات.. مجـاب الـدعوات.. مهبـط البركـات.. المستبصـر المتوســـم.. المبجـــل المكـــرم.. المحبـــوب المعظم.. المتبتـــل العابـــد.. العفيـــف الزاهـــد.. المقـــاوم المجاهـــد.. التقي النقي.. المتواضـــع الأبي.. المـــؤدب الحـــيي.. الـــذاكر النجي.. الجـــواد الكـــريم.. العفـــو الحليم.. الصـــادق الأمين.. العبقـــري الخبـــير.. الهادي البصير.

ونتبه إلى أنا تعمدنا ذكر أكبر عدد من النصوص والأحاديث، لأن الهدف من الكتاب هو التعريف برسول الله ﷺ، وتقريبه، وتعميق الإيمان به، ولذلك كان لتلك النصوص دورها الكبير في إعطاء تلك الصورة الجميلة، لأنها وحدها من يمكنه نفي تلك الصورة المشوهة التي رسمها له أعداؤه القدامى والمحدثين، من الذين يشعرون أو لا يشعرون.

وننبه ـ كذلك ـ إلى أنا ابتعدنا في الكثير من تلك الروايات على النقل الحرفي لها، إما بسبب احتوائها للكثير من التفاصيل التي لا تغنينا، أو لكونها تحتوي على بعض التشويهات التي نرى أنها دست على النبوة.

وهذا بناء على تصورنا للتعامل مع الحديث، والذي تحدثنا عنه بتفصيل في كتاب [سنة بلا مذاهب]، وهو عدم رمي الحديث بسبب بعض ألفاظه أو جمله، إذا ما كان فيه بعض المعاني الصحيحة، ذلك أن الجزء المرفوض قد يكون من تصرف الرواة، وليس من أصل الحديث، كما روي عن أبي هريرة أنه حدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول. تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني، ويقول العبد: أطعمني واستعملني، ويقول الابن: أطعمني، إلى من تدعني)(1)

وعندما سئل بعد روايته للحديث، فقيل له: يا أبا هريرة، سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: (لا، هذا من كيس أبي هريرة) (2)

فالجزء الأول من الحديث صحيح، لكن الجزء الثاني، وهو

1() رواه أحمد 2/ـ 252 (7423) وفي 2/ـ 476 (10175)، والبخاري: 5355 وأبو داود: 1676...

2() التخريج السابق.

قوله: (تقول المرأة: إما أن تطعمني وإمـا أن تطلقـني، ويقـول العبـد: أطعمـني واسـتعملني، ويقـول الابن: أطعمـني، إلى من تدعني)، فإنه واضح في كونه من تصرف الراوي، ولذلك لا يصح رمي الحديث جميعا بسبب تصرف الراوي في بعض أجزائه.

النبأ العظيم

سـيدي يـا رسـول اللـه.. أيهـا النبـأ العظيم الـذي هم فيـه يختلفون.

لقد بحثت في تـاريخ البشـرية، وقلبت صـفحات عظمائهـا، فلاسفتهم، وعلمائهم، وقادتهم، وزعمـائهم، ورجـال دينهم.. فلم أجد شخصا كان له ذلك التـأثير الـذي كـان لـك على الـرغم من أنـك عشـت في بيئـة صـحراوية بدويـة متخلفـة عن ركب الأمم التي كانت تعاصرها.

وعلى الرغم من كونك لم تكن مؤيـدا بقيصـر ولا بكسـرى ولا بفرعون.. ولا بأي حاكم يمـدك بمـا تتطلبـه الشـهرة والجـاه من فنون الإشهار.

وعلى الرغم من كونـك تعرضـت للكثـير من الهجمـات من قومك الأدنين، ومن غيرهم من الأبعدين.. الذي اجتمعـوا جميعـا على حربك وتشويهك.. فكتبوا القصائد، ونشروا الجنود، وأعـدوا كل أنواع العدة لإطفاء نورك.. ومع ذلك لم تزد الأيـام نـورك إلا تألقا واشتعالا ولمعانا.

ولم يكن ذلك وحده ما أثار عجـبي.. وإنمـا ذلـك التسـجيل العجيب لكل مجريـات حياتـك.. بـل حـتى لمن حظي بـالجلوس إليك وموالاتك، أو خسر بالابتعاد عنك ومعاداتــك.. كلهم حفظت أسماؤهم وأنسابهم والكثير من تفاصيل حياتهم.

أمـا أنت، فقـد حفظت لنـا حركاتـك وسـكناتك.. وأقوالـك وأفعالك.. حتى ابتسامتك التي كنت ترسـلها كـل حين.. حفظت لنا، فعرفنا متى ابتسمت، ومتى غضبت.. وما الـذي فعلت، ومـا الذي لم تفعل.

وقد جُند لذلك جنود كثيرون من الرواة والمحدثين والعلماء في كل المجالات.. لا دور لهم إلا ذلك..

وعندما عـدت لتـاريخ غـيرك من الزعمـاء والعلمـاء وحـتى الأنبياء.. لم أجد إلا شيئا قليلا لا يكاد يذكر أمام ما هيء لك.

فموسى عليـه السـلام على الـرغم من كونـه كـان محاطـا بالكثير من الكتبة، لا نعلم عن حياته ـ حسـب الأسـفار الخمسـة من التوراة ـ إلَّا قتاله وقيادتـه في الحـرب وبسـالته فيهـا، ثم لا نرى بعـد ذلـك شـيئا كثـيرا يتعلـق بحياتـه، وكيفيـة التعامـل مـع أحوالها المختلفة.

وهكـذا لا نجـد في الأناجيـل تفاصـيل كثـيرة ترتبـط بحيـاة المسيح عليه السلام، وكيف كان يتعامل مع القضايا المختلفة..

وهكذا لا نجد في سيرة بـوذا إلا هجرتـه لأهلـه وعيالـه إلى الصحاري والغابات؛ وكونه لم ير ولده الوحيد مرةً أخرى، وكونه تـرك عن كاهلـه أعبـاء الحُكْم، وارتضـائه للمـوت أخـيرا طريقـا للخلاص.

وهكذا عندما عدت للفلاسفة الكبار والقادة العظام لم أجد من اهتم بتفاصيل حياتهم مثلمـا وجـدت من اهتم بكـل تفاصـيل حياتك.

وعندما رحت أبحث عن أكثر الأسماء شهرة وترديـدا، وفي جميع أنحاء العالم، وجدت اسمك هو الاسم الوحيـد الـذي يـردد كل يوم وعلى جميـع مـآذن العـالم، وبصـوت عـال، وهـو ينـادي (محمد رسول الله)

أسمعه من على المنـارات، وفي القنـوات الفضـائية، وفي البث الإذاعي.. وأسـمع معـه ملايين، بـل ملايـير الحنـاجر، وهي

تصلي وتسلم عليك كلما ذكرت..

عندما سمعت كل هذا رحت أقرأ تلك الكلمات التي أوحاها الله إليك، وأنت في مكة المكرمة، تُكال لك كل ألوان التهم، وتُقذف بكل أنواع السباب، وتُرمى بالحجارة، ويسخر الكل منك.. لكن الله تعالى كان يقول لك حينها مطمئنا: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)ـ ﴾ [الشرح: 1، 8]

ثم يقول لك، وأنت في المدينة، وبعد أن تحزبت عليك كل الأحزاب، واجتمع لحربك كل الحاقدين: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 32ـ، 33]، ويقول: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: 8، 9]

لقد علمت بعد هذا كله المدد الذي كنت تُمد به.. وأنه ليس من الشرق ولا من الغرب.. ولا من العرب ولا العجم.. ولا من المحدثين ولا من الفقهاء.. وإنما من الله.. فالله هو الذي أراد لاسمك أن يقترن باسمه، حتى لا يصل إليه إلا من وصل إليك.

لقد أراد الله أن يسمع بك العالم أجمع.. وأن يبحث عنك العالم أجمع.. ذلك أن من وصل إليك وصل إلى الحقيقة والسراط المستقيم، وفاز بسعادة الأبد.

ولذلك حـاول الشـياطين أن يسـيئوا إلى اسـمك، فربطـوا ذلك الشعار العظيم [محمد رسول الله] الذي أقض مضـاجعهم، بأولئــك المغفلين الحاقــدين الــذين ورثــوا دين الفئــة الباغيــة، وأصحاب الملك العضوض.

لقد راحوا يرسمون اسـمك على رايـاتهم السـوداء كسـواد قلـوبهم، والملطخـة بالـدماء، ليسـيئوا إليـك، وإلى القيم النبيلـة التي تمثلها..

وراح غيرهم يرسمون الرسوم الساخرة، أو ينتجون الأفلام الوقحة، أو يكتبون الروايات البذيئة.. ليـنزلوك عن ذلـك المقـام الرفيع الذي أنزلك الله إياه.

ولن يفلحــوا في ذلــك.. كمــا لم يفلح القرشــيون واليهــود والمنافقون ومرضى القلوب.. وكما لم تفلح كل تلــك الترســانة من الرواة الذين جندهم سلاطين الفئة الباغية.

فأنت ـ يا سيدي ـ نور الله الذي سيبقى مشعا حتى تنمحي جميع الظلمـات.. وحـتى يهيمن دينـك على الـدين كلـه.. وحـتى يتساقط أمامك كل أولئك الـدجالين والمشـعوذين الـذين راحـوا يتلاعبون بالحقائق، ويشوهونها.

سيدي رسول الله..

أنا العبد الضعيف الذي يتشـرف بـأن يكـون خادمـا لنعلكم، بل للتراب الذي تمشون عليه.. أسـألك أن تقربـني منـك، حـتى أحظى بنورك الحقيقي الـذي يطفئ جميـع ظلمـاتي.. فقـد راح الكثير من الدجالين يخلطون نورك بنـيران الشـياطين ليشـوهوا جمال النـور الـذي جئت بـه.. فيجعلـوا منـه نيرانـا يحرقـون بهـا الحقائق، ويهدمون بها القيم.

وأسألك ـ سيدي ـ أن أعرفـك كمـا أنت، لا كمـا صـوروك.. فأنت الصـفاء والنـور والجمـال.. وأنت الأخلاق الرفيعـة، والقيم السامية.. وأنت الرحمـة المهـداة، والنعمـة المسـداة، وسـراط الله المستقيم.. وأنت أنت..

السراج المنير

سيدي يا رسول الله.. يا من وصفك ربك، فقال: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46]

أنت ـ سيدي ـ سراج منير بكل المقاييس، وما وصفك ربك به حقيقة لا مجال فيها للشك، ولا للمبالغة، بل هي تصوير إلهي بديع لحقيقتك، وحقيقة الوظائف العظيمة التي وُكلت لك.. والتي يرتبط بها ذلك العالم الجميل المغيب الذي لا نراه.. لكننا بواسطتك يمكننا أن نراه ونعيشه ونتواصل معه، ونصبح جزءا منه.

فكما أن حكمة الله تعالى ولطفه بعباده ورحمته بهم اقتضت أن يجعل لهذه الأرض شمسا تمدها بالنور.. ولولاها لعاشت الأجساد في الظلمات المدلهمة، لا ترى ربيعا، ولا تسمع تغاريد العصافير، ولا تقطف ثمار الأشجار، ولا تتذوق طعما لأي شيء، كما وصف الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ [النبأ: 13 - 16]

فالجنات الملتفة، والنباتات المتنوعة، والثمار اللذيذة، والألوان الباهية، والنسيم العليل، والدفء الذي تستشعره الأجسام، وتنتشي له.. كل ذلك فيض من كرم تلك الشمس التي أودعها الله لتكون سراجا لعالم الأجساد.. ولذلك لا يمكن أن تقوم الحياة من دونها.

وهكذا أنت ـ يا رسول الله ـ في عالم الأرواح.. فلولاك لم نر إلا الأشباح المخيفة، والشياطين المرعبة.. ولولاك لعشنا في سجون التشاؤم المطبق، والحزن الشديد، والكآبة التي لا علاج

لها.

ولولاك لم نر أشجار الحقائق الممتلئة بكل ثمـار الجمـال.. ولـولاك لم نتمكن من قطـف أي ثمـرة منهـا.. وكيـف نقطفهـا، ونحن لا نهتدي إليها، ولا نراها، ولا نسمع بها.. وهـل يمكن لأحـد أن يهتـدي لشـيء، وهـو يعيش في ذلـك العـالم المظلم الـذي وصفه الله تعـالى، فقـال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَـاتٍ فِي بَحْـرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَـاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَـوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [النور: 40]

ولـذلك كنت أنت النـور الـذي أمـدنا اللـه بـه، لـنرى ربيـع الحقائق، ونشم أريج عطرها الفواح الـذي لم نكن لنهتـدي إليـه لولا ذلك الضياء الذي جعلـك اللـه مصـدرا لـه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَـلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: 40]

أنت سيدي منبع الأنـوار الحقيقيـة الـتي لم تختلـط بنـيران الشياطين.. فلذلك من لجأ إليك، واحتمى بنورك، واسـتمد منـه، واكتفى به، لم يضل عن السراط المستقيم.

وعندما يأتي في ذلك الموقف الذي تنكشف فيه الحقـائق، ويرتفـع التمويـه يجـد نفسـه ممتلئـا بـأنوارك، فلـذلك لا يـرى الظلمات، ولا ترعبه الأشباح، ولا يقع في تلك الحفر الكثيرة، بل سيكون صـاحب نـور عظيم، وبصـيرة قويـة.. كمـا قـال تعـالى: ﴿يَـوْمَ تَـرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ يَسْـعَى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: 12]

وكيف لا يكون كذلك، وهو لم يكن يخلط نورك بالظلمـات، ولا بالنيران.. بـل كـان مكتفيـا بـك، يعيش في عالمـك الممتلئ بالجمال.

أما أولئك الكذبة المخادعون، والذين لم يكتفـوا بسـراجك،

أو رأوا أن سراجك أدنى من أن يضـيء لهم الظلمـات، فراحـوا إلى غيرك، وخلطـوا الحـق بالباطـل، وأكلـوا الثمـار المسـمومة التي نهوا عن أكلها..

في ذلك الموقف الشديد.. تختلط عليهم الأمـور.. ويـذهب كل ذلك النور الكاذب الذي لم يكن يستمد من سراج الله الـذي نصبه لعالم الأرواح، بل كان يستمد من نـيران الشـياطين الـتي كانت تخدع البشر..

لقد ذكر الله تعالى ذلك الموقف الشديد، وحذرنا منه أبلغ تحذير، فقال: ﴿ يَوْمَ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُـوا نُـورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَـذَابُ (13) يُنَـادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَـالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْـتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَـرَّتْكُمُ الْأَمَـانِيُّ حَتَّى جَـاءَ أَمْـرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)﴾ [الحديد: 13، 14]

هؤلاء ـ سيدي ـ الذين أعرضوا عنك، وعن وصاياك، وراحوا يتصـورون أنهم يمكنهم أن يحولـوا من أهـوائهم سـرجا بديلـة لسراجك، فخدعتهم أحوج ما كانوا إليها.

لقـد كـذبوا على أنفسـهم في الـدنيا، فلـذلك كـذبت عليهم أنفسهم هناك..

هنـاك ــ سـيدي ــ يمتلئ بـالحزن والأسـى والألم كـل من أعرضـوا عن سـراجك المنـير، وراحـوا لتلـك السـرج المزيفـة يستضـيئون بهـا، فـأكلوا من ثمارهـا سـموما، وربـوا في حقـول نفوسهم حيات وعقـارب.. سـرعان مـا كشـرت لهم عن أنيابهـا عندما أزيل ستار التمويه، ورأى الخلق الحقائق.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، وحذر منه أبلغ تحذير، فقــال: ﴿إِذْ

تَبَـرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُـوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا وَرَأَوُا الْعَـذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَـوْ أَنَّ لَنَـا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166، 167]

هؤلاء ـ سيدي ـ هم أولئك الذين أعرضـوا عن نـورك، وعن سراجك المنير، وراحوا يقيمون أندادا وأصناما وطـواغيت ركنـوا لها، وهجـروك، وتصـوروا أنهـا تعسـفهم عنـدما يحتـاجون إليهـا، فتخلت عنهم، وهم أحوج ما يكونون إليها.

سيدي رسول الله.. أنا العبد الفقـير الحقـير الـذي تشـرف بأن يكون فردا من أمتك..

أسألك أن تنقذني من كل تلك السرج الكاذبـة.. فلا تطيـق نفسي أن تحترق بلهيبها.

ضـــمني إلى نـــورك، واجعلـــني أعيش في ربيعـــك، وفي الحقول الجميلة التي نضجت من أنوار سراجك..

اجعلني زهرة من أزهارها.. وثمرة من ثمارهـا.. ونـورا من أنوارها.

واجعلني أتجول في تلك الجنات الفسيحة التي تنعمت بـأن تكـون سـراجها المنـير، فحيـاتي الـتي يملؤهـا الـبرد القـارس لا يمكن أن تجد لذة الدفء من دونك.

وحياتي التي تلمؤهـا الظلمـات لا يمكن أن تبصـر الجمـال، وتتنعم بالتواصـل معـه من دون أن تكـون أنت نورهـا وضـياءها وعينها.

فـاجعلني أفـنى عن نفسـي بـك.. لأبصـر العـالم بعينيـك..

وأعيش الحقائق بروحك..

الوسيلة العظمى

سيدي يا رسول الله.. يا من جعلك الله الوسـيلة العظمى، والحبل الممدود، وسفينة النجاة..

كيف لا نشتاق إليك، وأنت أشد ضرورة لنا من الهواء الذي نتنفسه، والماء الذي نشربه، والروح التي نعيش بها؟

بل لولاك لكانت أرواحنا مثل أجسـادنا.. مجـرد طين ومـاء وحمأ مسنون..

كيـف لا نشـتاق إليـك، وأنت الـذي أعطيت الحيـاة طعمهـا ولونها وجمالها..

فلولاك ما أزهر الربيع، وما أشرقت الشمس.. ومـا تـبينت لنا حقائق الأشياء المخبأة في سراديب الظلمات.

لولاك لكان كل شيء مقبرة وموتا، وأشباحا مخيفة..

أنت لنا مثـل العيـنين اللـتين لا يمكن أن نـرى الألـوان، ولا جمال الأشياء من دونهما.

بل أين العينان منـك.. ومـا أبعـدهما عنـك.. فهمـا وسـيلتنا لذلك الجمال المحدود الذي سرعان ما يذبل.. أما أنت فوسيلتنا إلى الجمال الكامل الحقيقي الدائم الـذي لا تسـتطيع الأيـام أن تغيره، ولا الحوادث أن تبدله.

ولذلك أنت لنا العينان الحقيقيتـان اللتـان لا يمكن أن نـرى الكون على حقيقته من دونهمـا.. فمن لم يـر الكـون بـك عـاش أعمى، حـتى لـو امتلـك من أجهـزة الإبصـار مـا يـرى بـه جميـع الأفلاك.. دقيقها وجليلها.

وأنت لنا الأذنان اللتان نسـمع بهمـا حقـائق الوجـود.. ومن مصدر الوجود.. ولولاك لعشنا في عالم الصمت المطبق..

يا رسول الله.. كم يصيبنا الألم عندما نشعر بأولئـك الـذين تخلو حياتهم منك.. ويلهم كيف يمكنهم أن يعيشوا، وهم لا يرون السراج المنير الذي يضيء لهم في مدلهمات الظلمات؟

وكيـــف يمكنهم أن يهتـــدوا إلى حقـــائق الوجـــود.. وهم لا يتأملون في صحيفتك الـتي جعلهـا اللـه مـرآة صـقيلة لتعـرفهم بالوجود.. وحقائقه وقوانيه؟

لقـد خـرجت اليـوم إلى المقـبرة.. وكـانت موحشـة جـدا، وعنـدما رأيتهـا، وتصـورت نفسـي في قـبر من قبورهـا.. رأيت الحياة مجرد مزحة ثقيلة.. وأصابني اكتئاب وألم شديد.

لكني عندما توسلت بـك.. ورحت أنظـر إليهـا من خلالـك.. بدت لي شيئا آخـر تمامـا.. وبـدا لي ذلـك القـبر المـوحش جنـة غناء.. وبرزت لي آفاق جديـدة في الحيـاة لم يكن عقلي لـولاك ليحلم بهـــا، ولا ليعرفهـــا، ولا ليصـــلها.. حـــتى الخيـــال لم يكن ليتطاول للوصول إليها.

بعد أن عـدت من المقـبرة، ورحت أنظـر إلى الحيـاة كلهـا من عينيك الجميلتين.. رأيتها شيئا آخر تماما..

لقـد كـانت سـابقا في عيـني مفـازة للتنـافس على المـال والجاه والسلطان.. لكنها بفضل عينيك تحولت إلى مفازة للقيم النبيلة والأخلاق الرفيعة والحقائق السامية.

كنت قبل أن أرى الحياة بعينيك أحسد كل أمير أو وزيـــر أو ملك أو صاحب قصر فخم، أو مركب فاره.. لكني عنـدما رأيتهـا بعينيك استحالت كل تلك الأشياء مجرد لهو ولعب لا يختلـف عن

لهو الأطفال ولعبهم.

لقد كانت جل مطالبي من دونك خدمة ترابي ومائي وخلاياي وأنسجتي.. لكني بعد أن عرفتك ترقيت عن عالم الطين إلى عالم العقل والقلب والروح والسر وكل المعارج التي أرحل بها إلى ذلك العالم الأسمى..

بفضلك سيدي.. صرت أشعر أني أتحرك بحركة جوهرية نحو عوالم الكمال التي كنت محجوبا عنها عندما كنت بعيدا عنك، ولم تكن أنت وسيلتي، ولم تكن سفينتك مركبي، ولا دربك دربي.

لكني بعد أن سرت خلفك، ومددت يدي إليك، وإلى حبك.. وامتطيت سفينتك.. رأيت الخلق جميعا غرقى في طوفان الأهواء، يعيشون مثل الصغار، ويموتون مثل تلك البهائم التي لا ترى الحياة إلى في المرعى إلى أن يأتي الجزار ليسلبها منها.

بفضلك سيدي تغيرت نظرتي للكون.. ولنفسي.. وللحياة.. وللعالم.. ولكل شيء..

بفضلك سيدي زالت كآبتي وتشاؤمي ويأسي.. لأن الحياة بعينيك أجمل بكثير.. هي كلها ربيع.. لأن سراجك المنير يضيء عليها..

بل يملؤها بالألوان التي لا يمكن لعيوننا أن تراها.. فلا يمكن أن نراها إلا بعينيك.. مثل ذلك الفلكي الذي لا يمكنه أن يرى الكواكب البعيدة من دون مرصاده..

وأين مرصاد الفلكي منك.. فهو لا يريه إلا حجارة في السماء، أما أنت فنرى بك من العوالم ما لا تطمع جميع مراصد الدنيا في اكتشافه.

وأنت فوق ذلك كله لا ترينا الحقـائق فقـط، بـل تـدلنا على الطريق الذي نصل به إلى السعادة الأبدية..

تلك السعادة التي تاهت عنها كل العقول التي تكــبرت عن أن تنظر إلى الحياة من منظارك.

فأنت لذلك ـ سيدي ـ منارتنا التي نهتدي بها في الظلمات، وأنت سراطنا المعبد الذي يقينا من الوقوع في المهالك الكثيرة التي وضعت في غير طريقك..

وأنت الـذي تمـد يـديك لمن شـاء أن يمسـك بهمـا، حـتى يعيش معك، ومع ذلك العالم الجميـل الـذي دللتنـا عليـه، وكنت تحزن حزنا شديدا عندما ترى الخلائـق معرضـين عنـك، مكتفين بتلك العيون التي لا يرون بها إلا المراعي والمقابر.

ولذلك ـ سيدي ـ أنت لنا الروح الحقيقيـة.. فلـولاك لكـانت أرواحنا مثل أجسادنا مجرد طين وماء وحمأ مسنون.

وأنت لنـا العقـل الـذي نبصـر بـه الحقـائق.. ولـولاك لكنـا مجانين.. لأنا نرى الحقائق خلاف ما هي عليه في الواقع.

وأنت لنا القلب الطاهر الذي نعشق بـه الحقـائق.. ولـولاك لغرقنـا في حمـأة الحب المـدنس الـذي يرمينـا في مسـتنقعات الأهواء.

ولذلك أنت لنا الحياة الحقيقيـة.. الـتي لولاهـا لعشـنا حيـاة مزيفة، مثل أولئك الذين يعمرون دهـرا طـويلا، ويتمتعـون بمتـع كثـيرة.. ثم يخرجـون من الحيـاة، قبـل أن يكتشـفوا أجمـل مـا فيها..

ولذلك صدق ربك عندما اعتبرك مصـدرا للحيـاة، فقـال: ﴿

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 24]

فأنت سيدي ذلك الـداعي الـذي ينفخ الحيـاة الحقيقيـة في كل من آمن به وأحبه واتبعه.. وبقدر المحبـة تكـون روح الحيـاة الجديدة.. الـتي لا يمكن للإنسـان أن يولـد الـولادة الحقيقـة من دونها.

أسوة المتألمين

سيدي يا رسول الله.. يا أسوة كـل المضـحين والمتـألمين والمتعبين..

أكتب هـذه الرسـالة إليـك بعـد أن أصـابني بعض الإرهـاق، نتيجة أعمال بسيطة، تصورت أني قمت بهـا في خدمـة دينـك.. وتوهمت معها كذبا وزورا أني قدمت بعض التضحيات أثناء ذلك.

لكني عندما تركت النظر في مرآة نفسي الأمارة بالسـوء، ورحت أنظر إلى مرآتك الصقيلة، ورأيت كل تلك الآلام العظيمة التي مرت عليك طيلة حياتـك.. وتلـك التضـحيات الـتي لا نـزال نعيش آثارهـا.. اسـتحييت من نفسـي، وامتلأت خجلا من ذلـك الذي سميته تعبا وألما وتضحية..

فأين تعبي وألمي وتضحيتي.. بل أين تعب الملايين وآلامهم وتضحياتهم مما حصل لك في حياتك.. أنت الذي قضـيت حياتـك كلها في خدمة رسالتك ومبادئك والقيم العظيمة التي جئت بها.

لقد تذكرت ـ سيدي ـ كيف أمرك ربك أن تنزع الدثار عنك، وتخـرج لإنـذار أولئـك الأجلاف الغلاظ المسـتكبرين.. الـذين لم يراعوا حرمتـك، ولا كرامتـك، ولا نبلـك، ولا نبوتـك.. وهم الـذين كانوا يعرفون دماثة أخلاقك، وسماحة طبعك..

بمجرد أن جاءك الأمر الإلهي رحت مسرعا تنفذه من دون أي تردد، أو أي حساب لأي أذى يمكن أن تتعرض لـه.. مـع أنـك كنت تعلم أن الكل سيقف في وجهـك.. وأنهم سـيرددون عليـك ما ردده الجهلة على أنبيائهم.

لكنك ـ سيدي ـ لم تبـال بكـل مـا يقولونـه لـك.. فليقولـوا:

ساحر أو كاهن أو مجنون أو ابن أبي كبشـة.. أو مـا شـاءت لهم لغتهم من ألفاظ البذاءة، ومـا شـاءت لهم نفوسـهم من سـموم الحقد.

لقد كنت مترفعا عليهم، لأنك لم تكن تسـتمع إلا إلى ربـك، وهو يسليك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّـاجِدِينَ (98) وَاعْبُـدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 97 ـ 99]، ويقـول لـك: ﴿ فَتَـوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَـعُ الْمُـؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: 54، 55]

لم تكن تسمع إلا إلى ربك، وهو يحكي لك قصـص الأنبيـاء، وهم يعانون مثلما تعـاني، ويتـألمون مثلمـا تتـألم.. ليكـون ذلـك الألم، وتلك التضحية علامة الصدق الأكـبر.. فهـل يمكن للكـاذب والمدعي أن يضـحي أو يتـألم أو يرضـى بـأن يواجـه بمثـل تلـك المعاملات القاسية؟

ولم تكن تلـك المعـاملات القاسـية قاصـرة على الكلمـات البذيئة الممتلئة بالحقد.. بل كانت تتحول كثـيرا إلى أفعـال، تنم عن حقد عظيم..

لقد سجل لنا الرواة بعض مشاهد تلك الآلام.. حيث ذكــروا لنا أنك ـ سيدي ـ كنت تصلي بفناء الكعبة، ومع علمهم بحرمتهـا إلا أن بعضهم جاء إليك، وأخذ بمنكبـك، ولـوى ثوبـه في عنقـك، وخنقك خنقا شديدا[1]..

ورووا أنهم كـانوا يطرحـون عليـك أحشـاء الـذبائح، وأنت تصلي.. بل كانوا يضـعونها في طريقـك، وأمـام بيتـك.. ولم تكن

---

[1] صحيح البخاري، 4/1814.

تملــك إلا أن تقــول لهم: أي جــوار هــذا[1]؟.. ثم تســتمر في دعوتهم إلى الله، وبأسلوبك الهادئ الممتلئ بالحكمـة والرحمـة والتواضع.

ولم يكن ذلك ألمك الوحيد ـ سيدي ــ بـل كنت تسـير على قـدميك المسـافات الطويلـة، وأنت تبشـر وتنـذر، وهم خلفـك يستهزئون بك، ويحذرون منك.. وأنت لا تبـالي بمـا يقولـون، ولا ما يفعلون.

ولم تكتف في سـيرك بأسـواق عكـاظ، ولا ذي المجـاز ولا غيرها من الأسواق.. بل كنت تقطع المسـافات الطويلـة.. حـتى أنك سرت إلى الطائف رجاء أن تجد فيهم من اللين ما لم تجده في قريش..

لكنهم استقبلوك ـ لا كما يسـتقبلون الـدعاة عنـدنا بالهـدايا والتحف ـ وإنما بالحجارة التي أدمت قدميك.. فرحت تفر منهم، وتشكو إلى ربك ما نزل بـك من الهمـوم والآلام من غـير ضـجر ولا انزعاج.. بل كانت شكواك شكوى المحبين.. تقول لـه فيهـا: (اللهم إليـك أشـكو ضـعف قـوتي، وقلـة حيلـتي، وهـواني على الناس، يـا أرحم الـراحمين، أنت رب المستضـعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكتـه أمـري؟ إن لم يكن بك علي غضـب فلا أبـالي، ولكن عافيتـك هي أوسـع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت لـه الظلمـات، وصـلح عليـه أمــر الــدنيا والآخــرة من أن تــنزل بي غضــبك، أو يحــل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)[2]

وهكذا كانت حالك مـع أولئـك الأجلاف الغلاظ الـذين كـانوا

1() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 463)

2() سيرة ابن هشام (1/ 420)

يهمون كل حين بقتلك إلا أن الله عصمك منهم..

وكنت تعلم كل ذلك.. وتعلم كل التهديدات التي توجـه لـك كـل حين.. وتعلم معها كـل الإغـراءات الـتي تقـدم لـك إن أنت تركت دعوتك، وسرت في طريقهم.. لكنك لم تفعل.. ولم تهم.. ولم يخطر على بالك.. بل كنت ترسل لهم بـذلك الشـعار الـذي صار علما وراية لكـل الأحـرار: (واللَّه لـو وضعوا الشـمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حـتى يظهـره اللَّه أو أهلك فيه ما تركته)(1)

ولم يكن ذلـك ــ سـيدي ــ ألمـك الوحيـد.. بـل إن قومـك وإمعانا في استعمال كـل الوسـائل لصـدك عن دعوتـك، راحـوا يواجهونـــك بعشـــيرتك.. حيث حاصـــروك معهم في الشـــعب، ومنعـوهم الأقـوات أن تصـلهم، حـتى اسـتبد بـك وبهم الجـوع الشديد.. وكنت ترى كل ذلك، وتتألم له ألمـا شـديدا.. لكنـك لم تكن لتترك دعوتك مهما كلفك الثمن..

ثم قدر الله لك أن تهاجر من تلك البلاد التي آذتك.. لتذهب إلى المدينة التي تنورت بنـورك.. وتقطـع في رحلتـك إليهـا كـل أنواع التعب والألم، وأنت تتخفى من تلـك العيـون الـتي تترصـد لك، والسيوف التي تهم بقتلك.

وفي المدينة لم تركن للراحة.. بل كنت تواجه آلاما لا تقـل عن تلك الآلام التي واجهتها في مكة.. فقد كان هناك المنافقون واليهود ومرضى القلـوب.. والـذين راحـوا يتفنـون في إيـذائك.. ولم تكن تملـك معهم إلا الصـبر الجميـل.. ولم تكن تعـاملهم إلا بتلك الرحمة التي ملأت كيانك كله.

ولم يكتف الحاقـدون بالكلمـات يحاربونـك بهـا.. بـل كـانوا

---

(1) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 327)

يرسـلون كـل حين جحافـل جيوشـهم، لضـربك وضـرب الثلـة المؤمنة معك.. فكنت تقطع المسافات الطويلـة كـل حين لصـد كل عدوان، ومواجهة كل مؤامرة..

وأنت أثناء ذلك كله تسمع الكلمات الجارحة من المنـافقين ومرضى القلوب.. فكنت تواجهها بالابتسـامة والهـدوء، والصـفح الجميـل، كمـا علمـك ربـك، فقـال: ﴿إِنَّ السَّـاعَةَ لَآتِيَـةٌ فَاصْـفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]

وهكذا ـ سيدي ـ كانت حياتـك جميعـا.. مملـوءة بالمتـاعب والآلام، ومع جميع أصناف المعتدين الظالمين..

وفي الليل وعندما يركن المتعبون إلى الهـدوء والراحـة، أو إلى الحـديث والسـمر.. كنت أنت تتوجـه إلى القبلـة، وتفـترش جبهتـك، سـاجدا لربـك.. لا تكتفي بالركعـات المحـدودات، ولا بالدقائق المعدودات.. وإنما كنت تقوم أكثر الليل، لقد قال ربك يـذكر ذلـك عنـك: ﴿نَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُـومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْـلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ﴾ [المزمل: 20]

هذه ـ سيدي ـ أمثلة عن بعض المتاعب والآلام التي مررت بهـا.. ولا يمكنـني أن أعـددها.. فـالرواة لم يسـجلوا إلا بعض مشاهداتهم..

ولو أن العقلاء تأملوا فيها.. ورأوا أنك في حياتك جميعـا لم تكن سـوى المضـحي والمتـألم الـذي كـان يعصـب الحجـر على بطنه من الجوع.. ثم عندما مات لم يترك دينارا ولا درهما.. بـل كان يعيش حياة بسيطة جدا.. لو تأملوا في ذلك وحـده، لعلمـوا مدى صـدقك وإخلاصـك.. وأنـك لم تكن تمثـل سـوى الحقيقـة، وبأجمل صورها.

ومما يزيد في تأكيد ذلك ـ سيدي ـ أنه كان يمكنك أن تنال ما تشاء من قومك وغيرهم إن أنت تركت دعوتك، واستسلمت لرغباتهم.. لكنك لم تفعل.. بل لم تطلب من الذين اتبعوك أو غيرهم جزاء ولا شكورا.. وإنما كانت حياتك كلها لله، ولم تكن تطلب شيئا إلا من الله.

اعذرنا ــ سيدي ــ فنحن الذين كان ينبغي لنا أن نتخذك أسوة لم نفعل.. فالدعاة عندنا أثرياء وجهاء.. تتنقل بهم السيارات الفخمة، ويملكون من كل شهوات الدنيا.. وبعضهم يملك حرسا خاصا.. والكثير منهم يتأفف لكلمة نقد بسيطة، ليس فيها تجريح ولا أذى.. في نفس الوقت الذي يتحدث فيه عنك وعن سلا الجزور التي طرحت عليك..

فاعذرنا سيدي عن سوء خلافتنا لك، واعذرنا في تشويهنا لدعوتك الممتلئة بالصدق والتضحية، والتي حولناها إلى مصيدة نصطاد بها الأموال والقلوب، لنهدم كل ما بنيته، ونقضي على كل تلك القيم الجميلة التي جئت بها.

الرحمة المهداة

سيدي يا رسول الله.. يـا من وصـفك ربـك، فقـال: ﴿ لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَـاعَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128]

لقـد رحت أبحث عن أكـبر وصـف أو لقب يعـبر عنـك، فلم أجد مثل هذه الآية الكريمة التي تصفك، وتصـف المصـدر الـذي صدرت منه، والمظهر الذي ظهرت به.

فأنت ـ يا سيدي يا رسول اللـه ــ رحمـة إلهيـة مهـداة إلى خلقـه، ليخـرجهم من عـالم الظلمـات الممتلئـة بـالآلام والكآبـة والحزن إلى عالم الأنوار الممتلئ بكل ألوان السعادة والسـرور والفرح.

أنت مثل ذلك الطبيب الذي وجد شيخا كبيرا مقعـدا مرميـا على الأرض، يلتــف بــه البعــوض والــذباب، وتنهشــه الحيــات والعقارب.. وتفترسه كـل ألـوان الآلام.. ظـاهرا وباطنـا.. فـراح يضع يد كرمه وشفائه عليه، فحوله من الشيخوخة إلى الشباب، ومن المـرض إلى الصـحة، ومن القعـود إلى النشـاط.. ثم أبعـد عنه كل ما يؤذيه ظاهرا وباطنا.. وملأه بكل ما يسـعده، ويملـؤه فرحا وأملا.. فتحول من حال إلى حال.

وهذا فعلك بنا، وبكل البشرية يا سيدي يا رسول الله..

فلولاك لعاش البشـر جميعـا في شـيخوخة الآلام، مقعـدين متألمين حزانى.. تحيط بهم الشياطين، وتسقيهم من كل ألـوان السموم..

ولـولاك لم نعـرف حقيقتنـا، ولا مصـيرنا.. ولا سـر الكـون

الذي نعيش فيه، ولا سر الحياة التي نعيشها..

ولولاك لعشنا بما تمليه علينا أهواؤنا، لا بما تمليه علينا حقائق الوجود.

أنت ــ سيدي ــ هدية الله لعباده، وحبله الذي أرسله لإنقاذهم.

وأنت ـ سيدي ـ ذلك الداعي الذي سار في الأرض يبشر بما أعد الله لعباده من فضله إن هم أطاعوه.

وأنت ــ سيدي ــ ذلك الحريص الذي كان يمتلئ ألما لإعراض المعرضين، لا لأجله، وإنما لأجلهم.. فقد كنت تراهم يتهافتون في النار تهافت الفراش، وأنت تذبهم عنها، لكنهم يأبون إلا الوقوع فيها.

لقد عبرت عن ذلك بلسانك البليغ، فقلت: (مثلي كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها، فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار فتغلبوني تقحمون فيها)(1)

وشبهت حالك وحال قومك، فقلت: (إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني، واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني، وكذب ما جئت به من الحق)(2)

1() صحيح مسلم 4/1789 ح(2284).

كان في إمكانك ـ سيدي ـ أن تكتفي بتبليغ الرسـالة، وأداء ما كلفت به كما تعود الناس أن يبلغوا الرسائل، ويؤدوا ما كلفوا به.. لكنك ـ ولكونك رحمة مهداة ـ لم تكن كذلك..

فقد كان الحزن الشـديد يعتريـك عنـد كـل إعـراض عنـك، وعن الهدي العظيم الذي جئت به، لأنك تعلم جيدا المصير الذي يصير إليه من أعرض عنك..

لقد ذكر الله تعالى ذلـك عنـك، ونهـاك عنـه، فقـال: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فـاطر: 8]، وقـال: ﴿ وَلَيَزِيـدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًـا وَكُفْـرًا فَلَا تَـأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: 68]

بل إنه شـبه حالـك بحـال الـذي يهلـك نفسـه من الأسـف، فقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ(1) أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 3] وقـال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـاخِعٌ نَفْسَـكَ عَلَى آثَـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُـوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6]

بل إنه ذكر أن حرصك الشديد عليهم، بلغ إلى درجة وددت فيها لو يجابون لكل آية يطلبونهـا، فقـال:﴿وَإِنْ كَـانَ كَبُـرَ عَلَيْـكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُـلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: 35](2)

2() صحيح مسلم 4/1788 ح(2283).

1() قال الزمخشري [الكشاف عن حقائق غـوامض التنزيـل (3/ـ 298)]: (البخـع: أن يبلغ بالذبح البخـاع بالبـاء، وهـو عـرق مسـتبطن الفقـار، وذلـك أقصـى حـدّ الـذبح، ولعـل للإشفاق، يعنى: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على مـا فاتـك من إسـلام قومـك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ لئلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا)

2() قال الزمخشري في تفسيرها [الكشاف عن حقائق غـوامض التنزيـل (2/ـ 19)]: (والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يـأتيهم بآيـة من تحت الأرض أو من فوق السـماء لأتى بهـا رجـاء إيمـانهم. وقيـل: كـانوا يقـترحون الآيـات

وغيرهــا من الآيــات الكريمــة الــتي تصــور حالــك، وأنت تدعوهم بكل ما أوتيت من قوة، ليعرضوا عن أهــوائهم، ويتبعــوا الحــق الــذي جئت بــه، لتتحقــق لهم النجــاة والفــوز العظيم في الدنيا والآخرة.

وقــد كنت ــ ســيدي ــ تتحمــل في ســبيل ذلــك كــل ألــوان الغلظــة والجفــاء الــتي يبــدونها لــك.. وكنت تســمع كــل ألفــاظ البذاءة والشتائم.. لكنك لم تكن تبالي بنفسك.. بل كان حرصك عليهم، وخوفك على المصير الذي ينتظرهم يدعوك لتحمــل كــل شيء منهم.

لقد وصف الله تلك الرحمة العظيمة الــتي كــانت تكســوك ظاهرا وباطنا، وأنت تتعامل مــع جميــع أصــناف النــاس، بــل مــع أغلظهم طباعا، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَــةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَــوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْــتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَــإِذَا عَــزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]

ولــذلك كنت نعم الصــاحب لهم.. تفــرح لفــرحهم، وتحــزن لحزنهم، وتشاركهم في كل شيء.. وتعيش معهم كأحدهم.. بــل كنت ــ ســيدي ــ خادمــا لهم، تســعى في مصــالحهم، وتقضــي حوائجهم، بكل لين ولطف وتواضع.

هكذا كنت ـ سيدي ــ مثــالا للقيم النبيلــة، والأخلاق العاليــة التي جئت لتتممها.

فاعــذرنا ســيدي.. فقــد أصــبح الــذين يــدعون أنهم يهتــدون بســنتك، ويحيــون حياتــك، من أكــثر النــاس قســوة، وأغلظهم

فكان يودّ أن يجابوا إليها لتمادى حرصه على إيمانهم. فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنــه لــو اســتطاع ذلــك لفعلــه حــتى يــأتيهم بمــا اقــترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون)

طباعا..

لقد حولوا الرحمة التي جئت بها إلى سكين حـادة يـذبحون بها الناس.

وحولـوا ذلـك اللين والصـفاء واللطـف الـذي كنت عليـه صراخا وصياحا ونهيقا.. دونه نهيق الحمير.

وحولوا كل البشارات التي جئت بها، لتملأ القلـوب أملا في رحمة الله وعيـدا وإنـذارات.. لا بالحقـائق، وإنمـا بـالزيف الـذي حرفوا إليه دينك، والذي عجنوه بأحقادهم وأهوائهم.

نعتذر إليك ـ يا سـيدي يـا رسـول اللـه ـ من هـؤلاء الـذين حـذرتنا منهم، وأعلمتنـا بـأنهم سيشـوهونك، ويشـوهون الهـدي العظيم الذي جئت به، فقلت: (سـيخرج قـوم في آخـر الزمـان، حدثاء الأسنان، سـفهاء الأحلام، يقولـون من قـول خـير البريـة، يقرؤون القرآن، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقـون من الـدين كما يمرق السهم من الرمية)(1)

لكن قومي لم يبالوا بتحذيرك.. بـل راحـوا يسـمونهم أهـل سنة، وأهـل حـديث، وأنهم السـنة تمشـي.. وأنـه لـولاهم لضـاع هديك..

ولـو أنهم فتحـوا أعينهم على غلظتهم وقسـوتهم وجفـائهم وألسـنتهم البذيئـة وقلـوبهم المملـوءة بالأحقـاد، لعرفـوا أنـه يسـتحيل أن تجتمـع سـنتك مـع القسـوة.. وعرفـوا أن معرفتـك وحبك يملآن القلوب بالرأفة والرحمـة.. وأنـه يسـتحيل أن يحـل في قلب مليء بالأحقاد معرفتك وحبك..

فمعرفتـك وحبـك ـ سـيدي ـ لا تتـنزل إلا على القلـوب

______

1() رواه البخاري (3611) ومسلم (1066) وأبو داود (4767) والنسائي (7/ 119)..

الطـاهرة الممتلئـة بكـل المعـاني السـامية.. أمـا من عـداها، فادعاؤهـا للحب والمعرفـة، كادعـاء المجـرمين والمختلسـين واللصوص للشرف والنبل والكرم.

القرآن الناطق

سيدي يا رسول الله.. أيها القرآن الحي الناطق..

لقد شاء الله برحمتـه، ولطفـه بعبـاده، أن يجعلـك نموذجـا أسمى لكل تلك المعاني المقدسة التي تنزلت في آخـر وصـاياه وعهوده للبشر.. فمن شاء أن يقرأهـا قرأهـا في حروفـه.. ومن شـاء أن يشـاهدها شـاهدها في سـلوكك وأخلاقـك وتلـك القيم النبيلـة الـتي كنت تتحـرك بهـا في الأرض، وتتحـرك معـك فيهـا حروف القرآن الكريم.

فإن شاء أن يرى عباد الرحمن، أولئك الذين وصـفهم اللـه تعالى بقوله: ﴿ وَعِبَادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًـا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَـلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُـونَ لِـرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَـذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًـا (65) إِنَّهَـا سَـاءَتْ مُسْـتَقَرًّا وَمُقَامًـا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًـا (67)﴾ [الفرقان: 63 ـ 67] إلى آخر الآيات الكريمة.. وجد كل هذه المعاني متمثلة فيك، وبدرجاتها العاليـة الـتي تصـلح أسـوة لجميع الخلق، وفي جميع الأزمنة.

وهكذا إن شاء أن يرى المخبتين، أولئك الذين وصفهم الله تعالى بقولـه: ﴿وَبَشِّـرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَالصَّـابِرِينَ عَلَى مَـا أَصَـابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّـلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُـونَ ﴾ [الحج: 34ـ 35]، وجـدك أولهم وسـيدهم، فأنت صاحب القلب الرقيق الخاشع، الذي تدمع عيناه كلما ذكـر ربـه.. وقـد حـدث صـاحبك الصـادق المخلص ابن مسـعود أنـك طلبت منه أن يقرأ عليـك بعض القـرآن، فقـال لـك: أقـرأ عليك وعليك أنزل؟، فقلت له: نعم، إني أحب أن أسمعه من غــيري..

فـراح يقـرأ من سـورة النسـاء حـتى وصـل إلى قولـه تعـالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلَاءِ شَـهِيدًا ﴾ [النساء: 41]، التفت إليك، فوجد عيناك تذرفان بالدموع(1).

وإن شاء أن يرى أولئك الذين وصـفهم اللـه تعـالى بقولـه: ﴿كـــانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْـــلِ مَـــا يَهْجَعُـــونَ (17) وَبِالْأَسْـــحَارِ هُمْ يَسْــتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْــوَالِهِمْ حَــقٌّ لِلسَّــائِلِ وَالْمَحْــرُومِ ﴾ [الذاريات: 17 -ـ 19]، وجدك في السحر.. بـل قبلـه.. بـل في أكثر الليل قائما لربك تناجيـه، وتبكي بين يديـه ممتلئـا بكـل قيم الروحانية.

وقـد حـدثت عائشـة عنـك، عنـدما طلب منهـا أن تحـدثهم بأعجب شيء رأته منك، فبكت، وقالت: (كـل أمـره كـان عجبـا، أتاني في ليلتي، ثم قال: ذريـني أتعبـد لـربي عـز وجـل، فقلت: واللــه إني لأحب قربــك، وإني أحب أن تعبــد لربــك. فقــام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قـام يصـلي، فبكى حـتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصـبح، فقـال: يـا رسـول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: (ويحك يا بلال، ومـا يمنعـني أن أبكي وقـد أنـزل علي في هـذه الليلة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمــران: 190، 191]))(2)

وهكــذا كنت تمثــل الحقــائق القرآنيــة بســلوكك وأخلاقــك

1() البخاري- الفتح 8 (4582). ومسلم (800)

2() البخاري- الفتح 3 (6463)، ومسلم (2816)

وروحانيتك.. حتى يراها الصادقون، فيزدادون طمأنينة وإيمانا.. وحتى يراها المشككون والمرتابون، فيزول عنهم كل ألوان الشك، ووساوسه إن كانوا صادقين في طلبهم.

وكيف لا تزول وساوسهم، وهم يرونك أول من يسارع لتطبيق أحكام ربه.. فإن صام الناس وجاعوا وعطشوا.. لم تكتف أنت بذلك، وإنما تواصل صومك بعد أن يفطروا.. وجوعك بعد أن يأكلوا.

وإن انصرف الناس إلى بيوتهم ليرتاحوا انصرفت أنت إلى ربك تناجيه وتعبده، وتمكث أكثر الليل في صحبته، حتى تورمت قدماك من كثرة القيام، وأشفق عليك أصحابك من طول سهرك في عبادة ربك.

وقد حدث ابن مسعود قال: صليت مع النبي ﷺ ليلة، فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء! قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه[1].

وحدث حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى. فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلا: إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: (سبحان ربي العظيم) فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: (سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد) ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد، فقال: (سبحان ربي الأعلى) فكان سجوده قريبا من قيامه [2].

1() البخاري 2/ 64 (1135)، ومسلم 2/ 186 (773) (204)

2() رواه مسلم 2/ 186 (772) (203)

وهكـذا كنت في كـل المـواطن.. أحسـن ممثـل للحقـائق القرآنية التي لا يمكن لأحد أن يتناولهـا من دونـك، أو يـزعم أنـه يمكن أن يظفـر بهـا من غـير أن يمـر على بابـك.. فـأنت بـاب القرآن.. وأنت الممثل لحقائقه..

وقد عرف من عاش مع ذلك، ولـذلك كـان أحسـن تعريـف مختصر لك عندهم هو أنك نفس قيم القـرآن وأخلاقـه ومعانيـه؛ فيكفي من أراد أن يــراك أن يقــرأ مــا ورد في ســور القــرآن الكريم عن المؤمنين وأخلاقهم وقيمهم.

وقد سئلت عائشة عن خلقك، فقالت في كلمـة مختصـرة: (كان خلقه القرآن)(1)، ثم قالت للسائل: (أما تقرأ القرآن قــول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4])

وقرأ ابن مسعود الوصايا الواردة في آخـر سـورة الأنعـام، ثم قال: (من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليهـا خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات)(2)

ولذلك كـان القـرآن الكـريم أحسـن معـرف بـك، وأفضـل مؤرخ لك.. وكان المرجع الوحيـد في الـرد على كـل الدسـائس التي حاول أصحاب الملك العضوض إلصاقها بك لتشـويه الـدين وتحريفه، وتحويلك من ذلـك المقـام السـامي الـذي وصـفك بـه القـرآن الكـريم إلى تلـك الهـوة السـحيقة الـتي أنزلـوك إليهـا بأهوائهم وأمراضهم وتدليسهم.

1() رواه مسلم: 1/ 746.

2() تفسير ابن كثير (3/ 359)

العالم الراسخ

سيدي يا رسول الله.. يا من علمه ربه من علوم كل شيء، فكانت علومه كلها لدنية وهبية، لا يحتاج علم شيء إلا وكان بين عينيه ويديه كما هو في حقيقته، لا يتطرق إليه الوهم، ولا يتسلل إليه الخطأ.

وكيف يتطرق إليه الوهم، أو يتسلل إليه الخطأ، والمعلم هو الله الذي أحاط بكل شيء علما.. والذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا في الدنيا ولا في الآخرة؟

وكيف يتطرق إليه الوهم، أو يتسلل إليه الخطأ، والتلميذ هو أنت ـ يا سيدي يا رسول الله ـ يا صاحب القلب الطاهر، الذي هو كالمرآة الصافية، تتنزل عليه الحقائق، فيتقبلها كما هي، وتفيض عليه العلوم؛ فيستوعبها جميعا من غير معاناة؟

وكيف لا تكون كذلك سيدي، وأنت سيد ولد آدم.. وقد أخبر الله أن آدم عليه السلام عُلم الأسماء كلها.. وأن الملائكة سلموا له بالخلافة بسبب ذلك.. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: 31 - 33]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن منصب الخلافة الرفيع، والذي كنت أنت ممثله الأعلى، ونموذجه الأسمى، يقتضي توفر علوم كثيرة جدا إلى الدرجة التي سماها الله تعالى [الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا]، بل إلى الدرجة التي عجزت الملائكة عليهم السلام أن

يعرفوها.. وهم من هم.. فإذا كان هـذا عظمـة العلم الـذي لقن لآدم عليـه السـلام، فكيـف بـالعلم الـذي لقن لـك يـا سـيدي يـا رسول الله؟

وكيف لا تكون كذلك، وقد أخبر الله تعالى أنه علم إبراهيم عليه السلام علوم الكون، وأراه حقائقها عيانا لا تلقينا، فقال: ﴿ وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُـونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: 75]

فهـذه الآيـة الكريمـة تشـير إلى أن علـوم الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام علـوم رؤيـة ومشـاهدة، وليسـت علـوم تلقين.. لذلك لا يعتريها الخطأ، ولا يصـيبها الـوهم، ولا يـدركها القصـور.. فهل يمكن أن يكون ذلك لإبراهيم عليه السلام، ثم لا يكون لك، وأنت سيد الأنبياء جميعا، بل سيد الخلق جميعا؟

وهل يمكن أن يحصل ذلـك، وقـد أخـبر اللـه تعـالى أن من هم دونك بكثير، ومن هم دون إبراهيم عليه السـلام، وغـيره من الأنبيـاء، ومن الـذين أوتـوا بعض علم الكتـاب، اسـتطاعوا أن يقهـروا كـل القـوانين الكونيـة الـتي نعرفهـا، وأن يطلعـوا على القوانين الخفية فيها، ويستخدموها، فقال عن صـاحب سـليمان عليه السلام: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40] فـإذا كـان هـذا علم صـاحب من أصـحاب سـليمان عليـه السـلام، وهـو علم مرتبـط ببعض الكتاب، فكيف بعلمك يا سيدي يـا رسـول اللـه، وهـو علم بكـل الكتاب؟

وهل يمكن أن يحصل ذلك، وقد أخبر الله تعالى أن مصـدر علمك لدني، وأنك لا تحتاج إلى أستاذ من البشر، يلقنك الحقيقة والأوهام المرتبطة بها، قال تعالى ـ يذكرك ـ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ

عَظِيمًا [النساء: 113]؟

بل إنك ــ يا سيدي يا رسول الله ــ أخبرت بذلك عن نفسك، فقلت ـ مخاطبا أصحابك، ومعهم الأمة جميعا ــ: (إنِّي أرى ما لا ترَون، وأسمع ما لا تسمعون، إنَّ السماء أطت، وحقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)(1)

فمن تأمل هذا الحديث العظيم اكتفى به.. فأنت الصادق الأمين، تشهد لنفسك بما آتاك الله من فضله، بأن علومك أكبر من أن يستوعبها أهل جيلك أو غيرهم، لذلك كنت ترفق بهم، فلا تلقي لهم من العلم إلا ما يمكن أن يفهموه، وتستوعبه عقولهم، ولا يكون فتنة لهم.

وقد شهد أصحابك لك بذلك، فقد أخبر أبو ذر عن بعض العلوم التي كنت تحدثهم عنها، فقال: (ولقد تَرَكَنا رسول الله ﷺ وما يُقَلِّب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه عِلمًا)(2)

وحدث أبو زيد الأنصاري قال: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا)(3)

وحدث حذيفة قال: (قام فينا رسول الله ﷺ قائما، فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه

(1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(2) تفسير عبد الرزاق 1/200) وتفسير الطبري (11/348)

(3) رواه ابن سعد.

حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون الشيء فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه)(1)

وهكذا وردت الروايات الكثيرة عنك، تخبر عن الحقائق العلمية التي كنت تبثها إلى الأمة، وفي المجالات المختلفة النفسية والاجتماعية.. بل والطبية والفلكية والجيولوجية وغيرها.. وما غاب عنا أكثر بكثير..

وكلها تتناسب مع مرتبتك العظمى التي بوأك الله إياها، فأنت ـ يا سيدي يا رسول الله ـ الإنسان الكامل الذي جعله الله قدوة ونموذجا للبشرية جميعا.. وعلوم الإنسان الكامل لا تحدها التخصصات، ولا تقيدها.. لأنها إن كانت كذلك كانت علامة جهل كبير.. فالمتخصص مقيد في سجن اختصاصه، ولذلك لا يفسر الأشياء إلا على ضوئها.. فالمسجون في سجن علم الاجتماع في سجن مدرسة من مدارسه يبني مواقفه على أساسها.. والمسجون في سجون علم النفس، والمسجون في سجون التخصصات المختلفة.. حتى التخصصات الدقيقة منها..

أما علومك أنت يا سيدي يا رسول الله، فهي تختلف عن تلك العلوم جميعا، لأنها تستقي من محيط صبت فيه جميع بحار العلوم والمعارف، أو كانت هي مصدر جميع العلوم والمعارف؛ فعلومك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ علوم ربانية تنبع من بحار علم الله الواسع، كما شهد لذلك قوله تعالى: لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (النساء:166)

فهل يمكن أن ينزل الله عليك شيئا من القرآن الكريم، ثم يحجب عنك علومه ومعارفه.. معاذ الله، وكيف يكون ذلك،

(1) رواه أبو داود.

وأنت المكلف ببيان القـرآن الكـريم، وهـل يمكن أن تـبين مـا لا تعلم تفاصيل علومه؟

وما دمت كذلك ـ سيدي ـ ومـا دام القـرآن الكـريم حاويـا لأصول علوم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَـيْءٍ وَهُـدىً وَرَحْمَـةً وَبُشْـرَى لِلْمُسْـلِمِينَ﴾ (النحـل: 89)، فـأنت ـ بلا شـك ولا ريب ـ تحمـل فـروع تلـك الأصـول، وحقائق تلك المعاني، وتفسير تلك المجملات.

لقد غابت كل هـذه الحقـائق عن المسـتغرقين في عـوالم أنفسهم الأمارة بالسـوء؛ فراحـوا يتوهمـون أن قابليتـك للعلـوم تشبه قابليتهم، وأن قدرتهم المحدودة تشبه قدرتك.. وأنك لذلك لسـت بتلـك الأوصـاف الـتي وصـفك بهـا ربـك، أو وصـفت بهـا نفسك.

وقد دعاهم إلى هذا ما يرونـه من العلـوم الكثـيرة.. والـتي ألفت فيهـا آلاف.. بـل عشـرات الآلاف من المراجـع الضـخمة.. وقد جعلهم ذلك يتوهمون أنهم إن نسبوا لـك مـا ذكـره القـرآن الكريم عنك من الرسوخ في العلم؛ فإن ذلك يستدعي أن تكون حافظا لكل تلك المراجع..

ما أعظم وهمهم ـ سيدي ـ فتلـك المراجـع الكثـيرة يمكن تلخيص ما يفيـد منهـا في كلمـات معـدودات.. هم يـرون ذلـك.. ويعلمون أن كل العلوم، وعلى مدار تاريخها الطويـل، والممتلئ بالكثير من الأوهام، تخرج بقوانين ونظريات محدودة، تعبر عنهـا بكلمات أو رموز معدودة.

هم يعلمون أن المعادلة الـتي تنص على العلاقـة بين كتلـة جسيم وطاقته، والتي تعتبر الطاقة مساوية للكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء.. كتب من أجل الوصول إليهـا آلاف الأوراق،

وبذل من الجهـود ــ طيلـة تـاريخ البشـرية ــ مـا بـذل من أجـل التحقـق منهـا.. ولم يكن ذلـك في علم واحـد.. بـل في علـوم كثيرة.. ولهذا فـإن من وصـل إليهـا لن يكـون مضـطرا للتعـرف على كل تلك التفاصيل التي أدت إليها.

وهكذا يمكن أن يكتفي من يريد أن يصـل إلى حقـائق علم الفلك جميعـا، بعيـدا عن كـل الأوهـام الـتي تسـربت إليهـا عـبر التاريخ أن يشاهد فلما واحدا يريه المجرات والنجوم والكـواكب وغيرها.. ليبز بعلمه حينها كل من مـر في التـاريخ، وهـو متعلـق بأوهام كثيرة.

فإذا كان هذا حال من يشاهد فلما.. فكيف بمن كـان قلبـه مرآة ومرصدا يرى الكون والإنسان والمجتمـع وكـل شـيء كمـا هو بالفعل، لا كمـا يوصـف لـه.. وهـل يحتـاج المبصـر لشـرح أو توضيح أو إطالة تفصيل.. وهل الخبر كالعيان؟

ليت الأمر توقف عند هؤلاء.. بل إن بعضهم ممن يزعمـون أنهم يعرفوك، راحوا يشكلون على هذا الوصف فيك.. ويضربون جميع تلك الآيات القرآنية، والأحـاديث القطعيـة، بحـديث وضـعه أعداؤك الذي آلمهم ألا تكـون مثلهم في جهلهم وضـلالهم، حيث رووا أنك لما قـدمت المدينـة، وجـدتهم يلقحـون النخـل، فقلت: (ما تصنعون؟) قـالوا: كنـا نصـنعه، فقلت: (لعلكم لـو لم تفعلـوا كان خيرا)، فتركوه، فتأثرت محاصيلهم لذلك، فذكروا ذلك لـك، فقلت: (إنما أنا بشر، إذا أمـرتكم بشـيء من دينكم فخـذوا بـه، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر)(1)

ولم يكتفوا ـ لجهلهم ـ بهذه الرواية، بل عضدوها بالروايات الكثيرة، وذكروا أن الحادثة متعددة، أي أنـك مـررت على نـاس متعددين، وأخبرتهم جميعـا بـأن التـأبير لا منفعـة فيـه.. ثم تـبين

1() رواه مسلم..

للجميـع أن أخـذهم بنصـيحتك أضـر بهم، فكنت أنت سـبب مـا حصل لهم ولمحاصيلهم، وفي أول دخولك للمدينة.

فهل يعقل هذا، وهل يعقـل أن تكـون أول نصـيحة تقـدمها للفلاحين نصيحة تضر بهم، وبمنتوجهم الذي يعتمـدون عليـه في حياتهم؟

لقد راح كل أولئك يتعلقون بهذه الرواية المدسوسة عنـك، ليشيعوا بين الناس مسلمهم وغير مسـلمهم، بـأن علومـك غـير المرتبطة بالشريعة، هي نفس علوم قومك، وأن الأخطـاء الـتي كانت لديهم، كانت لديك.

لقد قال بعض المعاصرين يذكر ذلك، ولا يستحيي منــه: (لا يجب أن يكون اعتقاده ﷺ في أمور الدنيا مطابقا للواقع، بل قد يقع الخطأ في ذلك الاعتقاد قليلا أو كثيرا، بـل قـد يصـيب غـيره حيث يخطئ هـو ﷺ.. وليس في ذلـك حـظّ من منصـبه العظيم الـذي أكرمـه اللـه بـه؛ لأن منصـب النبـوة مُنصـب على العلم بـالأمور الدينيـة: من الاعتقـاد في اللـه وملائكتـه وكتبـه ورسـله واليوم الآخر، ومن الأمـور الشـرعية. أمـا إن اعتقـد دواء معينـا يشفي من مـرض معين، فـإذا هـو لا يشـفي منـه، أو أن تـدبيرا زراعيا أو تجاريـا أو صـناعيا يـؤدي إلى هـدف معين، فـإذا هـو لا يؤدي إليه، أو يؤدي إلى عكسه، أو أن تـدبيرا عسـكريا أو إداريـا سينتج مصلحة معينة، أو يدفع ضررا معينا، فإذا هو لا يفعل، فإن ذلك الاعتقاد لا دخـل لـه بـالنبوة، بـل هـو يعتقـده من حيث هـو إنسان، له تجاربه الشخصية، وتأثراتـه بمـا سـبق من الحـوادث، وما سمع أو رأى من غيره؛ مما أدى إلى نتائج معينة. فكل ذلـك يؤدي إلى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشـر، ثم قـد ينكشـف الغطاء فإذا الأمر على خلاف ما ظن أو اعتقد)(1)

(1) انظر ملفا بعنوان [الطب النبوي.. رؤى نقدية أحاديث "الطب النبـوي".. هـل يُحتج

وقال آخر، وهو من القدامى، يتهم ما جـاءت بـه الروايـات عنك في حفظ الصحة، والنصائح العظيمة المرتبطة بها: (الطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيـل، وليس من الـوحي في شيء، وإنما هو أمر كـان عاديـاً للعـرب، ووقـع في ذكـر أحـوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلـة، لا من جهـة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمـل، فإنـه ﷺ إنمـا بعث ليعلمنـــا الشـــرائع، ولم يُبعث لتعريـــف الطب ولا غـــيره من العاديات. وقد وقـع لـه في شـأن تلقيح النخـل مـا وقـع، فقـال: (أنتم أعلم بــأمور دنيــاكم...)؛ فلا ينبغي أن يُحمــل شــيء من الطب الـذي وقـع في الأحـاديث المنقولـة على أنـه مشـروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إذا اسـتعمل على جهـة التـبرك وصدق القصد الإيماني، فيكون له أثر عظيم النفـع، وليس ذلـك في الطب المزاجي)[1]

وقال آخر: (أما أحوالـه ﷺ في أمـور الـدنيا؛ فنحن نسـبرها على أسلوبها المتقدم بالعقد والقول والفعـل؛ أمـا العقـد منهـا، فقد يعتقد في أمور الدنيا الشـيء على وجـه ويظهـر خلافـه، أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أمور الشرع - ثم ذكر حديث تأبير النخل - ثم قال: وهذا على ما قررنـاه فيمـا قالـه من قبـل نفســه في أمـور الـدنيا وظنـه من أحوالهـا لا مـا قالـه من قبـل نفســه واجتهـاده في شـرع شـرعه وسـنة سـنها.. فمثـل هـذا وأشـباهه من أمـور الـدنيا الـتي لا مـدخل فيهـا لعلم ديانـة، ولا اعتقادها ولا تعليمها، يجوز عليه فيها ما ذكرناه، إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة، وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلهـا همــه وشـغل نفســه بهـا، والنـبي ﷺ مشـحون القلب بمعرفـة الربوبيـة، ملآن الجـوانح بعلـوم الشـريعة، مقيـد البـال

بها] على إسلام أون لاين وغيره من المواقع.

1() مقدمة ابن خلدون: ص493.

بمصالح الأمة الدينية والدنيوية)[1]

وغيرها من الأقوال الكثيرة التي ألغي بهـا القـرآن الكـريم تعلقا بالحديث الذي يسمونه حديث [تأبير النخل]، والذين محـوا به كل ما ورد في القرآن الكريم من أنـك لا تنطـق عن الهـوى، وكل معارفك وعلومك لدنية.

ولو أنهم اكتفوا بقراءة قوله تعالى في حقك: ﴿وَمَـا يَنْطِـقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحَى﴾ [النجم: 3،ـ 4]، لعلمـوا أن هذه الآيات وحدها كافية لتكذيب كل رواية تخالفهـا، لكنهم لا يرجعون للقرآن، بل ينسخون معانيـه بمـا يصـلهم من الروايـات التي دسوها عليك، حتى يقللوا من شأنك.

ولــو أنهم رجعــوا إلى الأحــاديث الــتي يعتبرونهــا نفســها، لوجـدوا الحقيقـة، وعلمـوا أنـه يسـتحيل عليـك أن تقـول شـيئا يخالفه الواقع، وكيف يكون ذلك، وهل ذلك إلا الكذب المحض؟

لو أنهم ـ يا سيدي يا رسول الله ـ رجعوا لتلك الرواية التي حدث بها عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شــيء أسـمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شــيء؟ ورســول اللــه ﷺ بشــر يتكلم في الغضــب والرضــا، فأمسـكت عن الكتـاب، فـذكرت ذلـك لرسـول اللـه ﷺ، فأومـأ بإصبعه إلى فيه فقال: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منــه إلا حق)[2]

هل رأيت سيدي المصدر الذي أخـذوا منـه ذلـك الموقـف، إنهـا قـريش الـتي اسـتكبرت عليـك، وعادتـك، وبعـد أن رأت انتصاراتك المتوالية، لم تجد إلا أن تتبعـك، وفي قلبهـا كـل تلـك

1() الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 2 /183- 185.

2() رواه أبو داود.

الأحقاد عليك؟

لا نملك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ إلا أن نحـزن على تلـك العقول التي لم تعرفك.. والـتي امتلأت بالأوهـام والجهـل الـذي حجبها عن أن تستوعب فضل الله عليك..

فنسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ يـا من يجـير من التجـأ إليه، ولا يرد من اسـتغاث بـه، أن تجيرنـا من تلـك الفهـوم، وأن تحفظ عقولنا وتغيثها من أن تتسـرب إليهـا تلـك الأوهـام، حـتى نزداد حبا لك، وتقديرا لما وهبك الله من فضله العظيم.

العارف المحقق

سيدي يا رسول الله.. يا أعرف الخلق بالله، وأعلمهم به، وأقربهم منه، وأكثرهم ذكرا له، وأهداهم في الدلالة عليه.

ما عسى مثلي أن يتحدث عن معرفة مثلك بالله، وبحقائق الوجود، وأنت الذي قلت لأولئك الذين أرادوا أن يتخذوا لسلوك طريق المعرفة منهجا غير منهجك: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية)(1)

وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي تنزل عليك القرآن الكريم، وهو دائرة المعارف الكبرى لكل حقائق الوجود.. وما تنزلت عليك آية إلا وقد عشتها، وذقتها، وتنزل عليك من فهمها ومعانيها وأسرارها ما لا تطيقه الخلائق؟

وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي كنت تبصر بعيني بصرك وبصيرتك ما لا يطيق غيرك أن يبصره، أو يدركه، وقد كنت تقول في ذلك: (أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون، أطّت السّماء وحقّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وملك واضع جبهته لله ساجدا)، ثم عقبت على ذلك بقولك: (والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، وما تلذّذتم بالنّساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله)(2)

وكيف لا تكون ذلك، وأنت الذي سماك الله عبدا.. ولا ينال حقيقة العبودية إلا من نال شرف المعرفة بالله.. فكمال

1() رواه البخاري- الفتح 13 (7301) واللفظ له. ومسلم (2356)

2() الترمذي (2312) وقال: حديث حسن واللفظ له، وابن ماجة (4190) وقال محقق جامع الأصول (4/ 13): إسناده حسن. وأحمد في المسند (5/ 173)

العبودية دليل على كمال المعرفة.

وكيــف لا تكــون كــذلك، وأنت الــذي أراك اللــه من آياتــه الكبرى، وعرج بك في السـموات العلى، ومـا بعـدها، كمـا قـال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَـوَى (3) إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحَى (4) عَلَّمَـهُ شَـدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِـالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَـا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَـا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَـةً أُخْـرَى (13) عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّـدْرَةَ مَـا يَغْشَـى (16) مَـا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْـرَى (18)﴾ [النجم: 1 - 18]

فهــذه الآيــات الكريمــة تــدل على أن معارفــك باللــه، والملائكة، والأنبيـاء، وجميـع حقـائق الوجـود، معـارف مشـاهدة وعيان، لا لبس فيها.. وليست مجـرد معلومـات ألقيت إليـك من غير أن تكون قد رأيتها أو عشتها.

ولهذا، فإن من ذكر رؤيتك للـه لم يكن كاذبـا في ذلـك؛ فلا يمكنـك أن تكـون دليلا على اللـه وأنت لم تـره.. وكيـف لا تـراه أنت، وقد قال تلميذك الأكبر الإمـام علي لمن سـأله: هـل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: (ويلك ما كنت أعبـد ربّـا لم أره)، قـال: وكيــف رأيتــه؟ فقــال: (ويلــك لا تدركــه العيــون في مشــاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)(1)

وكيف لا تراه، وأنت الذي ذكرت مقام الإحسـان الـذي هـو دون مقامك بكثير، فقلت لمن سألك عنه: (أن تعبـد اللـه كأنّـك

(1) أصول الكافي، 1، 98..

تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)(1)

وكيف لا تكون معارفك كلها معارف رؤية وشهود، وتلاميذك الذين هم أدنى منك بكثير كانوا يرزقون رؤية بعض ما ترى، وقد روي عن صاحبك الحارث بن مالك الأنصاري قال: مررت بالنبي ﷺ فقال: (كيف أصبحت يا حارث؟) قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: (انظر ما تقول؟ فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟) فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، واطمأن نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: (يا حارث عرفت فالزم)(2)

لم تكن معارفك ـ سيدي يا رسول الله ـ معارف قاصرة عليك، بل كنت تبثها بأبلغ عبارة، وأجمل بيان، حتى يعيش من يسمع كلماتك الحقائق كما هي من غير تبديل ولا تحريف.

وقد ذكر بعض صحابتك تأثير كلماتك فيهم، فقال: (يا رسول الله، نكون عندك تذكّرنا بالنّار والجنّة، حتّى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضّيعات، نسينا كثيرا)، فقال رسول الله ﷺ: (والّذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم)(3)

ولهذا، فإن الثروة العظيمة من كلماتك الممتلئة بالأنوار، وأدعيتك ومناجياتك التي تدل على كل حقائق الوجود ومعانيه لا

1() البخاري- الفتح 1 (50) واللفظ له. ومسلم (90)

2() مصنف ابن أبي شيبة 6/ 170 ح (30425)، المعجم الكبير للطبراني 3/ 266 ح (3367)

3() مسلم (2750)

يمكن مقارنتها بكل تراث البشرية.. فلو جمعنا ما كتب في جميع الديانات، وما تنزلت به جميع الكتب المقدسة، وما تفوه به كل القديسين على مدار التاريخ سابقه ولاحقه، ما وصل إلى جزء بسيط من تلك الثروة العظيمة التي لا نزال نتنور بنورها، ونتزود بمعانيها.

ولو قارنا ما تركته لنا من حيث المعنى بما جاءت به كل الديانات، وما ذكره كل القديسين.. لوجدنا الفروق الهائلة العظيمة.. فأنت كنت تغترف من البحر الذي لم يكدر، والمنبع الذي لم يبدل..

ولو أضفنا إلى تلك الثروة العرفانية العظيمة التي تركتها ما تركه لنا ورثتك وعترتك الذين لم ينهلوا إلا من منهلك العذب.. لما كان لغيرك ظهور معك.. وهل يمكن للكواكب البعيدة أن تظهر مع الشمس الساطعة التي لا يحجبها شيء؟

لقد رحت ـ سيدي ـ أتأمل كلماتك وأدعيتك وحديثك عن ربك وحديثك عن الوجود، فعشت معان سامية لا يمكن أن يعبر عنها إلا من ذاقها من كأسك، فأنت الذي تسقي أمتك من حوضك في الدنيا قبل أن تسقيهم في الآخرة.. ومن لم يشرب من حوضك في الدينا، فلن يشرب منه في الآخرة.

ما عساي أن أقول لك ـ سيدي رسول الله ـ وأنا أرى أمتك تعرض عن كثير مما تركته لهم من معارف صافية خالصة نابعة من بحر حقائق الوجود المقدس.. إلى أنهار مدنسة بالأهواء، ممتلئة بوحي الشيطان.

لقد تركوا ـ سيدي ـ أدعيتك ومناجياتك التي قلتها، أو قالها عترتك الطاهرون الوارثون لك، واخترعوا كثيرا من الأدعية البديلة.. وبألفاظ ركيكة، وبمعاني ممتلئة بالغموض.. ليتقربوا

بها إلى الله، فلم يزدادوا منه إلا بعـدا.. فمـا عـرف اللـه من لم يعرفك، وما عرف الله من سلك غير سبيلك، وما عرف الله من زهـد فيمـا جئت بـه، وراح يطلب الحكمـة من غـير مـدنها ولا أبوابها.

يا سيدي يا رسول الله.. هم لم يكتفـوا بـذلك.. بـل راحـوا إلى الإسـرائيليات والغنوصـيات الشـرقية والغربيـة.. ولكـل من هب ودب ينهلـون منـه حقـائق الوجـود، وكـأن المعـارف الـتي جئتهم بها نقية خالصة لم تكن كافية لتروي ظمـأهم المعـرفي.. فراحـوا يمزجـون العسـل المصـفى الـذي جئتهم بـه بميـاه المستنقعات المكدر.. فاختلط الدين عليهم.. وأصبحت المعرفة بالله مجموعـة من الطلاسـم الـتي تصـرف عن اللـه أكـثر ممـا تعرف به، أو تقرب إليه.

يا سيدي يا رسول الله.. فأسألك أن تنقـذني من كـل تلـك الأوهام التي نشرها المؤثرون لغيرك، حـتى تكـون أنت أسـتاذي ودليلي وشيخي..

وأسألك أن تزج بي في بحر المعارف الخالصة النقية الـتي جئت بهـا، ودعـوت إليهـا، حـتى لا يتسـرب إلى عقلي، ولا إلى قلـبي، ولا إلي حقيقـتي تلـك الأهـواء الممزوجـة بوسـاوس الشياطين.. فأنت صاحب الشفاعة العظمى، والجاه العظيم.. لا ترد من سألك، ولا تخيب من طلبك.. ولا تصد من استجار بـك.. بـل تؤويـه وتطعمـه وتسـقيه من طعامـك الـذي ذكرتـه، فقلت: (وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)(1)

1() البخاري- الفتح 13 (7241) واللفظ له، ومسلم (1104)

الإمام الممكّن

سيدي يا رسول الله.. يا من بوأه الله بعد النبوة والرسـالة منصـب الإمامـة الإلهيـة الرفيـع، ومكن لـه في الأرض، ونشـر اسمه في العالمين، فصار إمام العالم ظاهرا وباطنا، من عرفـه واتبعه وسـلك سـبيله وصـلى خلفـه كـان من النـاجين الفـائزين السابقين، ومن راح يبحث عن غيره، أو رضي بسـواه بـدلا كـان كأولئـك الـذين طلبـوا الذلـة بعـد العـزة، والسـراب بعـد المـاء، والظلمات بعد النور.

وكيف لا يكـون أمـرهم كـذلك، وقـد أخـبر اللـه تعـالى عن الرسل عليهم السلام، وأنهم مـع مكـانتهم الرفيعـة، أخـذ عليهم الميثاق باتباعك، قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ النَّبِيِّينَ لَمَـا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَـابٍ وَحِكْمَـةٍ ثُمَّ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَكُمْ لَتُـؤْمِنُنَّ بِـهِ وَلَتَنْصُـرُنَّهُ قَـالَ أَأَقْـرَرْتُمْ وَأَخَـذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْـرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَـا مَعَكُمْ مِنَ الشَّـاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ﴾ [آل عمـران: 81ـ، 82]، وقد ورد في تفسيرها عن تلميذك الأكبر الإمام علي قولـه: (مـا بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثـاق، لئن بَعَث محمـدًا وهـو حَيّ ليـؤمنن بـه ولينصـرنه، وأمَـرَه أن يأخـذ الميثـاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ، وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه)(1)

ولهذا كان التبشير بك، والدعوة لاتباعك جـزءا من دعـوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد أخبر الله تعالى عن المسيح عليه السلام قوله لقومه: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْـدِي

1() تفسـير ابن جريـر الطـبري (2/ـ 236)، وتفسـير ابن كثـير (1/ـ 386)، وتفسـير البغوي (1/ 322)

اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: 6]

ولا يزال في أناجيلهم إلى اليوم قول المسيح عليه السـلام موصـياً تلاميـذه: (إن كنتم تحبونـني، فـاحفظوا وصـاياي، وأنـا أطلب من الآب فيعطيكم معزيـاً آخـر، ليمكث معكم إلى الأبـد، روح الحـق الـذي لا يسـتطيع العـالم أن يقبلـه، لأنـه لا يـراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه مـاكث معكم، ويكـون فيكم.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبـه أبي وإليـه نـأتي، وعنـده نصـنع منزلاً.. الذي لا يحبني لا يحفـظ كلامي، والكلام الـذي تسـمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأمـا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهـو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل مـا قلتـه لكم.. قلت لكم الآن قبـل أن يكون، حتى متى كـان تؤمنـون، لا أتكلم أيضـاً معكم كثـيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيّ شيء) (يوحنـا 14/ـ 15 - 30)

ولهذا كنت أنت إمام الأنبيـاء الـذين تشـرفوا بلقائـك، وقـد ورد في حـديث الإسـراء قولـك: (وقـد رأيتـني في جماعـة من الأنبياء.. فحانت الصلاة فأممتهم)(1)

ولهـذا ورد في الأحـاديث الكثـيرة أنـك في ذلـك الموقـف الشـديد الـذي تقفـه الخلائـق يـوم الحسـاب، وبعـد أن يجهـدوا للبحث عمن يكـون إمـامهم وقائـدهم وواسـطتهم إلى اللـه للشـفاعة بتعجيـل الحسـاب، تكـون أنت إمـام ذلـك الموقـف وسيده.. ولو أنهم بادروا إليك من أول الحسـاب لمـا ظلـوا فيـه لحظة واحدة.

لقـد كنت تغضـب سـيدي عنـدما تـرى من يريـد أن يـأتم بغـيرك، أو ينهـل الحقـائق والقيم من سـواك، ولم يكن غضـبك

1() مسلم (172)

لنفسك، فأنت أرفع وأعظم من أن تغضب لها، وإنما كان غضبك لترك المنبع الصافي الممتد لمصدر الحقيقة، والاغتراف من الروافد الصغيرة، الممتلئة بالدنس، وقد روي أن بعضهم جاءك، فقال: (يا رسول الله، إني مررتُ بأخٍ لي من قُرَيْظَة، فكتب لي جَوَامِعَ من التوراة، ألا أعرضها علَيك؟)، فقلت له: (لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى)(1)

كان غضبك سيدي كغضب الطبيب من المريض الذي يترك العلاج عنده، ويذهب إلى المشعوذين والدجالين ليدمر صحته باتباعهم، وترك من جعلهم الله واسطة لحفظ صحته، وعلاج أدوائه.

ولذلك كنت أنت يا رسول الله ولا تزال ترياقا يعالج كل هموم الأمة ومشاكلها.. وكنت ولا تزال الإكسير الأحمر الذي يحول حالها من أسوئها إلى أحسنها.. وكنت أنت المنقذ والمغيث للأمة والمخلص لها من كل الأزمات.

وقد شهد لك بذلك من عرفوك ولو لم يتبعوا سبيلك، وقد قال المفكر والأديب الإنجليزي [جورج برنارد شو] عنك: (ما أحوج العالم الى محمد ليحل مشاكل العالم وهو يحتسي فنجان قهوة)

وقال [ليتسين] مخاطباً لك بأبيات من الشعر يقول فيها: (يا ابن مكة ويا نسل الأكرمين.. يا معيد مجد الآباء والأمهات.. يا مخلص العالم من ذا العبودية.. إن العالم ليفتخر بك.. ويشكر الله على تلك المنحة العزيزة.. ويقدر لك مجهوداتك كلها.. يا نسل الخليل إبراهيم.. يا من منحت السلام الى العالم.. ووفقت

1() رواه أحمد (3/ـ 387، رقم 15195) قال الهيثمى (1/ـ 174): رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار.

بين قلـوب البشـر.. وجعلت الخلاص شـعارك.. يـا من قلت في شريعتك: إنما الأعمال بالنيات.. لك منا جزيل الشكر)

وقال [ساديو لويس]: (لم يكن محمـد نـبي العـرب بالرجل البشـير للعـرب فحسب. بل للعـالم. لو أنصـفه النـاس. لأنه لم يـأت بـدين خـاص بـالعرب. وأن تعاليمـه الجـديرة بالتقـدير والإعجـاب تـدل على أنـه عظيم في دينـه. عظيم في أخلاقـه. عظيم في صفاته. وما أحوجنـا الى رجـال للعـالم أمثـال محمـد نبي المسلمين)

لكن الكثير من أمتك سيدي ـ مع كل هذا الكمال والجمـال الـذي كنت عليـه، وجئت بـه ــ أعرضـوا عنـك، وراحـوا يعملـون أهواءهم، ويقتبسون من الشرق والغرب، ويخلطون ذلـك ببعض هديك كما يفعل من يخلـط السـم بالعسـل.. فـأوهمهم العسـل أنهم على هـديك، وأنـك إمـامهم لكن السـم كـان يسـري في حقائقهم ليدمرها، ويشوهك، ويشوه هديك.

لقد ذكرت سيدي ذلك، وحـذرت منـه، ودعـوت إلى صـفاء المنبع، فقلت: (والّذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضـاء نقيّـة لا تسـألوهم عن شـيء فيخـبروكم بحـقّ فتكـذّبوا بـه أو بباطـل فتصدّقوا به، والّذي نفسي بيده لو أنّ موسـى صـلّى اللـه عليـه وسلّم كان حيّا ما وسعه إلّا أن يتّبعني)(1)

وقد أخبرت سيدي عن ذلك الدخن الذي يختلط فيه هـديك بغـيره، فقلت لمن سـألك: (هـل بعـد ذلـك الشّـرّ من خـير؟)، فأجبتـه قـائلا: (نعم، وفيـه دخن)، فسـئلت: ومـا دخنـه؟ فقلت: (قوم يسـتنّون بغـير سـنّتي، ويهـدون بغـير هـديي، تعـرف منهم وتنكر)(2)

(1) رواه أحمد (3/ 387)، والدارمي برقم (441)
(2) مسلم (1847)

ولذلك كنت تحـذر من البـدع، واتباعهـا، وتعتبرهـا أكـبر من يصـرف النـاس عن إمامتـك، ليتخـذ النـاس بعـدك أئمـة جهلـة يضـلون ويُضـلون، وكنت تقـول: (من أحـدث في أمرنـا هـذا مـا ليس منه فهو ردّ)[1]

بل إن القرآن نطق بذلك، ودعا إليه، وحـذر من تركـك إلى غيرك، وقد ورد فيه قوله تعـالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

وقـد حـدث ابن مسـعود عن تفسـيرك للآيـة، واسـتعمالك لبيانها ما يوضحها أحسن توضيح، فقال: خط لنا رسـول اللـه ﷺ يوما خطا فقال: (هـذا سـبيل اللـه)، ثم خـط خطوطـا عن يمين الخط ويساره وقال: (هذه سُبل، على كـل سـبيل منـه شـيطان يدعوه، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُـوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَـبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ﴾ [الأنعام: 153] يعني الخطوط التي عن يمينه ويساره)[2]

فهذا الحديث يبين أن سبيل الحق واحد، وسـبل الشـيطان متعددة، وأن الحق قد يختلط بالباطـل حـتى يتـوهم النـاس أنـه الحق.. ويبين فوق ذلك كله أنك أنت مصدر الحق وإمامه.. ومن ينهل الحق من غيرك ضل.

ولهـذا كـان ورثتـك الصـادقون يحـذرون من أولئـك الـذين تركوك، وراحوا يأتمون بغيرك، وقد قال الإمـام علي، لمن رآهم يهجرونك، ويتبعون غـيرك: (أيُّهـا النـاس إنّمـا بَـدْءُ وقـوع الفتن، أهواءٌ تُتَّبع، وأحكام تُبتدع، يُخـالف فيهـا كتـاب اللـه، يتـولى فيهـا

1() البخاري الفتح 5 (2697) واللفظ له. ومسلم (1718)

2() أحمد (1/ 435، 465) رقم (4141)، (4436) والحاكم (2/ 318)

رجال رجالاً، فلو أنّ الباطل خلص لم يُخف على ذي حجى، ولــو أنّ الحق خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى)(1)

وقال: (إنّ من أبغض الخلـق إلى اللـه عـزّ وجـلّ لـرجلين: رجل وكلّه الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، مشـغوف بكلام بدعة، قد لهج بالصـوم والصـلاة فهـو فتنـة لمن أفتتن بـه، ضال عن هَدي من كان قبلـه، مضـل لمن اقتـدى بـه في حياتـه وبعد موته، حمّال خطايا غيره، رهنٌ بخطيئته) (2)

وقال: (وأما أهل السُـنّة فالمتمسـكون بمـا سـنّه اللـه لهم ورسـوله، وإن قلّـوا، وأمـا أهـل البدعـة فالمخـالفون لأمـر اللـه تعالى وكتابه ولرسوله، والعاملون برأيهم وأهوائهم، وإنْ كـثروا، وقد مضى منهم الفـوج الأول، وبقيت أفـواج، وعلى اللـه فضُّـها واستئصالها عن جدبة الأرض)(3)

وسـأله رجـل عن السُـنّة، والبدعـة، والفرقـة والجماعـة، فقـال: (أمّـا السُـنّة: فسـنّة رسـول اللـه ﷺ وأمّـا البدعـة، فمـا خالفها، وأمّا الفرقة، فأهـل الباطـل وإنْ كـثروا، وأمّـا الجماعـة، فأهل الحق وإن قلّوا)(4)

فنسألك يا سيدي يا رسول الله، يـا عظيم الجـاه، بمـا لـك من وسـيلة عنـد اللـه، أن تجعلنـا من المـؤتمين بـك في كـل شؤوننا، وأن نسير على هديك، وعلى سراطك المسـتقيم الـذي

1() الكافي، 1/ 55.

2() الكافي، 1/ 55.

3() كنز العمال، 16/ 184 | 44216.

4() تحف العقول، 211.

لم يغـير ولم يبـدل، حـتى نلقـاك، وأنت راض عنـا، فـرح بنـا، لتسقينا بيدك الشريفة ماء الاستقامة والطهارة الذي لا نضل ولا نظمأ بعده أبدا.

القائد الملهم

سيدي يا رسول الله.. أيها القائد الملهم الحكيم الذي استطاع من غير جيوش جرارة، ولا إرث حضاري عريق، أن يخرج أمة من البدو والأعراب، وفي فيافي ومفازات مجدبة قاحلة، من كل آثار التخلف والبداوة، إلى كل قيم التقدم والحضارة.. وفي سنين معدودات، على الرغم من كل ألوان المواجهات التي تعرض لها.. ولم يكتف بذلك، بل استطاع أن يؤسس لدولة صارت لها القدرة على مواجهة أكبر الإمبراطوريات وتحديها.

ولم يحصل ـ سيدي ـ مثل هذا في التاريخ جميعا.. لا للقادة التاريخيين، ولا للأنبياء والمرسلين.. وكان ذلك وحده كافيا للعقول الجادة الصادقة أن تبحث عن سر ذلك المدد الإلهي الذي أمددت به، والإلهام العظيم الذي ألهمك الله إياه، لتسير في ركاب النصر، متحديا كل العقبات إلى أن بلغت أمتك أوجها بين الأمم.. وكان ذلك كله بقيادتك الحكيمة.

وقد كان في إمكان الأمة لو التزمت هديك، ولم تخالف وصاياك، أن تنشر علم الهداية في الأرض جميعا، ومن غير جيوش ولا سيوف.. لكن داء الأمم من قبلها تسرب إليها، فخالفت ما عاهدتك عليه، فحاق بها ما نزل بكل المخالفين لرسلهم، وكنت البريء، وكانوا الضحايا.

لا أزال أذكر سيدي كيف كنت في مكة المكرمة، وبين قومك الممتلئين بالقسوة، وأنت تقول لهم، بعد أن عرضوا عليك أن تملكهم، وتقودهم بما يرغبون، لا بما ترغب الحقيقة مخاطبا عمك الولي الصالح: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى

يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) (1)

ولا أزال أردد معها ما أنـزل اللـه عليـك حينهـا يـأمرك بـأن تخاطب الكـافرين، وتتـبرأ من كـل الجـرائم الـتي يـدعونك إلى تأييـدها حـتى تنـال القبـول عنـدهم، قـال تعـالى: ﴿قُـلْ يَاأَيُّهَـا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَـا أَعْبُـدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَـا أَعْبُـدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6﴾ [الكافرون: 1 - 6]

لقد كنت حينها ـ سيدي ـ وكان أتباعـك في منتهى الضـعف والفاقة والحاجة، وكانوا يُضربون بكـل السـياط، ويُسـلط عليهم كل ألوان البلاء.. لكنك كنت تأبى أن تضحي بالمبـادئ من أجـل المصالح.. أو أن تبيع شريعة الله بشريعة الأهواء.

كان بعض المشـركين حينهـا قـد رأى فيـك مخايـل النجابـة والعبقريـة، وعلم أنـه سـيكون لـك شـأن عظيم، وأن دعوتـك ستنتصـر؛ فلـذلك راح يبتهـل الفرصـة، ويقـول لصـاحبه، وهـو يحاوره: (والله، لو أني أخذت هذا الفـتى من قـريش، لأكلت بـه العـرب)، ثم راح يسـاومك في تلـك الأوقـات الصـعبة، قـائلا: (أرأيت إن نحن بايعنـاك على أمـرك، ثم أظهـرك اللـه على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟)، فقلت له، بكـل هـدوء، مـع أنك محتاجـا لمن ينصـرك، ويعينـك على قومـك المنـاوئين لـك: (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)، فقال لـك: (أفتهـدف نحورنـا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كـان الأمـر لغيرنـا! لا حاجـة لنـا بأمرك) (2)

وهكذا كنت ــ سـيدي ــ تحمي دعوتـك من كـل المندسـين

1() الروض الأنف (3/ 45)

2() سيرة ابن هشام (1/ 424)

والانتهازيين الذين يريدون تشويه المبادئ لحساب المصالح.. لا كما يفعل أولئك القادة الذين يتركون كل قيمهم من أجل مصالح محدودة.

ولم يكن هذا الجانب الفريد في قيادتك.. بل كنت مدرسة للقيادة، وفي أجمل صورها، وأكمل معانيها.. ولو أن البشر جميعا تخلوا عن كل ما درسوه في القيادة، وراحوا يتأملون حياتك، وكيف كنت ولا تزال القائد المخلص، لنهلوا القيادة من أعذب مواردها.

إنهم يرون القادة، يتبجحون، ويستكبرون، وقد يصلون إلى بعض أهدافهم المحدودة، بعد أن يذيقوا من كان معهم أصناف الهوان.. لكنهم عندما يتأملون قيادتك الحكيمة، يرون تواضعك لأصحابك، ورأفتك بهم، ومخالطتك لهم، وكأنك أحدهم، لا تتميز عنهم بشيء، وقد قال بعضهم يصفك: (والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى نبي الله ﷺ لقيه، كان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده)(1)

ووصفك آخر، فقال: كانت في رسول الله ﷺ خصال ليست في الجبارين، كان لا يدعوه أحمر، ولا أسود، إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بها إلى فيه، وإنه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يركب الحمار عريا، ليس عليه شيء) (2)

وعندما لقيك بعضهم، وتوهم أنك تشبه كل القادة والزعماء أصابته رعدة، فقلت له مهدئا: (هون عليك، فإني

1() رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر ـ وقال: هذا حديث مرسل ـ وقد جاء معناه في الأحاديث المسندة.

لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)[1]

وعندما رآك بعض الأعـراب جاثيـا على ركبتيـك، كمـا يجثـو العبيد، مع أنك كنت حينها في قمة قوتـك، قـال لـك: يـا رسـول الله ما هذه الجلسـة؟ فقلت: (إن اللـه عـز وجـل جعلـني عبـدا كريما، ولم يجعلني جبارا عنيدا)[2]

لقد أشـفق حينهـا بعض أصـحابك عليـك من كـثرة ازدحـام الناس ومخـالطتهم، وقـال لـك: (يـا رسـول اللـه إني أراهم قـد آذوك، وآذاك غبارهم، فلـو اتخـذت عريشـا تكلمهم فيـه)، فقلت لــه: (لا أزال بين أظهــرهم يطئــون عقــبى وينــازعوني ثــوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم) [3]

ولهـذا كنت تعتـبر الحجـاب نوعـا من الاسـتبداد، وقـد قلت محذرا من يتولون القيادة في أمتـك من الاحتجـاب عن الرعيـة: (من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين، فاحتجب دون حــاجتهم وخلتهم وفقـرهم، احتجب اللـه دون حاجتـه وخلتـه وفقـره يـوم القيامة) [4]

وهم يـرون القـادة ــ مـع ضـعفهم وقصـورهم ــ يسـتبدون بــالرأي، ولا يشــاورون رعيتهم، ولا من يكونــون معهم.. لكنهم يرونك بخلاف ذلك؛ فمع أن الله تعـالى أمـدك بإلهامـه ووحيـه.. ومـع أنـك في ذاتـك في قمـة العبقريـة والحكمـة إلا أنـك كنت تستشيرهم، وتنزل عند رأيهم، ولو خالف رأيـك، وقـد قـال اللـه تعالى يثـني عليـك بـذلك، ويـدعوك إلى الاسـتمرار عليـه، حـتى

1() رواه ابن سعد.

2() رواه ابن ماجه.

3() رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

4() رواه أبو داود، والترمذي.

يكون ذلك قدوة لكل القادة:﴿فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَـوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الْأَمْـرِ فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]

وقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد غزوة أحد، والتي خـالفت فيها رأيك، ونزلت فيها عند رأيهم، وكـان ذلـك سـبب مـا حصـل من انتكاسـة، وكأنهـا تقـول لـك: (اسـتمر على مشـاورتهم، ولا تتراجع بسبب ما حصل.. ففي ذلك الخـير والبركـة، وإن جـاءت النتيجة في إحدى المرات على غير ما تحب، فالعبرة بالعاقبة)

ولذلك تروي كتب السيرة والسنن الكثـير من مشـاوراتك؛ فقد شاورتهم في غزوة بدر، قبـل القتـال، وفى أثنائـه، وبعـده. ولم تدخل المعركة إلا بعد أن اطمأننت على رضا جمهورهم.

وشاورتهم في غزوة أحـد؛ فـنزلت إلى رأى الأكثريـة الـتي تخالف رأيك، وخرجت إلى المشركين، مع أنك كنت ترى البقــاء والقتال داخل المدينة.

وشـاورتهم في الخنـدق، وقـد أشـار عليـك حينهـا سـلمان الفارسي بالاقتداء بما كان الفرس يفعلونه للـدفاع في الحـرب، وقال لك: (يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خنـدقنا علينـا)؛ ففعلت ما ذكره، ورحت كواحد من الناس تشتغل بالحفر معهم، وكلما صعب عليهم الحفر في موضع، انتدبوك لتقوم بذلك.

لقد كـانت تلـك الغـزوة الـتي اجتمعت فيهـا كـل الأحـزاب لتستأصل الإسلام من جذوره، أعظم دليل على قيادتك الحكيمة للأمــة، فقــد أنقــذت المســلمين من تلــك المــؤامرة بصــبرك وحكمتك، وارتد المشركون والمنـافقون واليهـود وغـيرهم ممن تألبوا عليك فارغي الوفاض، لا يقـدرون على شـيء.. بـل زادت

مهابتك في قلوبهم، فلم يتجرؤوا على أن يجتمعوا مجددا.

لقد ذكر الله تعالى تلك المواقف الحرجة التي مر بها المسلمون، وكيف كنت السبب في خلاصهم، فقال: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: 10 - 13]

وهكذا كان الجميع يتذرعون للفرار من المعركة.. لكنك بحكمتك استطعت أن تنتصر، ومن غير سفك للدماء.

وفوق ذلك كله كانت قيادتك لمجتمع متنوع، فيه كل أصناف التمييز والطبقية والعنصرية، ومع ذلك استطعت أن تملأ حياتهم بالانسجام، وأن تخلصهم من تلك العصبيات، وأن تنشر بينهم قيم الأخوة، لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]

لقد استطعت ـ سيدي ـ في ظل قيادتك الحكيمة أن تمحو كل تلك الفوارق الاجتماعية التي كانت تملأ حياة المجتمعات جميعا، فقد كنت تردد عليهم كل حين: (إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقى وفاجر شقى، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى

تدفع بأنفها النتن) (1)

وهكذا كانت قيادتك ــ سيدي ــ على خلاف قيادة غيرك، ممتلئة بالتواضع والرحمة واللطف والقيم.. وفوق ذلك كله كانت ممتلئة بالزهد والعفاف والنبل.. فلم تكن تطلب من وراء تلك الخدمات العظيمة التي قدمتها للأمة أي أجر.. وقد أمرك الله تعالى أن تقول: ﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام:90)، وأن تقول: ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان:57)، وأن تقول: ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (صّ:86)

ولهذا اعتبر من أدلة صدقك لكل المناوئين والمشككين، عفافك عن الأموال والمصالح، قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (الطور:40)، وقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المؤمنون:72)

فأنت ـ سيدي ـ لم تكن لتنال على تلك الوظيفة الخطيرة التي كلفت بها، والتي جعلتك مشغولا في كل الأوقات، لا ترتاح ليل نهار، أي أجر سوى الأجر الذي أعده الله لك.

بل إن الله تعالى فوق ذلك أمر بأن تعيش جميع حياتك ـ مهما فتح الله عليك من الدنيا ـ بتواضع وزهد وبعد عن الملذات التي يتهافت عليها الناس، قال تعالى: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر:88)، وقال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:131)

1() رواه أحمد (2/ 523، رقم 10791)، وأبو داود (4/ 331، رقم 5116)، والبيهقى (10/ 232، رقم 20851). وأخرجه أيضا: الترمذى (5/ 735، رقم 3956)

هـذه سـيدي بعض ملامح قيادتـك للأمـة.. وهي كافيـة لأن تجعلك أسوة صـالحة للقيـادة الحكيمـة، الـتي لا تريـد جـزاء ولا شكورا، وإنما تهدف إلى تحقيق العـدل والرحمـة، ونشـر الخـير والبركة.

ولو أن الأمة استننت بسنتك.. لمـا حصـل لهـا هـذا التخلـف والاسـتبداد الـذي نعانيـه، ذلـك أنهـا تركتـك، وتـركت وصـاياك، وراحت تسـتن بسـنة كسـرى وقيصـر، وحـولت دينـك من دين العدالـة إلى دين الجـور، ومن دين الرحمـة إلى دين الاسـتبداد والقسوة.

فنسألك يا سيدي يا رسـول اللـه، وأنت وسـيلتنا العظمى، أن تكون أنت قائدنا وقدوتنا، حتى لا تمزقنا الطوائف، ولا تشتتنا المذاهب، ولا تفرقنا الملل.

واجعلنا سيدي تحت لوائك في الـدنيا والآخـرة، حـتى ننـال شـرف الجنديـة ضـمن جنـودك الـذين لا ينقطعـون، وفي جميـع الأزمنة.

ونعوذ بك أن نفرق صف أمتـك، أو نخلفـك فيهـا بسـوء، أو نسيء إلى تعاليمك المقدسة، أو يدب إلينا داء الأمم من قبلنـا.. إنك تجير من اسـتجار بـك، وتحمي من التجـأ إليـك، وتجيب من سألك، فجاهك العظيم عند الله، ومقامك الرفيع عنده أرفـع من أن يرد يدي خائبتين.

المبلغ الأمين

سيدي يا رسول الله.. يا من اختاره الله لتبليغ آخر كلماتــه المقدسة للبشر، فبلغها كما سمعها، لم يغير ولم يبـدل.. وبلغهـا لكل الناس بجميع طبقاتهم، فلم يستثن منهم أحدا.. وبلغهــا في كل الظروف اللينة والقاسـية.. وكـان أمينـا في كـل ذلـك.. فلم تختلط كلماته بكلمات اللـه، ولا الهـدي الـذي نطـق بـه بالهـدي الذي أنزل عليه مع أن المنبع واحد، والسراج واحد.

ولو أن أولئك المتحذلقين المـدعين للعقلانيـة، صـدقوا مـع عقـولهم، واكتفـوا منـك بهـذا البـاب من أبـواب الدلالـة عليـك، لأوصلهم إليك، ولكان مقدمة لهم ليعرفوك.

فلو أنهم نظروا إلى الظروف التي كانت تتنزل عليك فيهــا كلمات ربك، وقارنوها بالظروف التي كتب فيها كل العباقرة مـا كتبوه لوجـدوا أن الكلمـات الـتي بلغتهـا يسـتحيل أن تكـون من عندك.

فالعبــاقرة أو من يظنــون أنفســهم كــذلك، كــانوا يكتبــون كلماتهم في ظل التمجيد والتعظيم والتقـديس، بينمـا كنت تبلـغ كلمات ربك، وأنت محاط بأولئك القساة الذين كــانوا يســخرون منك ومنها، ويستعملون كل وسائل الإيذاء والتنفير التي وصــفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَا تَسْـمَعُوا لِهَـذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: 26]، وبقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَـا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْـهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 4، 5]

وقد كان الوحي حينها يتنزل عليك بكل أصناف الحجج التي

ترد عليهم، وتبين لهم أن مصدر الكلمات التي جئتهم بها من الله، وليس من عندك، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 6]، وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: 38 - 47]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تخبر أنك مبلغ عن الله، وأن الذي جئت به ليس من عندك..وقد كان في إمكانك ـ سيدي لو كنت كما يذكرون ــ أن تنسب تلك الكلمات إليك، وحينها سينبهرون بك، وببلاغتك المعجزة، وسيصبحون جميعا من أتباعك، وليس أولئك العبيد والفقراء فقط.. وحينها كان يمكن أن يتوجوك بتاج الملك عليهم..

وهذا وحده كاف للعقول في كونك رسولا لله، وأن ما جئت به ليس من عندك.. وإلا فإنهم لو لاحظوا كل الشعراء والأدباء والفلاسفة وغيرهم، وحرصهم على نسبة كل كلمة أو جملة إليهم، وفرحهم بما يكتبونه أو يذكرونه، لعرفوا أنه يستحيل أن تكون تلك الكلمات النورانية المعجزة من عندك.

وكيف تكون من عندك، وهي تدعوك، وفي تلك الظروف القاسية، أن تترك الأمر لله، ليعذبهم، أو يرحمهم، لأنك مجرد مبلغ عن الله، ولست مكلفا بهدايتهم أو السيطرة عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر:41)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ

عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى:6)، وقـال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيـدِ ﴾ (قّ:45)، وقـال: ﴿لَسْـتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَـيْطِرٍ﴾ (الغاشـية:22)، وغيرها من الآيات الكريمة التي تـنزع عنـك كـل مسـؤولية على العباد، وتجعل الأمر لله وحده.

ولو أنهم ـ سـيدي ــ نظـروا في تلـك الآيـات الـتي تـدعوك لمقابلة سخرية الساخرين واستهزاءهم بالعفو والصـفح والحلم، لعلموا أن الأمر خارج عن عـالم البشـرية، وأن الـذي قـال تلـك الكلمات أقدس من أن تؤثر فيه البيئـة أو الظـروف المختلفـة.. فقد كان القرآن حينها ينزل ليقول لك: ﴿ وَقِيلِهِ يَـارَبِّ إِنَّ هَـؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَـلَامٌ فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ ﴾ [الزخرف: 88، 89]، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُـونَ (97) فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّـاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 97 - 99]

ولو أنهم ـ سيدي ـ تأملوا في تلك الآيات التي تعاتبـك، بـل تشـتد عليـك، لعلمـوا أنـه يسـتحيل أن يعـاتب الشـخص نفسـه، وبتلك الشدة، وقـد قـالت عائشـة تخـبر عن بعض تلـك الآيـات، وأنهـا دليـل على كونـك لم تكتم شـيئا من الـوحي الـذي أنـزل عليك: (لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا ممـا أنـزل اللـه عليـه، لكتم هــذه الآيــة على نفســه: ﴿وَإِذْ تَقُـولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْـهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَـكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِـكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشَـاهُ فَلَمَّا قَضَـى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُـونَ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ حَـرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَـوْا مِنْهُنَّ وَطَـرًا وَكَـانَ أَمْـرُ اللَّهِ مَفْعُـولًا﴾ [الأحزاب: 37])[1]

[1] رواه أحمد (43/ 166)، و الترمذي (3208)

وقد جاء بعدها قوله تعالى: ﴿مَـا كَـانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَـرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَـانَ أَمْـرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]، وهو يدل على أنك ــ سـيدي ـ لحرصك على إيمان الناس كنت تتمـنى أن تـوافقهم في بعض ما يطلبونه من الشؤون الخاصة بـك، حـتى لا يكـون ذلـك فتنـة لهم.

لكن الله تعـالى كـان ينهـاك عن ذلـك، ويخـبرك أن الفتنـة ضرورية للتمحيص، حتى يتـبين الصـادق من الكـاذب، كمـا قـال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَـةَ فِي الْقُـرْآنِ وَنُخَـوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرً﴾ [الإسراء: 60]

ولذلك ورد في القرآن الكريم بعض الشؤون الخاصـة بـك، والتي لا يزال النـاس يُمحصـون بهـا.. فاللـه تعـالى في القـرآن الكـريم يعاتبـك قـائلا: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّبِيُّ لِمَ تُحَـرِّمُ مَـا أَحَـلَّ اللَّهُ لَـكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـانِكُمْ وَاللَّهُ مَـوْلَاكُمْ وَهُـوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَـرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَـدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِـهِ وَأَظْهَـرَهُ اللَّهُ عَلَيْـهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 1 - 3]

ويقول لك فيه: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَـا لَـكَ أَزْوَاجَـكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِـكَ وَبَنَـاتِ خَالَاتِـكَ اللَّاتِي هَـاجَرْنَ مَعَـكَ وَامْـرَأَةً مُؤْمِنَـةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَـهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَـكَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ قَـدْ عَلِمْنَـا مَـا فَرَضْـنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُـونَ عَلَيْـكَ حَـرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 50]

وغيرها من الآيات الكريمة الـتي كـان يمكن ألا يـنزل فيهـا القرآن الكريم، ولكن الله شاء أن يتنزل بهـا، حـتى تكـون فتنـة وتمحيصـا لأولئـك الـذين يزعمـون أنهم يُعملـون عقـولهم، ثم يعطلونها بما تشاء لهم أهواؤهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]، وقـال: ﴿وَإِذَا مَـا أُنْـزِلَتْ سُـورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًـا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَـافِرُونَ (125) أَوَلَا يَـرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَـذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: 124 - 126]

ولذلك كنت المبلـغ عن اللـه الأمين في تبليغـك؛ فلم تـراع حرصك على إيمان الناس، وإنما راعيت مـا كُلفت بـه، حـتى لـو كنت خائفا من أن يكون ذلك فتنة لبعض من اتبعوك، وقـد قـال الله تعالى يأمرك بالبلاغ في شأن إمامة الإمام علي من بعـدك: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَـلْ فَمَـا بَلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:67)

وحين نزلت عليك هذه الآية الكريمـة، وكنت تعلم أن تبليـغ ما كلفت بتبليغه سيكون فتنة عظيمة، لكنـك فعلت تنفيـذا لأمـر الله.. وقد ورد في الحديث المتواتر أنك بعد نزولها عليك طلبت أن يقـام لـك من حـدائج الإبـل، فصـعدت عليـه، ثم قلت: (إنّي أوشك أن أدعى فأجيب، وإنّي مسئول، وأنتم مسئولون، فمـا ذا أنتم قائلون؟)، فقالوا: نشهد أنّـك قـد بلّغت، ونصـحت وجهـدت فجزاك الله خيرا.. ثم قلت لهم: (ألستم تشـهدون أن لا إلـه إلاّ الله، وأنّ محمّدا عبده ورسوله، وأنّ جنّته حـقّ، وأنّ نـاره حـقّ، وأنّ الموت حقّ، وأنّ السّاعة آتيـة لا ريب فيهـا، وأنّ اللـه يبعث

من في القبــور...)، فقــالوا: بلى نشــهد بــذلك، فقلت: (اللهمّ اشـهد)، ثم قلت: (إنّي فـرط على الحـوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضـه مـا بين صـنعاء وبصـرى، فيـه أقـداح عـدد النّجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلّفـوني في الثّقلين؟.. الثّقـل الأكبر كتاب اللـه، طـرف بيـد اللـه عـزّ وجـلّ، وطـرف بأيـديكم فتمسّـكوا بـه لا تضـلّوا، والآخـر الأصـغر عـترتي، وإنّ اللّطيـف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقـا حتّى يـردا عليّ الحـوض، فسـألت ذلــك لهمــا ربّي، فلا تقــدّموهما فتهلكــوا، ولا تقصــروا عنهمــا فتهلكوا)

ثمّ أخذت يد الإمام علي بيدك الشـريفة، ثم رفعتهـا، حـتى بـان بيـاض إبطيهمـا، ثم قلت مخاطبـا الجمـوع الكثـيرة: ((أيّهـا النّاس، من أولى النّاس بالمؤمنين من أنفسهم؟)، فأجابوا: اللـه ورسوله أعلم، فقلت: (إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مـولاه)، ثم كررت ذلك، وأكدته، ثم ختمه بقوله: (اللهمّ وال من والاه، وعاد من عــاداه، وأحبّ من أحبّــه، وأبغض من أبغضــه، وانصــر من نصره، واخـذل من خذلـه، وأدر الحـقّ معـه حيث دار، ألا فليبلّـغ الشّاهد الغائب)[1]

لقد كنت تعلم تأثير ذلك في الناس، وخاصة في القرشيين الذين كانوا يتوهمون أن الإمامة منصب دنيـوي، وأنـه كمـا كـان لبني هاشم النبوة، كان لغيرهم من القرشيين الإمامة، لكنك مع ذلك بلغت أمر الله، ولو أنك كنت تعلم أنهم لن ينفذوه..

ولذلك أثنى الله تعالى عليك، وأنك كنت المبلغ لكل حقائق الـدين وقيمـه، وبأحسـن صـورة، قـال تعـالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُـونَ

1() ما أوردناه هنا هـو من روايـات متفرقـة وردت في الصحاح والسـنن وغيرهـا، انظـر: صـحيح مسـلم (2408) والترمـذي (3788) واللفـظ لـه. وغيرهما كثير.

رِسَــالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَــوْنَهُ وَلَا يَخْشَــوْنَ أَحَــدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: 39]

هذه بعض جوانب أمانتـك في التبليـغ، وحرصـك عليـه.. ولا يمكننا أن نحيط بها جميعا.. فقد كنت القـرآن النـاطق الـذي لم يكتـف بتبليـغ الكلمـات، وإنمـا أعطى النمـوذج الـدال عليهـا، والشارح لها.. فكانت حياتك كلها بلاغا عن الله، وبكـل جزئياتهـا وتفاصيلها.

وكانت كذلك على الرغم من ثقل التكليف الذي كلفت بـه، والذي جعلك لا ترتاح ليلا ولا نهـارا.. وقـد قـال تعـالى يخـبر عن تلك المشقة التي كنت تلقاها، والتعب الذي كان يصيبك: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 1 - 6]

لقد كان ذلك البلاغ الذي كلفت به غير خاص بالخلق فقط، وإنما كان يبدأ بك، بل كانت أشد التكاليف تتـنزل عليـك، وتعفي غيرك، فمع أن غيرك من المؤمنين أعفي من قيام الليل إلا أنك كنت مطالبا به على الرغم من تعبك الطويل في النهار، ومشقة الأعمال الكثيرة التي كنت تقـوم بهـا.. لقـد قـال تعـالى يـأمرك بـذلك: ﴿وَمِنَ اللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِـهِ نَافِلَـةً لَـكَ عَسَـى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: 79]

وكنت لذلك تسـهر أكـثر الليـل قائمـا للـه إلى أن تفطـرت قدماك.. ثم إذا اسـتيقظ النـاس لصـلاة الفجـر كنت أولهم، بـل مـوقظهم.. ثم تقضـي بعـد ذلـك سـائر النهـار في تلـك الأعبـاء الكثــيرة الــتي كلفت بهــا.. وفي وســط مملــوء بالمعانــدين والمنــافقين والمشــاغبين الــذين لا يكــاد أحــد يطيقهم، وهم متفرقون، لكنك أطقتهم وهم مجتمعون.

ولم تكن تطلب من ذلك التعب الكبير جزاء ولا شكورا، بل إن الوحي كان يتنزل عليك حينها ليأمرك بالزهد في كل المتاع، قال تعـالى: ﴿ وَلَا تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْـكَ إِلَى مَـا مَتَّعْنَـا بِـهِ أَزْوَاجًـا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيـهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْـرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طـه: 131]

وحينما اشـتكى أزواجـك تلـك الحـال الـتي كـانوا يعيشـون عليها من الفاقة، وطلبوا منك تحسـين وضـعية معيشـتهم أنـزل الله عليك قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِـنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 28، 29]

وقد ورد في التفسير أنهـا بمجـرد أن أنـزلت عليـك، رحت تدعوهن ليخيرنك أو يخيرن زهرة الحياة الدنيا، فاخترنك جميعا.. وهل يمكن لعاقل أن يختار غيرك.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ أن تتوسل إلى الله بـأن أكون وارثا لك في البلاغ؛ فأصبر كما صبرت، وأدعو كما دعوت، وأتحمل كما تحملت، ولا ألين كما لم تلن.. حتى أكـون من أهـل قولك: (نضر الله عبدا سمع مقالتي هذه فحملهـا، فـرب حامـل الفقه فيه غير فقيه، ورب حامل الفقه إلى من هو أفقه منه) (1)

وحتى أحشر مع الذين وصفهم الله تعالى بأنهم لا يخــافون فيـه لومـة لائم.. وحـتى أكـون تحت لـواء الصـادقين معـك يـوم القيامة.. فلا ينال شرف الدخول تحت ذلك اللواء في الآخرة إلا من كان تحته في الدنيا.

وأسـألك ألا أكـون من الـذين يبلغـون مـا لا يفهمـون، أو

1() رواه أحمد (21/ 60)، وابن ماجه (236)، والبيهقي في الشعب (7514)

يدعون إلى ما لا يستوعبون، أو يخالفون بأفعالهم ما يبلغونه بأقوالهم، حتى لا يكون بلاغي فتنة وتشويها لدينك ورسالتك.. فإنك يا سيدي يا رسول الله لا ترد من استجار بك، أو طلب شفاعتك..

الواعظ الخطيب

سيدي يا رسـول اللـه.. يـا من جعـل اللـه كلماتـك البليغـة ترياقا للقلوب، وشفاء للصدور، ومحركا للجـوارح.. فلا يسـمعها صادق إلا تخلى عن كسله، وأخذ كتابه بقوة، وتحـول من متمـرد معارض إلى مؤمن مسالم.

لقد رحت أتأمل كلماتـك ومواعظـك الـتي بلغتنـا، وقارنتهـا بكل مواعظ البلغاء والخطباء والأئمة، من المسـلمين وغـيرهم، فوجدت أنك ملك الخطباء والوعاظ، وأصدقهم، وأكثرهم تأثيرا.

ووجدت أن كلماتك لا تبليها الأيام، ولا تـؤثر فيهـا السـنون، ولا يجعلها التكرار مملة، بل هي دائمة الجدة والحياة، وتؤثر في كل الأوقات.. لأن معانيها تنبع من بحر الحقيقة الـذي لم تكـدره دلاء الأهواء والوساوس.

وكيـف لا تكـون مواعظـك كـذلك، وأنت الـذي لم تعـظ إلا بالإذن الإلهي الخاص، الذي دعـاك إليـه ربـك، فقـال: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (النساء:63)، والله مـا دعـاك لذلك إلا بعد علمه بتوفر كل القدرات المرتبطة به لديك..

ولـذلك لم تكن مواعظـك سـيدي مطربـة للآذان ببلاغتهـا فقط، وإنما كانت مطربـة أيضـا للأرواح والأنفس، حيث تتسـلل إليها بكل رفق، لأنها تنطلق من تلك المعرفة اللدنية التي وهبك الله، والتي جعلتك ترى الحقيقة الإنسانية أمامـك بكـل لطائفهـا وجوانبهـا، فتخاطبهـا جميعـا، لتثـير أشـواقها لسـلوك طريـق الحقيقة المستقيم.

وكيف لا تكـون مواعظـك كـذلك، وأنت الـذي تـنزل عليـك القـرآن الكـريم بحروفـه ومعانيـه، والقـرآن الكـريم هـو كتـاب

المواعظ الأكبر، الـذي يخـاطب كـل اللطـائف، وبجميـع اللغـات التي تفهمها، كما قال تعالى يصفه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَـا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدىً وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:57)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَـاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (النـور:34)، وقال:﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمـران: 138)

وكيف لا تكون مواعظك كذلك، وأنت الـذي اجتمعت لـديك كل المعـاني والأدوات الـتي لم تجتمـع للخطبـاء جميعـا.. فـأنت مثل ذلك الذي يصف شيئا يراه، ويـدعو إليـه، عن عيـان، لا عن سماع، ولذلك كانت مواعظك ممتلئـة بالحيـاة، وقـد عـبرت عن ذلك، فقلت: (إن اللّه لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سـيطلعها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهـافت الفراش والذباب)[1]

بـل إن اللـه تعـالى وصـفك بـذلك، ووصـف معـه حرصـك الشـديد على إيمـان النـاس وصـلاحهم، لأنـك تـرى رأي العين النيران التي يقحمون فيها أنفسـهم، قـال تعـالى: ﴿لَقَـدْ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَـا عَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]

وكيـف لا تكـون كـذلك، وأنت عين من عيـون رحمـة اللـه لعباده، بل أنت الرحمة الكبرى، بل شمس الرحمـة الـتي تفـيئ إلى دفئها جميع الخلائق؟

ولذلك كانت كلماتك ترياقا يعالج النفـوس، ومعراجـا تعـرج به الأرواح، وإكسيرا تتحرك فيه الذوات أسـمى حركـة جوهريـة عرفها الوجود..

1() رواه أحمد، وأبو يعلى، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (7/ 210)

لا أزال أذكر سيدي تلك الموعظة البليغة الـتي وعظت بهـا شابا صغيرا هو ابن عمـك ابن عبـاس.. وقـد ملأني ذلـك انبهـارا وإعجابا وتأثرا؛ فأنت تعظ الجميع، وفي كـل المحـال، ولا يعنيـك أن تنصب لك المنابر، أو يجتمع الناس حولك..

لقد ذكر ابن عباس موعظتك له، فقـال: كنت خلـف النـبي ﷺ يوما فقَالَ:(يا غلام إني أعلمك كلمات: احفـظ اللَّه يحفظـك، احفظ اللَّه تجده تجاهـك، إذا سـألت فاسـأل اللَّه، وإذا اسـتعنت فاسـتعَنْ باللَّه، واعلم أن الأمــة لــو اجتمعت عَلَى أن ينفعــوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، وإن اجتمعـوا عَلَى أن يضروك بشـيء لم يضـروك إلا بشـيء قـد كتبـه اللَّه عليـك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(1)

ما أجمل هذه الكلمـات، وأعظم تأثيرهـا، فهي تتسـلل إلى النفــوس والقلــوب لتملأهــا بالحكمــة والجــد.. فهي لا تــذكر المطــالب فقــط، وإنمــا تعــد بــالمواهب.. لعلمهــا أن النفس الإنسانية مثل ذلك التاجر الـذي لا ينشـط إلا حيث يجـد الأربـاح، ولا يتكاسل إلا حيث يفقدها..

ولذلك ذكرت له أن كـل معاملـة يعامـل بـه الإنسـان ربـه، سيعامله ربه بها.. فإن حفظ الله حفظه.. وإن سأل الله أجابه.. وإن توكل على اللـه أعانـه.. وإن رجـا اللـه حقـق رجـاءه.. وإن خاف الله أمنه من كل مخافة.. وهكـذا كـان يمكن لابن عبـاس، ولكل من سمع هذه الموعظة البليغة أن يبحر فيهـا إلى معـاني كثيرة جدا، لا تفيد عقله فقط.. إنمـا تفيـد قلبـه وروحـه ونفسـه وكل لطائفه، لتحركها جميعا نحو شمس الحقيقة، وتجعلـه مقبلا

____

(1) رواه أحمد (1/ 307)، والترمذي (2518) مختصرا، وقال حديث حسن صحيح، وفي رواية غير الترمذي:« احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ».

عليها برغبته وكليته.

وهكذا كانت كل مواعظك، ولذلك كان الجالسون إليـك، أو إلى مواعظـك الـتي لا نـزال نحفظهـا، لا يجـدون أنفسـهم إلا وأعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق.

وقد وصف بعض أصحابك ذلك، فقال:(وعظنا رسـول اللـه ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب..)(1)

وهـو لا يريـد من كونهـا بليغـة مـا يتوهمـه المتكلفـون والمتنطعون والمتقعرون من كثرة محسناتها البديعية، وسجعها، وغـريب ألفاظهـا، فـأنت أبعـد النـاس عن ذلـك، وبلاغتـك الـتي استفدتها من الوحي المنزل عليك أعظم من أن تسـجن نفسـها في سجون الألفاظ والـتراكيب.. ولـذلك كـانت بلاغـة موعظتـك في قـدرتها على التوصـل إلى إفهـام المعـاني، وإيصـالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة وأجملها وأحلاها وأكثرها تأثيرا.

أما ذلك التكلف الممقوت الـذي راح بعض الخطبـاء يشـوه به المعاني التي جئت بها، فقد كنت تنهى عنه، وتحذر منه، وقـد قلت في ذلك: (إنّ الله عزّ وجلّ يبغض البليغ من الرّجـال الّـذي يتخلّل بلسانه تخلّل البقرة بلسانها)(2)

وكنت تعتبر أولئك المتكلفين المتنطعين أبعد النـاس عنـك، وعن الهدي الذي جئت بـه، وقـد قلت في ذلـك: (إن من أحبكم إليّ وأقربكم مجلساً مـني يـوم القيامـة: أحاسـنكم أخلاقـاً، وإن أبغضـكم إليّ، وأبعـدكم مـني يـوم القيامـة الثرثـارون،

1() رواه أبو داود (4607)، وابن ماجة (42)، أحمد (4/ 126، 127)، الحاكم (1/ 96/ 97).

2() أبو داود (5005) واللفظ له، الترمـذي (2853) وقـال: حـديث حسـن غـريب من هذا الوجه.

والمتشدقون، والمتفيهقون)[1]

ولذلك كانت مواعظك ـ سيدي ـ مرسلة سهلة بسيطة، ولكنها مع ذلك عميقة دقيقة، لا يمكن تغيير لفظة عن محلها، ولا تبديلها بأخرى.

وكانت لذلك قصيرة يمكن لمن شاء أن يحفظها، ليرددها كل حين ويتأثر لمعانيها.. فالكلام الطويل يؤثر بعضه على بعض، وينسخ بعضه بعضا، وقد ورد في الحديث أنك لم تكن تطيل الخطبة يوم الجمعة، وقد ذكر ذلك آخر، فقال:(إن النبي ﷺ كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه)[2]

وكنت سيدي في مواعظك تنتهج ما أمرك به القرآن الكريم من الموازنة بين التبشير والإنذار؛ فأنت المبشر النذير الذي يعرف النفوس ودوافعها، فيحركها بكل لطف، لتهذب نفسها بنفسها، وبلين ولطف من غير إكراه وعنف.

وكنت سيدي في مواعظك تستعمل كل ما آتاك الله من الأساليب.. فتقص عليهم القصص، وتذكر لهم الأمثال، وتبين لهم أنواع العبر التي يمكن أن يعتبروا بها.

وأنت في ذلك تنفذ ما أمرك به ربك من تلك الأساليب التي لا يزال البشر يعتبرونها أرقى أساليب التأثير والتربية، وقد قال لك ربك:﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (لأعراف: 176)

بل إن الله تعالى هو الذي تولى تعليمك فن القصص التربوي، فقال:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا

(1) رواه أحمد (6/ 446) وأبو داود (4799)

(2) رواه البخاري (4/231) ومسلم (7/167)

إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (يوسف:3)، وأخبر عن تأثير القصص في نفس المتلقي، فقال: وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (هود:120)

وهكذا كنت تضرب في مواعظك الأمثال، وتعبر لهم عن معانيها، تأدبا بما علمك ربك؛ فالقرآن الكريم هو مدرسة الأمثال الكبرى، وأنت تلميذه الأكبر، ولذلك لا غرابة أن تكون أمثالك مدرسة لهذا الفن العظيم من فنون المواعظ.

لست أدري ما أقول لك سيدي.. وكيف أشكو لك حال المواعظ بعدك، وكيف تحولت إلى بضاعة يتاجر بها المتكلفون المتنطعون لاستدرار العواطف من غير أن يكون لها تأثير حقيقي.. حيث يكون همهم ذلك التأثير العاطفي المحدود الذي لا ينبني عليه أي عمل.. بخلاف مواعظك سيدي، والتي تصف الداء والدواء.. وتتسلل إلى النفوس والقلوب والجوارح، وتملأ الحياة بالحركة الإيجابية النافعة الممتدة، التي لا يتوقف تأثيرها على تلك اللحظات المحدودة.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ وأتوسل بك إلى ربي أن يجعلني من المستنين بسنتك في الوعظ والهداية.. حتى تكون كلماتي دواء لا داء.. وترياقا لا سما.. ومعراجا يصعد بالإنسان، لا هاوية يسقط فيها.. فإن قوما من الواعظين الذين زعموا أنهم يستنون بسنتك راحوا يعظون باسمك؛ فملأوا الدنيا خرابا، وملأوا حياة الناس شقاء.. وشوهوك وشوهوا دينك أعظم تشويه.

البشير النذير

سيدي يا رسـول اللـه.. يـا من أرسـله اللـه ليحمـل أعظم الحقـائق للبشـر، وأكثرهـا تعلقـا بسـعادتهم وشـقاوتهم، فكـان البشـير الـذي يبشـر بالسـعادة وأبوابهـا ومفاتيحهـا في الـدنيا والآخرة، وكان النذير الذي يحذر من كل ما يحرم من السـعادة، ويجلب الشقاء، وفي كل الشؤون، وكل الأزمنة.

لقد تأملت كل المبشرين والمنـذرين في الـدنيا؛ فوجـدتهم أقزاما بجنبك، وبجنب ما جئت بـه.. فـالطبيب يبشـرنا بالصـحة، ويحذرنا من المرض.. لكن الصحة سرعان مـا تتهـدم، والمـرض سرعان ما يتغلب.. والنشوة التي حصلت بهـا البشـارة سـرعان ما تزول.

والأسـتاذ يبشـرنا بالنجـاح، ويحـذرنا من الرسـوب.. لكن نشوة النجاح تذهب مع الأيام.. والسرور الذي صاحبها يتلاشـى.. ولا تبقى منه إلا الذكريات التي قد تنسـى حلاوتهـا، وقـد تتحـول إلى مرارة.

وهكذا.. فإن كل المبشرين أو المنـذرين غـيرك.. يبشـرون بشؤون قاصرة محدودة.. أو ينذرون من أمور يفيد إنذارهم فيها زمنـا محـدودا، لا ممـدودا.. ولـذلك يتلاشـى التبشـير والإنـذار بتلاشيها.

أما أنت يا سيدي يا رسول الله.. فتبشـيرك وإنـذارك يمتـد للأبد.. فأنت جئت لذلك الإنسان البسـيط المحـدود الـذي ينظـر إلى تعاقب الليل والنهار كل حين، لينتظر اللحظـات الـتي يحـل عليه فيها العجز والمرض والموت.. وهو ممتلئ بـالخوف منهـا.. ومن المصير الذي سيصير إليه..

جئت إليه لتخبره أنه لا داعي لكل تلك الآلام.. فمـا يعيشـه في الـدنيا ليس سـوى مرحلـة اختبـار.. وأنـه بعـد نجاحـه في الاختبار سيتحول إلى عالم مملوء بالجمال، تتحقق لـه فيـه كـل الأمنيات.. فـالفقير يغتـني.. والمـريض يشـفى.. والشـيخ يصـير شابا.. والمبتلى يصير معافى.. والذي فقد أحبابه يعودون إليــه.. والذي فقد مسكنه أو لم يجد أين يلجأ سـيجد القصـور في تلـك الــدار الـتي لا يصـيبها المـوت، ولا الفنـاء.. ولا تـنزل بأرضـها الزلازل.. ولا تتنزل من سمائها حمم البراكين.

ولم تأت لتخبره بذلك فقط.. وإنمـا جئت تـذكره بـالطريق المسـتقيم المختصـر الـذي يوصـله إلى تلـك المحـال الشـريفة الممتلئة بالسعادة من غير معاناة ولا ألم.

وجئت لتخبره بالعقبات التي تقـف بينـه وبين تلـك المحـال السعيدة.. والشقاوة التي تنتظره إن هو لم يتجاوزهـا، أو سـكن إليها، أو سكن إلى أعدائه ووسوستهم.

وكل هذه المعاني لا يمكن أن تكون لغيرك ـ سـيدي. فكـل المبشرين أو المنذرين السائرين على غير طريقك، لم يتجاوزوا هذه الـدنيا، ومـا يرتبـط بهـا من سـعادة ورفـاه.. ولـذلك كـانت بشاراتهم وإنـذاراتهم محـدودة قاصـرة، لا تلـبي حاجـات النفس التي لا تنتهي.. وطمعها الذي لا يملؤه إلا الخلود.

لذلك كنت ـ سيدي ـ باب السعادة الأكبر.. فمن وصل إليك دخل مدينة السعادة التي لن يخرج منها أبدا..

ولا أقصد بالسعادة ـ سـيدي ــ سـعادة الآخـرة فقـط.. بـل سعادة الدنيا أيضا.. فأنت لم تبشرنا بالجنان فقط، وإنما بشرتنا بربنا.. وأخبرتنا أننا لسنا مهملين على هذه الأرض، وإنما لنا رب رحيم كريم لطيف، نحن نأوي إلى كنفه، ونأكل من رزقه، وننهل

من خيره، فكل مفاتيح سعادتنا بيده.. فلذلك كانت صلتنا به هي الجنة، وكان تواصلنا معه هو الحيـاة الحقيقيـة الـتي لا يحلم بهـا من لم يعرفه، أو يعرف لذة وصاله.

سيدي يا رسول الله.. لم تكن تلك المعاني العظيمـة الـتي ملأت قلوبنا بشارة بها مجرد أماني أو أحلام أو أفكار فيلسـوف، أو خيالات أديب.. وإنما كانت حقائق مؤيدة بالمعجزات الباهرة، والدلائل الواضحة.. فأنت لم تكن تنطق من عنـد نفسـك، وإنمـا من وحي ربك.

فربك هو الذي أمرك بأن تخبر عبادك عنـه، وتعـرفهم بـه.. وربك هو الذي قال لك: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:49 ـ 50)، وهو الذي قال لك: ﴿ عَـذَابِي أُصِـيبُ بِـهِ مَنْ أَشَـاءُ وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ﴾ (لأعـراف:156)، وهـو الـذي قـال لـك:﴿ وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم:7)

ولذلك كان من وظائفك التي ندبك لها، وسماك بها، كونـك بشيرا ونذيرا، قال تعالى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَـذِيراً وَلا تُسْـأَلُ عَنْ أَصْـحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقـرة:119)، وقـال:﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِـيراً وَنَـذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سـبأ:28)، وقال على لسانك:﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (لأعـراف:188)، وقـال:﴿ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود:2)

وهكذا، فإن كل تفاصيل البشـارات والإنـذارات الـتي جئت بهـا، والـتي تملأ الـدنيا والآخـرة بالسـعادة الحقيقيـة لم يكن مصدرها إلا الله.. فالله هو الـذي أعطـاك البشـارة، وهـو الـذي أعلمك بمصير المبشرين، وبالإعمال التي عليهم القيام بها ثمنـا للبشارة.. قال تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ أَنَّ

لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة:25)، وقال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة:111)، وقال: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة:112)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تبين حقيقة البشارة، ومظاهرها، ووسائطها التي تكفل تحققها، أو التي لا تتحقق من دونها.. ولذلك لم تكن بشاراتك مجرد نشوة أو فرح زائل، وإنما كانت مصدرا لهمة عظيمة، وتغيير يرتبط بالحياة جميعا..

ولهذا كان المؤمنون بك، الصادقون معك، لا يفرحون بشيء كما يفرحون بتلك البشارات التي تزفها إليهم، لتنسيهم كل همومهم.. فقد كانت سلوى آل ياسر لمواجهة ما أعد لهم الطواغيت من عذاب هو ما ذكرته لهم، وأنت ترى عظيم ما يعانونه.. لقد قلت لهم: (صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة)(1).. فما إن سمعوها منك حتى طارت نفوسهم شوقا إلى الجنة، وخرجوا من الدنيا، وهم يبتسمون.

وفي معركة بدر، حين اشتدّ البلاء على المسلمين، ورأيت قلة عددهم، وضعف عتادهم، كانت جائزتك العظمى التي حولت كل واحد منهم إلى جبل من جبال العزيمة، وحصن من حصون القوة قولك لهم: (قوموا إلى جنة عرضها السموات

---

(1) رواه الحاكم 3 / 388.

والأرض، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليـوم رجـل فيقتـل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة)(1)

حينهـا هـزت البشـرى قلـوب أصـحابك؛ فقـام عمـير بن الحمام، وقـال مندهشـا:(عرضـها السـموات والأرض؟)، فقلت: (نعم)، فقال، والفرحة تكاد تطير به:(بخ بخ)، فقلت: (ما يحملك على قولـك بخ بخ؟)، قـال:(رجـاء أن أكـون من أهلهـا)، فقلت مبشرا، وقد علمت صدقه:(فإنك من أهلها)

فتقـدم الرجـل حين سـمع تلـك البشـارة ممتلئـا سـرورا؛ فكسر جفن سيفه، وأخرج تمـرات فجعـل يأكـل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وهو يقول: (لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة)، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

وهكذا عندما كنت في مكة المكرمة، حيث فقـدت الناصـر والمعين.. ولم يكن بجـوارك إلا عمـك، كنت تـذهب إلى أسـواق عكاظ ومجنة، وفي المواسم، وأنت تخاطب النـاس قـائلا: (من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة)(2).. فقد كـانت الجنـة هي بشـارتك لهم.. لا الـدنيا.. ولا الرفـاه.. ولا أي شيء آخـر.. وهـل هنـاك شـيء أفضـل من الجنـة؟ وهـل هنـاك طريق للرفاه والحياة السعيدة أفضل من الإيمان بالجنة؟

وهكذا عنـدما رحـل إليـك السـبعون الـذين التقـوا بـك في شـعب العقبـة، وقـالوا:(يـا رسـول اللـه علام نبايعـك؟)، فقلت: (تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسـل، والنفقـة في العسر واليسر، وعلى الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، وأن تقولـوا في اللــه لا تخــافوا في اللــه لومــة لائم، وعلى أن

______

1() رواه البخاري (فتح الباري 7/ 306 الحديث 3985)

2() رواه أحمد (22/ 347)

تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم)، فقالوا: (يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها، وإنا نأخذك على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟)، فقلت:(الجنة)، فقالوا:(ابسط يدك)، فبسطت يدك الشريفة، وبايعوك(1).

وهكذا كنت تحفز على كل أعمال الخير بتلك البشارات العظيمة التي أتاحها الله لك.. فحولت من المجتمع المسلم إلى مجتمع صالح من غير أن تقدم لهم أي جائزة مادية، أو تعدهم بأي وعود كاذبة.. بل كان وعدك الأعظم، وبشارتك الكبرى جنة الله التي لا يشقى من دخل إليها.

لقد كنت تحثهم على شد العزم على العمل الصالح، وتقول لهم: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا أن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة)(2)

ولهذا كانت تلك الجائزة أعظم محفز للصلاح والتقوى وتجاوز كل العقبات، وتحدي كل الهموم، فمن يعلم أن مصيره الجنة جد واجتهد وضحى ونسي كل شيء في سبيلها..

حتى أنك استطعت سيدي أن تهذب أولئك الجفاة الغلاظ من الأعراب بسبب ذكرك للجنة، وحديثك عنها، وعن النعيم الذي أعد فيها.. وقد روي أن بعض الأعراب جاءك، فقال: (ما ثمن الجنة؟)، فقلت:(لا إله إلا الله)(3).. وجاء أعرابي آخر فقال:(يا رسول دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة)،

1() رواه أحمد (25/ 93)

2() رواه الترمذي رقم (2452)

3() رواه أبو نعيم الأصبهانى في صفة الجنة (48)

فقلت:(تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتـؤتي الزكـاة المفروضة وتصوم رمضان)، فقال:(والـذي نفسـي بيـده لا أزيـد على هذا شيئا أبدا ولا أنقص منه)، فلما ولى قلت:(من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)(1)

وهكـذا اسـتطعت أن تهـذب أمـة من النـاس.. لا في ذلـك الجيل فقط.. بل في الأجيال جميعا بتلك البشارات الإلهية الـتي أتاحها الله لك.. وبتلك الإنـذارات الـتي ملأت القلـوب بالمخافـة والحذر والحيطة، وجعلتها تلجـأ إلى التقـوى والاسـتقامة، لتقهـر كل دواعي النفس الأمارة.

فيا سيدي يا رسول الله.. يا وسيلة اللــه العظمى لعبـاده.. فكما بشرت أصـحابك وأحبابـك.. فبشـرنا.. وكمـا ملأت قلـوبهم بالسـرور، فـاملأ قلوبنـا.. وارزقنـا رؤيتـك في الـدنيا والآخـرة.. فروحك الجميلة، ونورك الساطع، وسراجك المنير أعظم بشارة تتلقاها قلوبنا.. فمن رآك في الدنيا رآك في الآخرة.. ومن سـعد بك هنا سعد بك هناك.. فاجعلنا من السـعداء بـك في الـدارين.. لنعيش معـــك وفي صـــحبتك ننهـــل من بشـــاراتك ونتهـــذب بإنذاراتك..

واجعلنــا يــا وســيلة اللــه العظمى.. ويــا صــاحب المقــام المحمود.. من الذي ورثوا منك البشارة والنـذارة.. فصـاروا من المبشرين المنذرين على أقدام الرسـل وأوصـيائهم وأوليـائهم.. حتى لا تميل بنا الأهواء، ولا تزج بنا البدع فيما حذرتنا منه.

واجعلنا يا وسيلة الله العظمى من الـذي يعطـون للبشـارة حقها.. فمن وفى للبشارة نالها، ومن قصر في الوفـاء أو فـرط فيه كان من الخاسرين.. فنعوذ بك من ذلك، ونسـألك أن نكـون من الناجين السعداء الفائزين..

(1) رواه البخاري (1397)، ومسلم (14)

الحكيم البليغ

سيدي يا رسـول اللـه.. يـا من آتـاه اللـه فصـاحة اللسـان، وبلاغة البيان، واختصر له الكلام اختصارا.. فصارت كلماته دررا، يحفظها الحكماء، ويتتلمذ عليها العقلاء، ويجتنون من أطايبها كل فنون الحكمة.. فـأنت سـيد الحكمـاء، وأنت معلمهم وأسـتاذهم ومربيهم.

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وقد أخبر الله تعالى أن من فضائله عليـك تعليمـك الحكمـة، من غـير أسـتاذ تفـد عليـه، ولا معلم تتذلل بين يديه.. بل كان الله هو معلمك الـذي أغنـاك عن كـل معلم، قـال تعـالى: ﴿وَأَنْـزَلَ اللَّهُ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَــكَ مَــا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَـانَ فَضْــلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ عَظِيمًــا ﴾ [النساء: 113]

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وقد أخبر الله تعالى أن من أوتي الحكمة أوتي خيرا كثيرا، وهل هناك من أوتي الخير الكثير مثلك، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: 269]

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وأنت الذي أمـرت بالـدعوة إلى اللـه بالحكمـة، وهـل يمكن أن يـأمرك اللـه بـأمر ليس في طاقتك، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: 125]

وكيف لا تكون كذلك ـ سـيدي ــ وأنت الـذي ذكـر اللـه من وظائفك تعليم الحكمة، فـأنت لسـت حكيمـا فقـط، وإنمـا معلم الحكماء، قال تعالى ذاكرا دعـاء جـدك إبـراهيم عليـه السـلام:﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَــابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]

ولهـذا، فإنـك سـيدي ــ كمـا ذكـرت عن نفسـك ــ مدينـة الحكمــة، وأميرهــا، ومعلمهــا، وأســتاذها، ومن شــاء أن يلقن الحكمة، فإنه لا يمكن أن يجدها في غـير مـدينتك ولا مدرسـتك، لقد قلت في ذلك: (أنا مدينة الحكمة، وعلي بابهـا، فمن أرادهـا آتاها من بابها)(1)

ولـذلك كـانت كلمـات الإمـام علي ــ لطـول صـحبته لـك، وتلمذتــه على يــديك ــ من أفضــل مصــادر الحكمــة، وأوثقهــا، وأجملها.. وعندما تعجب بعضهم من كلامه، وقـال لـه: (يـا أمـير المؤمنين أفنبي أنت؟)، فقال لـه الإمـام علي: (ويلـك، إنمـا أنـا عبد من عبيد محمد ﷺ)(2)

لقد رجعت ـ سيدي ـ إلى كلماتك التي لم يؤثر فيها تدليس المدلسين، ولا عبث العابثين.. تلك الـتي تنـورت بنـور القـرآن.. وحفظت كما حفظ الذكر الحكيم.. ولم تمتد إليهـا يـد اللصـوص والأمــراء.. فوجــدتها ممتلئــة بالحكمــة.. كافيــة لأن تكــون زادا للعقلاء لينهلوا منها كل ما يفيدهم في دنياهم وأخراهم، فالكلمة الواحدة من كلماتك، تغني من تدبرها عن الأسفار الكثيرة.

وكيف لا تكـون كـذلك سـيدي، وقـد قلت عن نفسـك، ومـا وهبك اللــه من القـدرة على التعبـير عن الحقـائق، وفي أخصـر عبارة: (أعطيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا) (3)

لا أزال أحفظ سيدي من كلماتك تلك الـتي اختصـرت فيهـا

1() الشريعة للآجري (4/ 2069).

2() التوحيد: 174/ 3.

3() رواه البيهقى فى شعب الإيمان (2/160، رقم 1436)، وروى أولـه البخـاري 6 / 90، ومسلم رقم (523)

أسباب هلاك المجتمعات وانحرافها وتسلط المستبدين عليها، حيث قلت: (يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ باللّه أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ، حتّى يعلنوا بها إلّا فشا فيهم الطّاعون والأوجاع الّتي لم تكن مضت في أسلافهم الّذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلّا أخذوا بالسّنين وشدّة المؤونة، وجور السّلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلّا منعوا القطر من السّماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد اللّه وعهد رسوله، إلّا سلّط اللّه عليهم عدوّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمّتهم بكتاب اللّه، ويتخيّروا ممّا أنزل اللّه، إلّا جعل اللّه بأسهم بينهم)(1)

لقد رحت أتأمل هذه الكلمات الخمس، فوجدتها الترياق الذي يعالج كل المصائب والمشاكل التي وقع فيها البشر.. ولو عملوا بها، لصلحت أحوالهم جميعا.. لكنهم يعرضون عنها، ليذهبوا لأولئك الذين يضلونهم باسم الحكمة والعلم والدراسات العلمية.

وهكذا وجدت الكثير من درر الحكمة الواردة عنك، والتي ترتبط بسنن الله في المجتمعات، والتي تجعل المتأمل لها، المتدبر في معانيها، عالما من علماء الاجتماع الحقيقي لا المزيف، ذلك الذي اختلط فيه الحق بالباطل، والعلم بالأهواء.

ومن أمثلة ذلك سيدي تلك الحكمة العظيمة التي تبين فيها سبب هلاك المجتمعات، فقد قلت: (اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان

1() ابن ماجه (2/1332، رقم 4019)، وأبو نعيم (8/333)، والحاكم (4/583، رقم 8623)، والبيهقى فى شعب الإيمان (3/197، رقم 3315)، وابن عساكر (35/260)

قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محـارمهم)[1]، ثم فسرت ذلـك في حـديث آخـر، فقلت: (إيـاك والشـح، فإنمـا هلـك من كـان قبلكم بالشـح، أمـرهم بالبخـل فبخلـوا، وأمـرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا)[2]

فلو أن البشر جميعا الـتزموا بهـذه الحكمـة، وسـاروا على منهاجها، لما حصـل الاسـتعمار والاسـتبداد والاسـتغلال والظلم؛ فكل ذلك نتيجـة البخـل الـذي امتلأت بـه تلـك النفـوس الـتي لا تشبع، والـتي راحت تسـرق خـبز غيرهـا، وتقهـرهم، وتسـخرهم لمصالحها.

ولو أن الخلق التزموا بتلك الحكم العظيمة التي تأمر فيهـا بالتحكم في اللسان، وعدم إتاحة الفرصة له ليعبر عما يريد من غير ضوابط تحكمه، لوقوا أنفسـهم من فتن كثـيرة، ومفسـاد لا نهاية لها.. فقد كنت تـردد كـل حين، وعلى مسـمع كـل الأجيـال قـائلا: (الصـمت حكم وقليـل فاعلـه)[3].. (الصـمت زين للعـالم وستر للجاهل)[4].. (الصـمت سـيد الأخلاق، ومن مـزح اسـتخف به) [5].. (قولوا خيرا تغنموا، واسكتوا عن شر تسلموا)[6].. (من صـمت نجـا)[7].. (رحم اللــه من حفـظ لسـانه، وعـرف زمانـه، واستقامت طريقته)[8].. (من كثر كلامه كـثر سـقطه، ومن كـثر سقطه كثر كذبه، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه

1() رواه أبو داود والحاكم.

2() رواه البخاري.

3() رواه القضاعي والديلمي في مسند الفردوس.

4() رواه أبو الشيخ.

5() رواه الديلمي في مسند الفردوس.

6() رواه القضاعي.

7() رواه أحمد والترمذي.

كانت النار أولى به)(1).. (من كف لسانه عن اعراض المسلمين أقال الله عثرته يوم القيامة)(2).. (لا تـدخل حلاوة الايمـان قلب امرئ حتى يترك بعض الحديث خوف الكـذب وإن كـان صـادقا، ويترك المراء وإن كان محقا)(3).. (لا تقـل بلسـانك إلا معروفـا، ولا تبسط يدك إلا إلى خير)(4).. (كلّ كلام ابن آدم عليه لا لـه إلّا أمـر بمعـروف، أو نهي عن منكـر، أو ذكـر اللّـه)(5).. (لا تكـثروا الكلام بغير ذكر اللّـه، فـإنّ كـثرة الكلام بغـير ذكـر اللّـه قسـوة للقلب، وإنّ أبعـــد النّـــاس من اللّـــه القلب القاســـي)(6).. (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(7).. (من يضمن لي مـا بين لحييه وما بين رجليـه أضـمن لـه الجنّـة)(8).. وغيرهـا من الحكم الكثيرة التي تحفظ من يلتزم بها من كل المصائب الـتي يجلبهـا له لسانه، كما تلقنه كل الثمار الطيبة للسان الذي التزم عبودية ربه، فلم ينطق إلا بما يرضيه.

وهكـذا نجـد ــ سـيدي ــ درر حكمـك في كـل المجـالات النفسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية والروحيـة.. وكـل مـا يخطـر بالبال، وما لا يخطر بالبـال.. ومن اكتفى بهـا وقي من كـل تلـك

8() رواه الحاكم في تاريخه.

1() رواه العسكري في الامثال.

2() رواه الديلمي.

3() رواه الديلمي.

4() رواه البخاري في التاريخ، وابن أبي الدنيا في الصمت والبغوي والباوردي وابن السكن وابن قانع وابن منده والبيهقي في الشعب وأبو نعيم وتمام وغيرهم.

5() رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة.

6() رواه الترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي.

7() رواه مالك في الموطأ والترمذي وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجة.

8() رواه البخاري واللفظ له. والترمذي.

التلبيسات الـتي ينصـح بهـا من لا يعرفـون حقيقـة الإنسـان، ولا روحه، ولا نفسه، ولا مصـيره.. فينصـحونه باقتحـام الحيـاة بكـل جرأة متخليا عن كل القيم.. لكنك سـيدي تهـدم كـل ذلـك بتلـك المبادئ الأخلاقية العظيمة التي أسست لهـا، والـتي تقـوم على الحياء، ورعاية مشاعر الآخرين.. لقـد قلت في ذلـك: (اسـتحيوا من اللّه حقّ الحياء)[1]، ثم فسرت ذلك بقولـك: (الاسـتحياء من اللّه حقّ الحياء: أن تحفظ الرّأس وما وعى، والبطن وما حــوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة تـرك زينـة الـدّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللّه حقّ الحياء)

وهكذا كانت حكمك تحض على الكرم والــترفع، وتنهى عن الأنانية وكل ما يرتبط بها، فقد كنت تقول: (إنّ اللّـه كـريم يحبّ الكرم، ويحبّ معالي الأخلاق، ويكره سفسافها)[2]

وهكذا كـانت حكمـك تحض على مخالطـة النـاس، والصـبر على أذاهم، فقد كنت تقـول:(المـؤمن مـألف مـألوف حـيي ولا خير فيمن لا يـألف ولا يؤلـف، وخـير النـاس أنفعهم للنـاس)[3]، وتقــول: (إنّ أحبّكم إليّ أحاســنكم أخلاقــا، الموطّئــون أكنافــا، الّذين يألفون ويؤلفـون، وإنّ أبغضـكم إليّ المشّـاءون بالنّميمـة المفرّقــون بين الأحبّــة الملتمســون للــبراء العيب)[4]، وتقــول: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[5]

1() رواه الترمذي وقال: غريب، ورواه أحمد والحاكم والبيهقي. وقال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي.

2() رواه الحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد، ورواه الطبراني في الكبير.

3() رواه الديلمي في الفردوس.

4() رواه الطبراني في الصغير والأوسط والبزار.

5() رواه البخاري ومسلم.

وهكذا كـانت حكمـك تحض على الرفـق واللين، حيث كنت تردد كل حين: (إنّ الرّفق لا يكون في شـيء إلّا زانـه، ولا يـنزع من شيء إلّا شانه)[1].. وتقـول: (اللّهمّ من ولي من أمـر أمّـتي شيئا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمـر أمّـتي شـيئا فرفق بهم فارفق بـه)[2].. وتقـول: (إنّ اللّـه إذا أراد بأهـل بيت خيرا دلّهم على باب الرّفق)[3].. وتقول: (ألا أخبركم بمن يحـرم على النّار، وبمن تحرم عليه النّار، على كـلّ قـريب هيّن سـهل)[4].. وتقول: (يسّروا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفّروا)[5].. وتقول: (من أعطي حظّه من الرّفق فقد أعطي حظّـه من الخـير، ومن حرم حظّه من الرّفق حـرم حظّـه من الخـير)[6].. وتقـول: (من يحرم الرّفق يحرم الخير)[7]

وهكــذا كــانت حكمــك تحض على الإحســان، وفي كــل المجـالات، حيث كنت تقـول: (إنّ اللّـه كتب الإحسـان على كـلّ شيء فـإذا قتلتم فأحسـنوا القتلـة، وإذا ذبحتم فأحسـنوا الـذبح، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[8]

وهكذا كانت حكمك ـ سـيدي ــ كافيـة لمن يريـد أن يسـير على سراطك المستقيم، الذي لم ينحـرف ذات اليمين، ولا ذات الشمال، ذلك السراط الذي ارتضاه الله لعباده، ولم يقبل منهم

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه أحمد والبزار.

4() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

7() رواه مسلم.

8() رواه مسلم.

المرور على غيره.

وهي جميعـــا مدرســـة في الأخلاق والآداب والسياســـة والحضـارة.. ولا تلـتزم أمـة بهـا إلا، وتـرقت.. ولا نفس بهـا إلا تطهـرت.. ولا مجتمـع بهـا إلا كـان مجتمعـا متكـافلا متناصـرا متراحما ممتلئا بالحكمة.

فأسألك سيدي، وأتوسل بك إلى الله تعـالى أن أكـون من أولئك الذين تتلمذوا على كلماتك وهديك، فصار لهم من الحكمة ما يصلحون به شؤون دينهم ودنياهم.. حتى تتحكم عقــولهم في نفوسهم، ويتحكم دينهم في دنياهم.

وأسألك سيدي أن ترفع درجتي حتى أكون من الـدعاة إلى اللـه بالحكمـة والموعظـة الحسـنة، أولئـك الـذين سـاروا على هديك، وهـدي ورثتـك؛ فصـارت لهم من حكمـة القـول والفعـل والتدبير مـا يجعلهم دعـاة إلى اللـه على بصـيرة، لا على هـوى، وعلى هدى، لا على ضلالة.

وأسألك سيدي أن ينالني بعض فضل الله عليك في البلاغة التي تيسر لي تبليغ الحكمة، والدعوة إليها، حتى يفهمني قومي، وحـتى أبلـغ لهم دين اللـه بمـا ييسـر بلوغـه لعقـولهم وقلـوبهم وأرواحهم.. فأنت وسيلة الله العظمى، وباب رحمته الأكبر.

المعلم الناصح

سيدي يا رسول الله.. يا معلم المعلمين، وأستاذ الأساتذة، وحكيم الحكماء.. يا من لا يتتلمذ على يديه صادق إلا ونال كل فنون العلم والحكمة والأدب والصلاح.

يا من لا يزال تعليمه مستمرا عبر الأجيال في مدرسته التي لا يتخرج منها إلا المخلصون والمخلَصون.. أولئك الذين استناروا بنور النبوة، واهتدوا بهديها.. فارتفعوا من ذلك التثاقل إلى الأرض والطين، وسموا بأرواحهم إلى آفاق السماء السامية.

وكيف لا تكون كذلك سيدي، وأنت صاحب الإذن الإلهي في أن تكون معلما، وأن يجثو بين يديك كل الخلق تلاميذ ومريدين.. وقد قال ربك مخبرا عن فضله على العباد بجعلك معلما لهم: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران: 164]

ودعانا إلى شكر هذه النعمة العظيمة بإتاحة الفرصة لنا لتكون أنت معلمنا وأستاذنا ومربينا، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 151، 152]

وقد أخبرت عن نفسك بأن وظيفتك العظمى التي جئت بها، ليست ذلك العنف الذي توهمه المحجوبون عنك، وإنما وظيفتك التعليم، وكل ما يرتبط به من إصلاح وتربية، وقد ورد في الحديث أنك دخلت المسجد يوما، فإذا أنت بحلقتين،

إحــداهما يقــرؤون القــرآن، ويــدعون اللــه، والأخــرى يتعلمــون ويعلمــون، فقلت: (كــل على خــير، هــؤلاء يقــرؤون القــرآن، ويــدعون اللــه، فــإن شــاء أعطــاهم، وإن شــاء منعهم، وهــؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما)، ثم جلست معهم[1].

وقد كنت لذلك ـ سيدي ـ قدوة لكل المعلمين، بل مدرســة في فن التربية والتعليم، ولو أنهم تركوا أهواءهم، واتبعوك فيها، لما رسب تلميذ، ولا فشل أستاذ.

لقد رحت أبحث عن منهجك في التعليم، وسر قدرتك على تحويل أولئك البدو البسطاء، الذين كان هم أحدهم قاصــرا على غنائم يغنمها، أو سـلب يحصـل عليـه، أو طعـام يأكلـه، فوجـدت عجبا عجابا.. فأنت أخرجتهم من تلك الحال من غــير أن تعـدهم بــأي وعــود مرتبطــة بــدنياهم، بــل اكتفيت معهم بتلــك الوعــود الإلهية العظيمة التي رفعت هممهم.

لقـد كـان ذلـك أول مـا شـد انتبـاهي في تعليمـك.. فتلـك الدوافع السامية التي وفرتهـا لتلاميـذك، وفي كـل الأزمنـة، هي التي جعلتهم يضحون بكل راحتهم ومتعهم في سـبيل التحصـيل والتعلم، مــع أنهم لا يحصــلون من جــراء ذلــك على شــهادة يفتخـرون بهـا، أو مـال يكسـبونه، أو مناصـب تضـمن لهم حيـاة مستقرة.

فقـد ربطت لهم العلم باللـه، حـتى يتجـردوا عن الأهـواء.. وربطت جوائزه بفضل الله حتى لا يصـبح العلم وسـيلة لتحقيـق المآرب والمصالح المحدودة..

ولــذلك كنت تعتــبر المتعلم والعــالم في أقصــى درجــات الصلاح.. وأن مدادهم كدماء الشهداء، وسهرهم كقيام القائمين،

---

[1] () رواه ابن ماجه برقم 229.

وصوم الصائمين..

وقد كنت تقول لهم مرغبا في التعلم: (تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لانه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء)[1]

وكنت تخبرهم أنه يمكن بالتعلم أن ينالوا كل المناصب الإلهية الشريفة التي وفرها الله لعباده، لينالوا أنواع الجزاء العظيم.. فقد كنت تقول لهم: (أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)[2]، وتقول: (فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع)[3]، وتقول: (قليل العلم خير من كثير العبادة، وكفى بالمرء فقها إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلا إذا

1()) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم.

2()) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.

3()) الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

أعجب برأيه)(1)، وتقول: (ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ولفقيـه واحـد أشـد على الشـيطان من ألـف عابـد، ولكـل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه)(2)

وعنـدما رأيت حـرص بعض أصـحابك على النوافـل، ابتغـاء لأجرها العظيم، قلت له ناصحا: (لأن تغـدو فتعلم آيـة من كتـاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابــا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعــة) (3)

وعندما رأيت آخر حريصا على الصدقات، أخبرتــه أن تعليم العلم لا يختلـف عن الصـدقات، وقلت لـه: (أفضـل الصـدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)(4)

ويروى أنه ذكر عندك رجلان: أحـدهما عابـد والآخـر عـالم، فقلت: (فضـل العـالم على العابـد كفضـلي على أدنــاكم)، ثم قلت: (إن الله وملائكته، وأهـل السـموات والأرض حـتى النملـة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)(5)

وهكذا كنت تخبرهم أن العلم ـ لفضله العظيم ـ يحتـاج إلى الصـبر والاجتهـاد، وقـد يتطلب الغربـة والرحلـة، وكـل أنـواع المتاعب، وقد كان من كلماتك في هذا قولـك: (يـا أيهـا النـاس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خـيرا يفقهـه في الـدين، و ﴿إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَـاءُ ﴾ [فـاطر:

1()) الطبراني في الأوسط.

2()) الدارقطني والبيهقي.

3()) ابن ماجه بإسناد حسن.

4()) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

5()) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

28])(1)، وقولك: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل اللــه له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضـع أجنحتهـا لطـالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر لــه من في الســموات ومن في الأرض حتى الحيتـان في المـاء، وفضـل العـالم على العابـد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبيـاء، إن الأنبياء لم يورثوا دينـارا ولا درهمـا إنمـا ورثـوا العلم فمن أخـذه أخذ بحظ وافر)(2)، وقولك: (ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمتين، أو ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا مما فـرض اللـه عـز وجـل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة)(3)

وعندما جاءك بعضهم، وأخبرك أنه جـاء يطلب العلم، قمت إليه فرحا مسرورا، وقلت له: (مرحبـا بطـالب العلم، إن طـالب العلم تحفـه الملائكـة بأجنحتهـا، ثم يـركب بعضـهم بعضـا حـتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)(4)

بل إنك سيدي كنت تخبر أن العلم لا حدود لطلبه، وأنه من المهد إلى اللحد، ولذلك كان أشرف الموت أن يموت المــؤمن، وهـو يطلب العلم، وقـد كـان من ترغيبـك في هـذا قولـك: (من جــاءه أجلــه وهــو يطلب العلم لقي اللــه ولم يكن بينــه وبين النبيـين إلا درجـة النبـوة)(5)، وقولـك: (من طلب علمـا فأدركـه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركــه كتب الله له كفلا من الأجر)(6)

1()) الطبراني في الكبير.

2()) أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

3()) أبو نعيم.

4()) أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

5()) الطبراني في الأوسط.
6()) الطبراني في الكبير.

بل إنك سيدي كنت تعتبر العلم من الأعمال التي لا ينقطـع أجرها، ولو بعد الموت.. وقد كنت تقول لكل طـالبي العلم: (إذا مات ابن آدم ٱنقطـع عملـه إلا من ثلاث: صـدقة جاريـة، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو لـه)(1)، وكنت تقـول لهم: (إن ممـا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمـا علمـه ونشـره وولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه، أو مسـجدا بنـاه أو بيتـا لابن السـبيل بنـاه، أو نهـرا أجـراه، أو صـدقة أخرجهـا من مالـه في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)(2)

لقد كانت هذه الأحاديث، وما تتضمنه من الترغيب في طلب العلم، ومهما اختلفت الظروف سببا في قيام أكبر حضارة علمية عرفها التاريخ، وهي تلك الحضارة المستندة لتلك التعليمات المقدسة التي كنت تبثها في تلك الأمة الأمية التي لم تكن تعطي العلم أي قيمة.

ولا تزال سيدي كلماتك حاضرة في كل الأجيال، يسمع لها كل الصادقين الذي يضحون بكل أهوائهم ومتعهم في سبيل أن ينالوا فضل المتعلمين والعلماء الذي وعدت به، وأخبرت عنه.

ولم يكن ذلك فقط ـ سيدي ما جئت به ـ بل إنك وضعت منظومة كاملة للتعليم، لا يتبعها صادق إلا وتحقق بالتلمذة الحقيقية، وأول مظاهر تلك المنظومة احترام العلوم، كل العلوم.. لأنها جميعا تؤدي إلى الله، وتهذب النفس، وتخدم المجتمع.. ولذلك كنت تعلم أصحابك من علوم كل شيء، وقد حدث بعضهم عنك قال: (ولقد تركنا رسول اللّه ﷺ، وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً) (3)

(1) مسلم وغيره.

(2) ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه مثله.

(3) رواه ابن جرير وأحمد وعبد الرزاق، واللفظ لأحمد.

ومن أركـان تلـك المنظومـة تلـك الآداب الـتي كنت تـدعو المتعلمين والمعلمين إليها، حتى لا يكون التعليم منفرا، وحتى لا يكون المعلم سببا لأي عقد نفسية يسـببها لتلاميـذه.. وقـد روي في الحديث عن بعض أصحابك قال: (بينا أنا أصـلي مـع رسـول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك اللـه، فرمـاني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شـأنكم تنظـرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يصـمتونني، لكني سكت فلمـا صـلى رسـول اللـه ﷺ، فبـأبي هـو وأمي، مـا رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله مـا كهـرني، ولا ضربني، ولا شتمني، بل قال: إن هذه الصـلاة لا يصـلح فيهـا شـيء من كلام النـاس، إنمـا هي التسـبيح والتكبـير وقـراءة القرآن)[1]

ولذلك كنت تقول لهم: (إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا وميسِّرًا) [2]

وقد كنت ـ لأجل تحقيق ذلك ـ تمارس كل أسـاليب التعليم الذي يوصل المعلومة إلى العقل والنفس بكل هدوء.. وقد كـان من ذلك تلك الأسئلة التي كنت تحفز بها عقولهم، لتعلمهم كيف يفكرون، ويعتبرون، فلا علم من دون تفكر ولا اعتبار..

فقـد كنت تقـول لهم متسـائلاً:(أتـدرون مـا الغيبـة)[3].. (أتدرون من المفلس)[4].. (أتدرون ما أخبارها؛ فإن أخبارهـا أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول علي

1() رواه مسلم رقم (537)، وأبو داود رقم (930) و (931)

2() رواه مسلم برقم 1478.

3() رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.
4() رواه مسلم وغيره.

عمل كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، فهـذه أخبارهـا)[1].. (أتـدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس)[2]

وكنت تلغز لهم أحيانا، حـتى يتـوفر لهم جـو المنافسـة في طلب العلم، وحتى يختلط العلم عندهم بالتسـلية والمـرح، ومن أمثلة ذلك قولك لهم: (إن من الشـجر شـجرة لا يسـقط ورقهـا وإنما مثلها مثل المسلم فأخبروني ما هي؟)[3]

وكنت تستعمل معهم كل وسـائل التوضـيح الممكنـة، ومن أمثلة ذلك استعمالك للغـة الجسـد، فقـد كنت تقـول لهم، وأنت تشير بالسبابة والوسطى: (أنا وكافـل اليـتيم كهـاتين)[4]، وكنت تقول لهم، وأنت تشير بيدك إلى المشرق: (الفتنة من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان)[5]

وكنت أحيانا في سبيل توضيح المعلومـة تسـتعمل الرسـم للتبسيط والتيسير، وقد حدث بعض أصحابك قال: (خط رسـول الله ﷺ خطا مربعا، وخط خطا في الوسـط خارجـا منـه، وخـط خططا صغارا، إلى هذا الذي في الوسـط، من جانبـه الـذي في الوسط، فقال: «هـذا الإنسـان، وهـذا أجلـه محيـط بـه ــ أو قـد أحاط به ـ وهذا الذي هـو خـارج أملـه، وهـذه الخطـط الصـغار: الأعراض، فإن أخطأه هذا، نهشه هـذا، وإن أخطـأه هـذا، نهشـه هذا)[6]

1() رواه الترمذي وأحمد والحاكم.

2() رواه أحمد.

3() رواه البخاري.

4() رواه البخاري وأبو داود.

5() رواه مسلم.

6() رواه البخاري 14/11 و 12، والترمذي رقم (2456)

وكنت تقص عليهم القصص، وتضرب لهم الأمثال التي تبسط لهم الحقائق، ومن ذلك قولك لهم:(مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فكان بعضهم أسفلها وكان بعضهم أعلاها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً فلم نؤذ من فوقنا، فإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً)[1]

وهكذا كنت تستعمل كل ما أمكنك وتوفر لديك من فنون البيان والتيسير والتوضيح، حتى تصل المعلومة إلى العقول والقلوب بكل يسر وسهولة..

ولم تكن تكتفي بإيصال المعلومات المجردة، وإنما كنت تنصح المتعلمين، وتربيهم، وتهذب نفوسهم، حتى لا يكون العلم سببا لهلاكهم، وحتى ينالوا العلم النافع الذي لا ينال أجر المتعلمين والعلماء والمعلمين إلا من توفر لديه.

فأسألك يا سيدي يا رسول الله، وأتوسل بك إلى ربي أن يجعلني من المتعلمين في مدرستك، ومن كل علومها وآدابها ومعارفها، حتى أنال شرف التخرج منها، بشهادتك العظمى التي فيها توقيعك السامي، والتي لا تعدلها أي شهادة في الدنيا.

وأسألك، وأتوسل بك إلى ربي أن يجعلني من معلمي الخير، السائرين على قدمك، المهتدين بهديك، أولئك الذين نفعهم العلم، ولم يضرهم، وأصلح نفوسهم، ولم يفسدها، وقربهم منك، ولم يبعدهم.. إنك أنت الوسيلة العظمى، فلا يرد من توسل بك، ولا يخيب من توجه إلى الله بوجهك، وبجاهك.

1() رواه البخاري.

الشهم الشجاع

سيدي يا رسول الله.. أيهـا الشـهم الشـجاع الـذي اكتملت فيه كل أركان الشخصية القوية بجميع معانيها؛ فصـار أنموذجهـا الأمثل، وقدوتها الأعلى، وأسوتها الحسنة.

عندما أتأمل مواقفك طيلة حياتك، وخاصة في تلك الفـترة التي كلفت فيها بأعظم رسالة، وبين أشـرس قـوم، وفي أحلـك ظـروف.. أعلم يقينـا أن القلب الـذي اسـتطاع تحمـل تلـك التكـاليف الثقيلـة لا يمكن إلا أن يكـون في قمـة الشـجاعة والقوة.. وإلا فمن يجرؤ على مواجهة أقوام تجذر فيهم الشرك، وكـل عـادات الجاهليـة، بـذلك التحـدي، وبتلـك الـدعوات الـتي جعلتهم ينهضون جميعا على بكرة أبيهم لمواجهته.

ولو أن أولئك المشككين المخدوعين عن الحقيقـة، تـأملوا في هذه الناحية وحـدها، لهـدتهم إليـك، ولعرفـوا أن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: 124]، فيسـتحيل على من كـان كاذبا أو مخدوعا أو مخادعا أن يتجرأ على تلك الدعوات التي لن ينال منها إلا المواجهة والحرب والتشـويه والتشـويش.. مـع أنـه يمكن أن ينـال كـل أغراضـه بمجـرد أن يسـمع قومـه فصـاحته وبلاغته وحكمته.

فالمواجهة ـ يا سيدي يا رسـول اللـه ــ والشـجاعة الأدبيـة المرتبطة بها أعظم من الشـجاعة الـتي يبرزهـا المحـاربون في حربهم، أو الشجعان في منازلاتهم..

ولذلك قلت مبينا عظم شـهادة من قـال كلمـة الحـق عنـد سـلاطين الجـور: (من أعظم الجهـاد كلمـة عـدل عنـد سـلطان

جائر)(1)

لا تــزال ذكريــات شــجاعتك في هــذا الجــانب تــرد على خاطري، وتملؤني بالنشوة، وأنا أشعر بأن ذلك الحــبيب العظيم الذي امتلأ قلبي حبا له وشوقا إليـه، ليس عارفـا، ولا عالمـا، ولا عابدا، ولا عبقريا فقط.. وإنما هو فـوق ذلـك يـتربع على عـرش الشجاعة الذي لا ينافسه فيه أحد.

فالشـــجاعة الـــتي واجهت بهـــا المشـــركين واليهـــود والمنافقين.. وكل المناوئين.. لم يكن ليجسر على الإقدام عليها غيرك.. وغير من اهتدى بهديك.

لا أزال أذكر سيدي ذلك الموقف الذي وقفته على الصــفا، وأنت تعلم خطورتـــه، وتـــأثيره في قومـــك الحريصـــين على أصنامهم وأوثانهم.. لقـد رحت تنـاديهم بكـل قـوة، وتقـول لهم: (أرأيتم لو أخـبرتكم أنّ خيلا بـالوادي تريـد أن تغـير عليكم أكنتم مصـدّقي)، قـالوا: نعم، مـا جرّبنـا عليـك إلّا صـدقا.. فقلت لهم: (فإنّي نذير لكم بين يـدي عـذاب شـديد)، حينهـا قـام عمـك أبـو لهب غاضبا، وهو يقول: (تبّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟)(2)

لكن ذلك الموقف لم يؤثر فيـك.. بـل ظللت تنـادي فيهم.. وهم يرمونك بالحجارة، ويحرضون الأطفـال والمجـانين عليـك.. وأنت لا تبالي بهم.. ولا بسخريتهم.. ولا برميهم لك بكل أصـناف السباب.

وعندما لم تجد منهم آذانـا صـاغية رحت تسـير المسـافات الطويلة إلى الطائف، وأنت تعلم أن قســوتهم وغلظتهم لا تقــل عن قومـك.. وواجهتهم بشـجاعة، وطـرحت لهم بكـل قـوة مـا

1() الترمذى (2174) وأبو داود (4344)

2() البخاري- فتح الباري 8/ 360، 609 (الاحاديث رقم 4770، 4971)

كلفك الله به.. وقابلت بكل شجاعة ما واجهوك به.. وعندما اضطررت إلى الشكوى، لتنفس عن قلبك بعض حزنك عليهم، لم تشك لهم كما يفعل الجبناء، وإنما شكوت إلى الله.. لا ما زجك فيه من بلاء.. وإنما شكوت له تقصيرك في حقه..

ولم تقتصر مواقف شجاعتك على ذلك، بل كانت كل حياتك مواقف شجاعة وبطولة نادرة.. وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي جعلت العرب جميعا مشغولين بك.. وبكيفية مواجهتك، وأنت فرد واحد.. ومعك الكثير من المستضعفين.

ولم تكن شجاعتك قاصرة على شجاعة الكلمة.. بل كانت تشمل كل أنواع الشجاعة ومجالاتها.. حتى الحربية منها.. فأنت في كل الحروب التي فرضت عليك كنت المقبل لا المدبر.. والثابت لا المتولي.. حتى كان الشجعان والأبطال يلوذون بك، ويحتمون، وقد قال بعضهم يذكر ذلك: (كنا إذا حمي البأس (القتال)، واحْمرَّت الحَدَق، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه)(1)

وقال بعض أصحابك يصف شجاعتك: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ، وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبى طلحة عُرْي (مجرد من السرج)، وفي عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا (لا تخافوا ولا تفزعوا)، وقال عن الفرس: (وجدناه بحرا، وإنه لبحر)، قال الراوي: (وكان الفرس قبل ذلك يبطأ، فما سبق بعد ذلك) (2)

1() رواه الطيالسى، وابن أبى شيبة، وأحمد، وأبو عبيدة فى الغريب، والنسائى، وأبو يعلى، والحاكم، وابن جرير وصححه، والحارث، والبيهقى فى الدلائل، [كنز العمال 35463]

2() رواه والبخاري (2820) و (2866) و (2908) و (3040) و (6033)، ومسلم (2307) (48)

وقال آخر: (ما رأيتُ أشـجع ولا أنْجـد (أسـرع في النجـدة) من رسول الله ﷺ)(3)

وكيف لا تكون كـذلك سـيدي، وأنت القـرآن النـاطق الـذي تمثلت فيـه حـروف قولـه تعـالى: ﴿ وَكَـأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَـلَ مَعَـهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْـتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّـابِرِينَ (146) وَمَـا كَـانَ قَـوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَـالُوا رَبَّنَـا اغْفِـرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا وَإِسْـرَافَنَا فِي أَمْرِنَـا وَثَبِّتْ أَقْـدَامَنَا وَانْصُـرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ ﴾ [آل عمـران: 146،ـ 147]، فهذه الآيات الكريمة، وإن كانت تصف أتباع الأنبياء، فـأنت أولى بها.. وكيف لا تكون كـذلك، وأنت سـيد الأنبيـاء، وسـيد أتبـاعهم، ونموذجهم الأمثل، وقدوتهم العظمى.

وكيف لا تكون كذلك، وأنت صـاحب الإيمـان العظيم الـذي يرى الحقائق رأي العين، فلذلك لا يؤثر فيه ذلك البهرج الكـاذب الذي يؤثر في الجبناء.. فيملأهم بالمخافة والرهبة.

وكيف لا تكون كذلك، والله تعالى هو الـذي أمـرك بالثبـات والغلظة على أولئك الذين يجاوزون حدودهم، فيظلمون الناس، ويعتدون على الحرمـات، قـال اللـه تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّبِيُّ جَاهِـدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]

ولـذلك، فإنـك ــ سـيدي ــ كمـا كنت لينـا رحيمـا لطيفـا بـالمؤمنين والمسـالمين والصـالحين، كنت في نفس الـوقت شديدا على الطغاة والمجرمين والمحاربين.. فاكتملت لك بذلك الإنسانية في أجمـل جوانبهـا.. واكتملت لـك الشـهامة في أروع صورها.

3() الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني (1/ 116)

فقد كنت تحفظ شجاعتك بشهامتك، فلا تظلم، ولا تعتـدي، وإنما تكتفي بمواجهة من يظلم المستضعفين، أو يريـد التسـلط عليهم..

ولهذا كنت في كـل حروبـك الـتي فرضـت عليـك، صـاحب شهامة ونبل، تكتفي بقتال من قاتلك، وبحـرب من حاربـك، من دون أن تجاوز الحدود التي أتاحها الله لك.

وقد شهد لك كـل أصـحابك بأنـك في غزواتـك جميعـا كنت البطل الأكبر، ففي غزوة بـدر وأحـد وغيرهمـا كنت أنت القائـد، الـذي يقـدم على غمـار المـوت، بشـجاعة وبطولـة، حـتى شُـجَّ وجهك، وكُسِرت رَباعيتُك.

وفي يـوم حُنَيْن ثبت في وجـه الآلاف من هـوازن، بعـد أن تفرق عنك الناس خوفاً واضـطراباً من الكمين المفـاجيء الـذي تعرضوا له.. وقد وصف بعض صحابتك ثباتك، فقـال لمن سـأله: (أكنتم وليتم يـوم حـنين؟): (أشـهد على نـبي اللـه ﷺ مـا ولَّى، ولكنه انطلق أخِفَّاء من الناس وحُسَّـر (من لا سـلاح معهم) إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة، فرمـوهم برشـق من نبـل كأنها رِجْل (قطيع) من جراد فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول اللـه ﷺ وأبـو سـفيان بن الحـارث يقـود بـه بغلتـه، فـنزل ودعـا واستنصر وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)(1)

وذكر صحابي آخر بعض مواقـف شـجاعتك، فقـال: (غزونـا مع رسول الله ﷺ غَزَاة قِبَـلَ نَجْـد، فأدركنـا رسـول اللـه ﷺ في القائلة في واد كثير العِضَاهِ (شـجر فيـه شـوك)، فـنزل رسـول الله ﷺ تحت شجرة فَعلّـق سـيفه بِغُصْـن مِن أغصـانها، وتفـرّق الناس في الـوادي يسـتظلون بالشـجر، فقـال رسـول اللـه: إِنَّ رجلا أتاني وأنا نائم فأخـذ السـيف فاسـتيقظت وهـو قـائم على

(1) رواه البخاري (2930)، ومسلم (1776) (78) (79)

رأسي، والسيف صَلْتا (مسلولا) في يده فقال: مَن يَمْنَعُكَ مني؟ قلت: الله، فشامَ السيف (رده في غِمْده)، فها هو ذا جالِس، ثم لم يعرِض له رسول الله ﷺ)[1]

وما ذلك ـ سيدي ـ إلا لمعرفتك بالله.. فيستحيل أن تجتمـع المعرفـة مـع الجبن.. فـأول علامـات العـارف باللـه شـجاعته.. وكيف لا يكون شجاعا، وهو يرى الله في كل شيء.. ويرى قـوة الله في كل محل، ولذلك كنت تردد متأسـفا: (انتـدب اللـه لمن خـرج في سـبيله لا يخرجـه إلّا إيمـان بي وتصـديق برسـلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنّة. ولولا أن أشـقّ على أمّتي ما قعدت خلف سريّة، ولوددت أنّي أقتـل في سـبيل الله ثمّ أحيا، ثمّ أقتل ثمّ أحيا، ثمّ أقتل)[2]

بالإضافة إلى ذلك كله ـ سيدي ـ اتفق كل من رآك وعرفك وصحبك على تلك القوة التي كنت عليها.. والتي عجـز من كـان يزعم لنفسه القوة على مجاراتك فيها.. وكيـف لا تكـون كـذلك، وقـوة الجسـد من قـوة القلب.. وقـوة القلب من قـوة الـروح.. وقـوة الـروح من صـلتها بربهـا.. وأنت أعظم المتصـلين باللـه، والمتواصـلين معـه.. فلـذلك تجلى عليـك باسـمه القـوي، فلم يغلبك أحد.

وقد ورد في الحديث أن رجلا من العرب كان يطلـق عليـه ركانة، ولم يكن أحد يستطيع مواجهته، أو منازلته، وعندما سـمع بك، طلب أن يصارعك، فاستجبت لطلبه، وسرعان ما صــرعته، فلم يصدق عينـه، فطلب الإعـادة، فصـرعته مـرة ثانيـة، فقـال: عاودني، فصرعته الثالثة، فقال: (يا محمد، ما وضع ظهــري إلى الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إليَّ منك، وأنا أشهد أن لا

1() رواه البخاري (2910) و (2913) و (4134)، ومسلم ص 1787 (14)

2() البخاري- الفتح 1 (36) ومسلم (1876)

إله إلا الله وأنك رسول الله ﷺ)(3)

ولهذا كان الصحابة يلجؤون عليك عند كل شدة، أو ثقل ينوء بهم، فقد روي أنهم يوم حفر الخندق في غزوة الأحزاب، عجزوا عن كسر صخرة عظيمة عرضت لهم في طريق الحفر، فاستنجدوا بك، فأخذت المعول، وضربتها حتى عادت كثيباً أهيل، أو كالرمل الذي لا يتماسك.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله بجاهك العظيم عند الله ـ أن أنال حظا من شجاعتك وقوتك، فلا ألين مع الطغاة، ولا أسكن للظلمة، ولا أخاف في الله لومة لائم.. بل أكون شهما شجاعا أقف مع المستضعفين المظلومين، كما كنت تقف، وكما دعوتنا أن نقف.. إنك أنت صاحب الوسيلة العظمى، والجاه العظيم.

3() من الروايات الواردة للحديث أن يزيد بن ركانة جاء إلى النبي ﷺ ومعه ثلثمائة من الغنم فقال: يا محمَّد، هل لك أن تصارعني؟ قال ﷺ: وما تجعل لي إن صرعتك؟ قال: مائة من الغنم، فصارعه، فصرعه، ثم قال: هل لك في العود؟ فقال ﷺ: وما تجعل لي؟ قال: مائة أخرى، فصارعه، فصرعه، وذكر الثالثة، فقال: يا محمَّد، ما وضع جنبي في الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إلي منك وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقام عنه ورد عليه غنمه) [رواه الخطيب وصححه الألباني في إرواء الغليل (1501)]

المخلِص المخلَص

سـيدي يـا رسـول اللــه.. أيهـا المخلِص المخلَص.. يـا من توجهت إلى الله بكليتك؛ فلم يختلط توجهك إليه بغيره.. فقابلك الله بكرمه ولطفه بتخليصك الخلاص كله.. فكنت الحافظ للــه.. وكان الله الحافظ لك.

سيدي.. لو أن جميع أولئك المشـتبهين في شـأنك لاحظـوا تلك الحرب المعلنة عليك من طرف أولئـك الجفـاة الغلاظ، من المشركين واليهـود والمنـافقين وجفـاة الأعـراب.. ورأوك وأنت تسير بينهم خال من كل سلاح، وليس معـك أي حـرس، لعلمـوا أنك محفـوظ من اللــه، وأن تـركهم لـك، أو عـدم قـدرتهم على إيذائك ليس رغبة منهم في ذلك، وإنما لأن الأمر كان خارجا من أيديهم.

وقد أخبر اللــه تعـالى أنــه حفظـك بـذلك الحفـظ الخـاص، لتكمل دينك، وتؤدي رسالتك، ويتم نعمته على عبـاده بـك، قـال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَـلْ فَمَـا بَلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]

وأخبر أن كيد كـل أعـدائك سـيرتد عليهم، لأن اللــه تعـالى تولى حفظك، ولن يستطيع أحـد أن يواجـه اللــه، قـال تعـالى:﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: 15 - 17]

ولذلك كنت تتحـرك في القيـام بأعبـاء دعوتـك بكـل حريـة على الرغم من التضييق الشديد الـذي ضـيقوا بـه عليـك، وعلى عشيرتك، وحصارهم لك ولهم.. ولكنهم مـع ذلـك لم يسـتطيعوا

خنق صوتك، ولا القضاء المبرم عليك.

ولـــذلك اكتفـــوا بالســـخرية والاســـتهزاء.. وكـــل أســـلحة الضعفاء.. ومع ذلك، فقد كفاك الله شأنهم، وسرعان ما ارتـدت سخريتهم واستهزاؤهم عليهم، كما وعدك ربـك بـذلك، فقـال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْـتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُـونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًـا آخَـرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)﴾ [الحجر: 95، 96]

وهذه سنة الله مع عبـاده المخلَصـين، كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَحَـاقَ بِالَّذِينَ سَـخِرُوا مِنْهُمْ مَـا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: 10، 11]

وقـــد ذكـــر أصـــحابك بعض مـــا حصـــل لأولئـــك الســـاخرين والمستهزئين والمؤذين لك.. ومنها ما حصل للوليد بن المغـيرة، والأســـود بن عبـــد يغـــوث، والأســـود بن المطلب، والحـــارث بن عيطلة السهمي، فقد رووا أنـه لمـا أكـثروا الاسـتهزاء بـك أتـاك جبريـل، فـأراك الوليـد، ثم أومـأ إلى أكحلـه، وقـال: كفيتـه.. ثم أراك الأسـود بن المطلب فأومـأ إلى عينيـه، وقـال: كفيتـه.. ثم أراك الأسود بن عبد يغوث، فأومأ إلى رأسه، وقال: كفيته..

ثم تبين بعد ذلك سر تلك الإشـارات، ذلـك أنـه مـر بالوليـد رجل من خزاعة، وهو يريش نبلا له، فأصـاب أكحلـه، فقطعهـا.. وأما الأسود بن المطلب فنزل تحت سمرة، فجعل يقول: يا بني ألا تدفعون عني فجعلوا يقولون: ما نرى شـيئا، وهـو يقـول: قـد هلكت ها هو ذا أطعن بالشوك في عيني،فلم يـزل كـذلك حـتى عميت عيناه.. وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها.. وأما الحارث فأخذه المـاء الأصـفر في بطنـه حـتى خرج من فيه فمات منها.. أما العاص فـركب إلى الطـائف على حمـار فـربض على شـبرقة، فـدخل في أخمص قدمـه شـوكة

فقتلته[1].

وهكذا رووا أن رجلا كان يجلس إليك، فـإذا تكلمت بشـيء اختلج بوجهه، وهو يسـخر منـك بـذلك، فقلت لـه: (كن كـذلك)، فلم يزل يختلج حتى مات[2].

ورووا أنك مـررت على نـاس بمكـة، فجعلـوا يغمـزون في قفاك، ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نـبي، ومعـه جبريـل، فغمـز جبريل، فوقع مثل الظفـر في أجسـادهم فصـارت قروحـا حـتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم[3].

ورووا أن عدوك اللدود أبا جهل قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهـركم؟ فقيـل: نعم، فقـال: واللات والعـزى، لئن رأيتـه يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في الــتراب.. ثم إنه أتاك، وأنت تصلي ليطـأ على رقبتـك، لكنـه ارتـد على عقبـه فجأة، وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيـل لـه: مـا لـك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقا من نـار، وهـولا وأجنحـة.. وقـد قلت حينها تذكر ما حصل له: (لو دنا لاختطفته الملائكة عضوا عضوا) [4]

وقد روي أنه نزل عليـك حينهـا آخـر سـورة العلـق، والـتي يقول الله تعالى فيها متوعدا: ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق: 15 - 19]

1() رواه أبو نعيم والبيهقي وصححه الضياء في المختـارة، سـبل الهـدى والرشـاد في سيرة خير العباد (10/ 254)

2() رواه أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 254)

3() رواه البزار والطبراني، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 255)

4() رواه أحمد والنسائي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 255).

ورووا أن بعض أعدائك قال: (يا معشر قـريش، إن محمـدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني لأعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر فـإذا سـجد في صلاته فضحت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد منـاف مـا بدا لهم)، فلما أصبح أخذ حجرا، واقترب منك، وأنت تصلي، وقد غـدت قـريش، فجلسـوا في أنـديتهم ينظـرون، فلمـا سـجدت احتمل الحجر، ثم أقبل نحوك حتى إذا دنا منك رجع فارا منتقعـا لونه، قد يبست يداه على حجـره، حـتى قـذف الحجـر من يـده، فعندما سألوه عن سر ما فعله، قال: (لما قمت إليـه عـرض لي فحل من الإبـل، فـو اللـه مـا رأيت مثـل هامتـه ولا قصـرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهم أن يأكلني)، وقد قلت حينها مبينا سـر مـا حصل له: (ذاك جبريل، لو دنا مني لأخذه)(1)

ورووا أنه لما نزلت سورة المسد، أقبلت أم جميل، امــرأة أبي لهب، ولها ولولة، وفي يديها فهر، وهي تقول: (مذمما أبينـا، ودينه قلينا، وأمره عصينا)، وأنت جالس في المسـجد مـع بعض أصحابك، فقـال لـك: (لقـد أقبلت هـذه، وأنـا أخـاف أن تـراك)، فقلت له مطمئنا: (إنهـا لن تـراني)، فـراحت تصـرخ: أين الـذي هجاني وهجا زوجي؟.. فسألها من معك عن رؤيتها لك، فقـالت: (أتهزأ بي والله، ما أرى عندك أحدا)، ثم انصرفت، فسـئلت عن سر عدم رؤيتها لك، فقال: (حال بيـني وبينهـا جبريـل، يسـترني بجناحيه حتى ذهبت)(2)

وهكذا كنت محجوبا عن كل أعدائك الذين يتربصـون بـك.. وكيف لا تكون كذلك، وأنت القرآن الناطق، وقد قال الله تعالى

1() رواه ابن إسحاق وأبو نعيم والبيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 255)

2() رواه أبو يعلى وابن حبان والحاكم، وصححه ابن مردويه، والـبيهقي، سـبل الهـدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 256)

فيـك وفيـه: ﴿ وَإِذَا قَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ جَعَلْنَـا بَيْنَـكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: 45]

وقد روي أن نفرا من قومك تواصوا بك ليقتلوك، منهم أبـو جهـل والوليـد بن المغـيرة وغيرهمـا، فبينمـا أنت قـائم تصـلي، سمعوا قراءتـك، فأرسـلوا إليـك الوليـد ليقتلـك، فـانطلق حـتى انتهى إلى المكان الذي تصـلي فيـه، فجعـل يسـمع قراءتـك ولا يراك، فرجـع إليهم فـأعلمهم بـذلك، فأتـاك من بعـده أبـو جهـل والوليد ونفر منهم، فلمـا انتهـوا إلى الصـوت، فـإذا الصـوت من خلفهم، فينتهون إليه فيسـمعونه أيضـاً من خلفهم، ثم انصـرفوا ولم يجدوا إليك سبيلا(1).

وغيرها من الروايات الكثـيرة المتـواترة، والـتي دل عليهـا، وعلى صحتها قوله تعـالى: ﴿ وَجَعَلْنَـا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9]

وقد روي في سبب نزولها أن بعض المشركين وقفوا أمام بيتك، يريدون قتلك، فخـرجت عليهم، وأحـدهم يقـول لأصـحابه: (إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكـا، فـإذا متم بعثتم بعد مـوتكم، وكـانت لكم جنـان خـير من جنـان الأردن وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها)، فـالتفت إليهم من غـير أن يشـعروا بـك، فوضـعت التراب على رؤوسهم، وأنت تقرأ بداية سورة يس، ولم يفطنـوا لأنفسهم إلا بعد أن تساقط التراب من على رؤوسهم (2).

وهكذا شملك الله بحفظه في أشد الظروف صعوبة، مثلما حصـل لجـدك إبـراهيم عليـه السـلام عنـدما صـارت النـار بـردا

1() رواه البيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 257)

2() انظر الروايات الواردة في ذلك في: تفسير ابن كثير (6/ 564)

وسلاما عليه، ليستطيع أداء الوظيفة التي كلف بها.

وعندما هاجرت إلى المدينة أرسلوا في طلبك حيا أو ميتا.. لكن الله نصرك عليهم، وأيدك بحفظه.. كما ذكر ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: 30]

وأمام الغار، حصل الموقف الذي أرخ له قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 40]

لقد مكثت حينها في غار ثور ثلاثة أيام حتى لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر تحتهما، وحينها امتلأ صاحبك المرافق لك حزنا، فقلت له بكل هدوء، وأنت تعلم أن الله لن يضيعك: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40] (1)

لقد كان ذلك الموقف يشبه كثيرا موقف نبي الله موسى عندما كان فرعون خلفه، والبحر أمامه، فقال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]، فرد عليهم بكل هدوء: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]

وعندما ذهبت إلى المدينة، وزاد أعداؤك، بعد أن انضم إليهم اليهود والمنافقون، وأعلنت كل الحروب عليك، وجرت الكثير من محاولات اغتيالك، فشلت جميعا..

ومن تلك المحاولات ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ

---

(1) البخاري برقم (3653) مسلم برقم (2381)

وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]، فقد روي أنك ذهبت إليهم لبعض الأمـور بنـاء على المعاهـدة الـتي كـانت بين المسـلمين وبينهم، فأجلسـوك في حائـط لهم ثم عزمـوا على قتلـك، بقـذف رحى عظيمة من فوق الحائط، لكن الله تعـالى عصـمك من شـرهم، وأحبط كيدهم، وأبلغك بعـزمهم ففـارقت موضـعك، وكـان ذلـك من أسباب جلائهم عن المدينـة كمـا ذكـر اللـه تعـالى ذلـك في سورة الحشر.

لقد رأى بعض الصحابة حينها أو بعدها أن يتخذوا لك حرسا يحرسـك، بعـد أن كـثر المنـافقون والمتربصـون بـك من البلاد المختلفة.. لكن الله تعالى أنزل عليك قوله ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائـدة:67]، فصـرفت الحـرس عنـك، ومـا حاجتـك إليهم، وأنت في حفظ الله.

وهكـذا كـان أعـداؤك يخططـون كـل حين لقتلـك.. لكن محاولاتهم جميعا باءت بالفشل.. ومنها تلك المحاولة الـتي قـام بها الطلقـاء، ومن معهم من المنـافقين الـذين أجمعـوا على أن يقتلوك، فلما أردت أن تسلك العقبـة أرادوا أن يسـلكوها معـك، ليدفعوك عن راحلتك في الوادي، فأخبرك الله تعـالى بمكـرهم، فلما بلغت تلك العقبة، طلبت أن ينـادى في النـاس: إن رسـول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، واسلكوا بطن الـوادي، فإنـه أسهل لكم وأوسع، فسلك النـاس بطن الـوادي إلا النفـر الـذين مكروا بك؛ فلما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا، وسـلكت العقبـة، وأمرت عمار بن ياسر أن يأخذ بزمـام الناقـة ويقودهـا، وأمـرت حذيفـة بن اليمـان أن يسـوق من خلفـه، فبينـا كنت تسـير من العقبة إذ سمعت حسّ القوم قـد غشـوك، فنفّـروا ناقتـك حـتى سقط بعض متاعك.. فـأمرت حذيفـة أن يـردهم، فرجـع حذيفـة إليهم، ومعـه محجن، فجعـل يضـرب وجـوه رواحلهم ويقـول: (إليكم إليكم يا أعداء اللـه تعـالى).. حينهـا علم القـوم أنـك قـد

اطّلعت على مكـرهم، فـانحطوا من العقبـة مسـرعين حـتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة إليك، فقلت له: اضرب الراحلة يـا حذيفة، وامش أنت يـا عمـار، فأسـرعوا حـتى اسـتوى بأعلاهـا، وخرجت من العقبة تنتظر الناس(1).

وهكذا باءت كل محاولاتهم بالفشل إلى أن أذن الله لبعض كيدهم أن يصل إليـك، لا لينهي الـدور الـذي كلفت بـه، فتمـوت قبل أن تكمل رسالة ربك، وإنما ليختم لك بالشـهادة الـتي كنت تتمنى أن يختم لك بها..

فقـد روي أن امـرأة يهوديـة أتت إليـك بشـاة مسـمومة، فأكلت منها، فجيء بها إليك، فسـألتها عن ذلـك، فقـالت: أردت قتلك، فقلت لها: (ما كان الله ليسلطك على ذاك)(2)

وبالفعل لم يسلطها الله على ذلك، فقـد كـان ذلـك السـم شديدا، ويقتل من تناوله في نفس اللحظة الـتي يتناولـه فيهـا.. لكن الله شاء ألا يفعل ذلك بك في تلك اللحظة التي لم تكتمـل فيها دعوتك..

وعندما اكتملت دعوتك، وأذن لأجلك أن ينتهي، بعد أن علم الله شوقك الشديد للقائه.. أذن لذلك السـم أن يعـاود مفعولـه من جديد، ليختم لك بالشهادة، كما أشرت إلى ذلك بقولك: (مـا أزال أجـد ألم الطعـام الـذى أكلت بخيـبر، فهـذا أوان وجـدت انقطاع أبهرى من ذلك السم)(3)

1() روى الحادثة أحمد عن أبي الطّفيل، والبيهقي عن حذيفة، وابن سعد عن جبير بن مطعم وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك والبيهقي عن عروة، والبيهقي عن ابن إسحاق، وغيرهم، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (5/ 466)

2() رواه البخاري (2474) ومسلم (2190)

3() رواه البخاري (4165)

هــذه بعض مظــاهر حفــظ اللــه لــك ممــا حفظــه لنــا المؤرخون.. ولا يمكننا ـ سيدي ـ أن نحيط بها جميعا.. فقد كانت حياتك كلها في كنف الله.. وكـان جميـع شـياطين الإنس والجن يتربصــون بــك.. ولــذلك كنت محفوظــا في كــل ثانيــة من أن يتسرب إليك منهم ما يحول بينك وبين أدائك لرسالتك العظيمة.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله أن أنال من ثمرات حفظ الله لـك، مـا يحفظـني من كـل سـوء.. حـتى لا أستسـلم لأهــواء المحــرفين والمبــدلين والمغــيرين، أو أركن لتخــويفهم وإرهابهم، بل أوقن بمـا أوصـيتنا بـه في وصـاياك العظيمـة حين قلت: (إن العباد لـو اجتمعـوا على أن ينفعـوك بشـيء لم يكتبـه الله لـك، لم يقـدروا على ذلـك، ولـو اجتمعـوا على أن يضـروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقـدروا على ذلـك، جفت الأقلام، وطويت الصحف)(1)

وأتوسل بك إلى الله ــ سـيدي ــ أن يحفـظ قلوبنـا من أن تنـدس إليهـا الأهـواء، أو تملأهـا الشـياطين بوساوسـها، أو تغـير عليها جنود الخـوف والفـزع، فتمنعهـا من أداء مـا كلفت بـه من واجبات.. إنك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

____

(1) رواه أحمد (1/293) (2669) وفي (1/303) (2763) والترمذي (2516)

رسول العالَمين

سيدي يا رسول الله.. أيها المبعوث رحمة للعالمين.. يا من جعله الله الوسيلة لتحقيق كل غايات الوجود الإنساني.. فكنت السبيل الوحيد للانتصار على جميع الشياطين.. حتى يظهر بك الحق على الباطل.. وينتصر بك النور على الظلمات.. ويظهر دينك على الدين كله.. وبك تتحقق جميع أحلام الأنبياء والشهداء والأولياء..

لقد ذكر الله تعالى عالمية رسالتك، وأنك كنت المدخر للبشر، لتكون خاتمة عقد النبوة، فلا نبي بعدك، وكل من ادعى النبوة بعدك كذاب، وكل من اتبع غيرك ـ بعد علمه بك ــ كافر وضال.. فلا يقبل الله بأن يؤتى من غير بابك.

وكيف يقبل الله ممن سمع بك، ثم أعرض عنك، وقد أخذ ربك الميثاق على أنبيائه بلزوم اتباعك في حال كان زمنهم مطابقا لزمانك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 81، 82]

وقد قال الإمام علي في بيانها وتفسيرها: (ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ، وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه)(1)

1() تفسير ابن جرير الطبري (2/ـ 236)، وتفسير ابن كثير (1/ـ 386)، وتفسير البغوي (1/ 322)

وقد ذكرت سيدي ذلـك، وحـذرت من الـدجالين الـذين قـد يغرون الناس على أنفسهم، ويوهموهم بجواز اتباع غيرك.. لقـد قلت في ذلك: (والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجـلٌ من هـذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بي، إلا كـان من أهـل النار)(1)

وفي حـديث آخـر، قلت: (أعطيت خمسـا لم يعطهن أحـد قبلي).. ثم ذكرت منهـا: (وكـان النـبي يبعث إلى قومـه خاصـة، وبعثت إلى الناس عامة)(2)

وفي الحـديث الصـحيح المعـروف أن بعض أصـحابك أتـاك بكتـاب أصـابه من بعض أهـل الكتب، فقـرأه، فغضـبت غضـبا شديدا، ثم قلت: (والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيـة، لا تسـألوهم عن شـيء فيخـبروكم بحـق فتكـذبوا بـه أو بباطـل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسـى صـلى اللـه عليـه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)(3)، فكيف يطالب الأنبياء عليهم السلام بوجوب اتباعك، ثم لا تؤمر أممهم بذلك؟

ومـا لنـا نعـود إلى الأحـاديث الـتي نـراهم يسـارعون إلى تكذيبها من غير مبرر إلا الأهواء المجردة، ونترك القرآن الكـريم الذي صـرح بـذلك، وفي مواضـع كثـيرة، فاللـه تعـالى أخـبر أن رسالتك إلى كافة النـاس بخلاف رسـائل سـائر الرسـل، والـتي ذكر أنها لأقوامهم خاصة.. ولو أنهم قرؤوها وتدبروها لعادوا إلى رشدهم، وكفوا عن غيرهم، وتضليلهم للخلق.

لقد قال الله تعالى ينص على عالمية رسالتك التي تقتضي

1() رواه مسلم: ج ١، ص 134، ح 240.

2() رواه البخاري 1 / 369 و 370، ومسلم رقم (521)

3() رواه أحمد (3/387).

وجوب اتباعك وطاعتك في كل ما جئت به: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ [سـبأ: 28]، وكونـك بشـيرا ونـذيرا لكـل الخلـق يـدل على أن كـل البشـارات أو الإنـذارات الـتي نطقت بهـا، أو نطـق بـه القـرآن الكريم، وفي آحـاد الأعمـال تنطبـق على الخلـق جميعـا، وليس على الأمة التي حظيت باتباعك.. فالكل مسؤول عن اتباعك.

والله تعالى يدعوك لأن تخبر الناس جميعا، بـأنهم مكلفـون باتباعـك، وأنـه لا منـاص لهم من ذلـك، حـتى لـو بعث أنبيـاء الـديانات الـتي ينتمـون إليهـا؛ فـإنهم لا يجـوز لهم اتبـاعهم، بـل عليهم اتباعك، لقد قال الله تعالى يدعوك لذكر ذلك لهم: ﴿ قُلْ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعـاً الَّذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَـآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِـهِ وَاتَّبِعُـوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (لأعراف:158)

فالآية الكريمة لا تأمرهم بمجرد الإيمان بـك، وإنمـا تضـيف إليه وجوب اتباعك، مع أن مجرد الإيمـان بـك كـاف في وجـوب اتباعك؛ فيستحيل على من يعلم أنك رسول الله، وأن الشـريعة التي جئت بها هي شريعة الله المعـبرة عن مراضـيه أن يتركهـا لغيرها من الشرائع التي شهد القرآن الكريم بتحريفها وتبديلها.

وهكـذا نجـد الآيـات الكثـيرة المخـبرة عن كونـك رسـولا ورحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَـزَّلَ الْفُرْقَـانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقـان:1)، وقـال: ﴿ إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرَى لِلْعَـالَمِينَ﴾ (الأنعـام: 90)، وقـال: ﴿ وَمَـا هُـوَ إِلَّا ذِكْـرٌ لِلْعَـالَمِينَ﴾ (القلم:52)، وقـال: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]

وغيرهـا من الآيـات الكريمـة الـتي لا يفهم منهـا إلا كـون

رسـالتك شـاملة للعـالمين جميعـا.. وفي كـل الأجيـال.. ولكـل البشر.. ولأصحاب كل الأديان.. ولا عـذر لأحـدهم بعـدم اتباعـك بعد سماعه بك، واطلاعه على ما جئت به.

سيدي يا رسول الله.. يا رحمـة اللـه للعـالمين.. لقـد تـرك أولئـك الـدجالون المشـاغبون كـل هـذه النصـوص الصـريحة الواضحة، وراحوا يتعلقون بالمتشابهات من النصوص، والتي دل القرآن الكريم نفسه على معانيها..

لقـد فعلـوا مثلمـا فعـل المجسـمة وغـيرهم الـذين تعلقـوا بنصوص متشابهة تحتمل معاني متعدد، وراحـوا يفرضـون عليهـا المعنى الذي يريدون، من دون أن يحاولوا الجمـع بين النصـوص كما هو الأصل في التعامل مع النصوص المقدسة عند التعارض.

ومن تلك النصوص الـتي راحـوا يسـتدلون بهـا مـا ورد في القرآن الكريم من دعوة أهل الكتاب لإقامـة التـوراة والإنجيـل، كقولـه تعـالى: ﴿ قُـلْ يَـا أَهْـلَ الْكِتَـابِ لَسْـتُمْ عَلَى شَـيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [المائـدة: 68]، وقد توهموا أن هذه الآية الكريمة تدعو أهل الكتاب للعمل بكتبهم، وعدم العودة للقرآن الكـريم، الـذي جعلـه اللـه مهيمنـا على كل الكتب.

وقد غفلوا عن أن تلك الآية الكريمة قد عقبت مباشرة بمـا يزيـل الفهم السـيء الـذي قـد يفهم منهـا؛ فاللـه تعـالى عقبهـا بقولـه: ﴿وَلَيَزِيـدَنَّ كَثِـيرًا مِنْهُمْ مَـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًـا وَكُفْـرًا فَلَا تَـأْسَ عَلَى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ﴾ [المائـدة: 68]، حيث اعتبرهم كافرين لإعراضهم عما أنزل من القرآن الكريم.

وبـذلك فـإن الـذي يقيم التـوراة والإنجيـل مضـطر معهمـا لإقامة القرآن الكريم، حتى لا يكون من الذين قـال اللـه تعـالى

فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85]

فإذا فعلوا ذلك، وأقاموا القرآن الكريم نتيجة إيمانهم به مثل إيمانهم بكتبهم، ونتيجة إيمانهم بك، ذلك أنه لا يمكن الإيمان بك دون الإيمان بما أنزل عليه.. حينها يصبح الإيمان المجرد عن الاتباع لغوا، وهو ما ينقض كل الأصول التي اعتمدوا عليها.

ولو أنهم ـ سيدي ـ تركوا كبرياءهم وغرورهم ـ وعادوا إلى القرآن الكريم الذي يتوهمون أنهم يستندون إليه في دعواهم، وسألوه عن نوع الإقامة التي طلبها الله تعالى منهم، لعلموا أنها ما ورد في كتبهم من تلك الوصايا التي أمر بها القرآن الكريم، والتي لا يمكن تنفيذها إلا بتلك الشرائع التي جئت بها.

ولو أنهم رجعوا لكتبهم، وكانوا صادقين في رجوعهم، لعلموا أنه لا يمكن إقامة كتبهم من دون اتباعك؛ فأول ما يجدونه فيها تلك البشارات التي امتلأت بها، والتي تدعو إلى وجوب اتباعك، وهي كثيرة جدا، وقد أشار إليها القرآن الكريم في مواضع منه، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]

بل أخبر القرآن الكريم أنه قد ورد في الكتاب المقدس من التفاصيل المرتبطة بك ما يجعلهم موقنين بك، غير شاكين فيك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا

يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة: 146]

ولو أن أولئك المجادلين المشاغبين الذين توهموا أنه يمكن إقامة الدين من دون اتباعك، رجعوا إلى القرآن الكريم، واستمعوا بوعي لما ورد فيه من الإخبار عن التحريفات التي حصلت في كتب جميع الأديان، وأن أهل الكتاب كانوا يشترون بتحريفها ثمنا قليلا، لعلموا أنه لا يمكن أن يأمر الله باتباع كتب محرفة.. فهل يعقل أن يأمر الله تعالى أهل الكتاب بأن يقيموا ما حرف من كتابهم، قال تعالى: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة: 75]

ولو أن أولئك المجادلين المشاغبين كلفوا أنفسهم بالعودة إلى تلك الكتب التي يدّعون أنه يمكن لأهل الكتاب أن يكتفوا بها عن اتباعك، لرأوا فيها من الطامات والخرافات والخزعبلات والأساطير ما يتنافى مع دين الله.. فهل يمكن أن يطالبوا بالإيمان بكل ذلك؟.. هل يمكن أن نعتبر تلك الكتب بعد ذلك، ثم نطلب من أهل الكتاب إقامتها، وأن يضيفوا إليها فقط الاعتراف بكونك مجرد رسول لا يجب اتباعه؟

إن هؤلاء سيدي لم يفهموا الغرض من تلك الآيات الكريمة، لأنهم حكموا أهواءهم فيها.. ولو أنهم عادوا للراسخين في العلم الذين يحكمون المحكم على المتشابه لعلموا أن المراد منها غير ما فهموه.

فالله تعالى في تلك الآية الكريمة يدعو أهل الكتاب للعودة لكتابهم ليتمثلوا القيم النبيلة الموجودة فيه، ويتمثلوا ما ورد فيه من أوامر باتباعك.. وهي لا تعني بذلك اكتفاؤهم بما فيها عن اتباعك.

بل إن مثل ذلك مثل من يخاطب سياسيا يراه قد انحرف عن مشروعه الذي طرحه، بالعودة إلى مشروعه، والعمل بما فيه، مما كان قد وعد به، وذلك لا يعني أن مشروعه معصوم، أو أنه كاف، وإنما هو نوع من التنزل في مخاطبة الآخر، كما قال تعالى في مخاطبة المشركين: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25]، فهل يمكن الاستدلال بهذه الآية الكريمة على أن المسلمين كانوا مجرمين؟

ومثل ذلك تنزل إبراهيم عليه السلام مع الملك، عندما قال له ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، فجادله الملك، وقال: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، حينها لم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يناقشه في ذلك، وإنما انتقل به لدليل آخر.. وهو لا يعني إقراره بأن الملك يحيي ويميت.

وهكذا نجدهم يستدلون بما ورد في القرآن الكريم من النصوص الدالة على نجاة غير المسلمين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: 69]

مع أن هذه الآيات الكريمة لا يمكن فهمها إلا في ضوء النصوص الأخرى الكثيرة الدالة على كفر من أشرك بالله من اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: 17]، وقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

[المائدة: 72]، وقوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة: 73]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تنص على كفر من أشرك بالله تعالى، أو لم يتبعك أو كذبك.

ولو أنهم آمنوا بهذه الآيات جميعا، لعلموا أن القرآن الكريم لا يتحدث عمن رأوك وعاصروك وسمعوا بك أو جاءوا من بعدك، فأولئك يجب عليهم الإيمان بك واتباعك، وإنما يتحدث عمن لم يتشرفوا برؤيتك، أو لم يسمعوا بك لأسباب زمانية أو مكانية خارجة عن قدراتهم.

أما الزمانية؛ فلكونهم في أزمنة سبقت الإسلام، ولم يعرفوا دينا إلا تلك الديانات، فهم غير مكلفين إلا بها.. وأما المكانية؛ فهو كونهم في أقصى الأرض، ولم يتهيأ لهم أن يسمعوا بالإسلام، فهم غير مؤاخذين بسبب ذلك.

ولو أنهم تواضعوا، ورجعوا إلى الأسلوب القرآني في التعبير، لوجدوا الله تعالى يقول عند حديثه عن بني إسرائيل: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [الأعراف: 159]، فهذه الآية الكريمة لا تقصد وجودهم في كل الأزمنة، وإنما تقصد وجودهم في الأزمنة السابقة قبل رسالتك، لأنه بعد إرسال الله لك صار على الجميع وجوب اتباعك.

ولو أن هؤلاء المجادلين استمعوا بوعي وتدبر لما ورد في القرآن الكريم في نصارى نجران المسالمين الذي تعاملت معهم بكل سماحة ولطف، ولكنك مع ذلك لم تسكت عن كفرهم وجحودهم عن اتباعك، بل دعوتهم إلى المباهلة، التي نص عليها قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا

وَأَنْفُسَــكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِــلْ فَنَجْعَــلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَــاذِبِينَ [آل عمران: 61]

وقد ورد في تلك الآيات التي تخـاطبهم قولـه تعـالى: يَـا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ [آل عمران: 70]، وقوله لهم: يَا أَهْـلَ الْكِتَـابِ لِمَ تَلْبِسُـونَ الْحَـقَّ بِالْبَاطِـلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [آل عمران: 71]

وهكذا ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تخبر عن الموقـف الحقيقي من أهـل الكتـاب، وهـو الموقـف الـذي يـبين ضلالهم عن الحق، وكفرهم بسبب عدم اتبـاعهم لـك، في نفس الوقت الذي تأمر فيه بالسماحة معهم، وتأليف قلوبهم..

ولا تعارض بين الأمرين، فالقول بكفرهم وجحودهم للحــق، لا يقتضي المعاملة السيئة لهم؛ فقد تعاملت مع وفد نجران بكل سماحة وأدب، ولكنـك مـع ذلـك لم تـداهنهم ولم تجـاملهم، ولم تنزل إلى رغباتهم، بل بينت لهم حقيقـة ضـلالهم، ودعـوتهم إلى المباهلة عند جحودهم لها.

ولــو أن هــؤلاء المشــاغبين والمجــادلين والمنفــرين من اتباعك، رجعـوا إلى الكتب الـتي يصـورون أنهـا تعـوض القـرآن، والأنبياء الذين يتوهمون أنهم يعوضـونك، لوجـدوا غـير مـا كـانوا يظنون..

ذلك أن كل البشارات التي تبشر بك في تلـك الكتب تخـبر أن رسالتك للعالمين، وأن على اليهود والنصارى وغيرهم وجوب اتباعـك، ذلـك أن كـل الشـرائع تنسـخ بشـريعتك، وقـد ورد في إنجيل متى [18-5/17] قـول المسـيح عليـه السـلام: (لا تظنـوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقـول لكم: إلى أن تـزول السـماء والأرض لا يـزول

حرف واحد أو نقطة واحـدة من النـاموس حـتى يكـون الكـل)، فهذا المبشر به هو الكل الذي له الكـل، وهـو أنت يـا سـيدي يـا رسول الله.

لقد قال هذا في نفس الوقت الذي قال فيه عن نفسه كما جاء في إنجيل متى [15 / 24]: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)؟

ولهذا جاء اليهود إلى المدينة المنورة، لأنهم كانوا يــترقبون مجيئك إليها بحسب ما تدل عليه كتبهم، والتي تـأمرهم بوجـوب اتباعك، كما قال تعالى مخبرا عن ذلك: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَهُمْ وَكَـانُوا مِنْ قَبْـلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَـا عَرَفُـوا كَفَـرُوا بِـهِ فَلَعْنَـةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:89)

فهـذه الآيـة الكريمـة تنص على أن اليهـود كـانوا من قبـل مجيئك بالقرآن الكـريم يستنصـرون بمجيئـك على أعـدائهم من المشـركين إذا قـاتلوهم، وقـد نقـل لنـا المؤرخـون ــ بالأسـانيد الصحيحة ـ أقوالهم الدالة على ذلـك.. فقـد كـانوا يقولـون: إنـه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

وقد نقل بعضهم شهادة عنه في ذلـك، فقـال: فينـا واللـه، وفيهم ــ يعـني في الأنصـاروفي اليهـود الـذين كـانوا جـيرانهم ـ نزلت هذه الآية ـ يقصد الاية السابقة ـ كنا قد علوناهم دهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: (إن نبيًا من الأنبيـاء يبعث الآن نتبعـه، قـد أظـل زمانـه، نقتلكم معـه قتـل عـاد وإرم)، فلمـا بعث اللـه رسـوله من قـريش واتبعنـاه كفروا به.. فذلك قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَـرُوا بِـهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(النساء: 155)

وقد ذكر المؤرخون بعض المحاجة التي أقامها أهل المدينة على جيرانهم من اليهود، فـذكروا أن معـاذ بن جبـل، وبشـر بن البراء بن مَعْرُور، قالا: (يامعشر يهود، اتقوا الله وأسـلموا، فقـد كنتم تستفتحون علينـا بمحمـد ﷺ ونحن أهـل شـرك، وتخبروننـا بأنه مبعوث، وتصفُونه لنا بصفته)، فقـال سَـلام بن مِشْـكم أخـو بني النضير: (ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَـرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَـا عَرَفُـوا كَفَـرُوا بِـهِ فَلَعْنَـةُ اللَّهِ عَلَى الْكَـافِرِينَ ﴾ (البقرة:89)[1]

فيا سيدي يـا رسـول اللـه.. يـا رحمـة اللـه للعـالمين.. ويـا وسيلته العظمى.. أتوسل بك إلى ربي أن يوفقني لأن أبلغ دينك للعـالمين.. فلـو سـمعوا بـه، وعرفـوا حقيقتـه الجميلـة، وقيمـه النبيلـة، لتهـافتوا عليـه، ولـدخلوا فيـه أفواجـا.. وهـل يمكن أن تقارن تلك الديانات المحرفة الممتلئة بالخرفات بـدينك الممتلئ بالطهارة والعقلانية والأخلاق العالية والقيم الرفيعة.

واقبلـني سـيدي في جملـة أتباعـك الصـادقين المخلصـين الـذين لم يخلطـوا دينـك بـأي هـوى أو فلسـفة أو هرطقـة أو زندقة.. حتى يكون ديني هو دينك، أبيض نقيـا صـافيا كمـا أنزلـه عليـك ربـك.. إنـك أنت الوسـيلة العظمى.. وأنت رحمـة اللـه للعالمين.

1() انظر: السيرة النبوية لابن هشام (1/547) وتفسير الطبري (2/233).

النبي المعصوم

سيدي يا رسول الله.. أيها النبي المعصوم الذي عصم الله جسـده من أن يتسـلط عليـه أعـداؤه.. وعصـم نفسـه من أن تتسلط عليها الوسـاوس.. وعصـم روحـه من أن تتسـلط عليهـا الأهواء.. وعصم حقيقته من أن ينطفئ نورها، أو يخبو سراجها.

لقد أذن الله لك ـ سيدي ـ بكـل هـذه الأنـواع من العصـمة رحمة بعباده، حتى تكون علم هداية يهتدون بك.. وسـراج إنـارة يطفئون بك الظلمات..

وهو لم يـأذن لـذلك، إبعـادا لـك عن التكليـف، وإلا لم تكن قـدوة لخلقـه.. وإنمـا فعـل ذلـك لعلمـه بـك، وبطهـارة نفسـك، وسمو روحك، وكرم معدنك..

فعصمتك ـ سيدي ـ موهبة وكسب.. ولم تكن موهبة إلا بعد أن كانت كسبا.. فقد كلفك الله كما كلف خلقه جميعا، واختبرك كما اختـبرهم، وعنـدما نجحت في كـل أنـواع البلاء الـتي ابتليت بهـا، أنـزل عليـك سـرابيل عصـمته وحفظـه.. فصـرت كتلـك الشمس التي لا تحجبها الغيوم.. وكتلـك الأنـوار الـتي لا تطفئهـا الظلمات.

ما عساي سيدي أقول في عصمتك.. وحياتك كلهـا ممتلئـة بالتقوى والطهارة والصـلاح من صـغرك البـاكر.. إلى أن توفـاك اللـه تعـالى، ونفسـك أطهـر من مـاء المـزن، وقلبـك أبيض من الثلج، وأخلاقك أرق من النسيم العليل.

لكني سيدي ممتلئ هما وحزنا من تلك الحروب التي شنها أعــداؤك من المدلســين والمشــوهين والمحــرفين والنــاكثين والقاسطين عليك.. حيث راحوا يدسـون في الأحـاديث المرويـة

عنك، ما يشوه جمال عصمتك، وعظمة طهارتك.

وكـأنهم ــ سـيدي ــ لم يقـرؤوا كـل مـا ورد من شـهادات التزكية الإلهية في حقك.. فقد زكى الله تعالى عقلك، فقــال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَـوَى﴾ [النجم: 2]، فلـذلك لم يكن عقلـك لينسى أو يغفل أو تعتريه تلك الأخطاء التي تعتري العقول.

وزكى لسانك، فقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَـوَى﴾ [النجم: 3]، فلذلك لم يكن لسانك إلا طاهرا في الرضا والغضـب، وفي كـل الأحوال، فقد تقـدس أن يكـون فاحشـا أو بـذيئا أو مغتابـا أو أن يقع فيما تقع فيه الألسن من أصناف الخطايا.

وزكى فؤادك، فقـال: ﴿مَـا كَـذَبَ الْفُـؤَادُ مَـا رَأَى﴾ [النجم: 11]، فلــذلك كــانت مــداركك أدق المــدارك، وعلومــك أوثــق العلوم..

وزكى بصرك، فقـال: ﴿مَـا زَاغَ الْبَصَـرُ وَمَـا طَغَى﴾ [النجم: 17]، ولذلك كنت أعظم الناس أدبا، وأزكاهم خلقا..

وزكى كل حركاتك في الدعوة إلى الله، فقال: ﴿قُـلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَـا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُـبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108]، ولذلك يستحيل أن يقع الخطأ في أي سلوك سلكته، أو دعوة دعوتها.

وزكى أخلاقك، واعتبرها عظيمة، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُـقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]، وهل هناك شهادة أعظم من هذه الشهادة التي شهد لك بها ربك العظيم.

وهكــذا زكــاك في كــل جوانبــك.. فصــرت ممثلا للحقيقــة والقيم الطاهرة أحسن تمثيل، ولولا ذلـك لاحتج المحتجـون بـأن الحقيقــة والقيم أعظم من أن تنفــذ، لأن من تــنزلت عليــه لم

ينفذها كما ينبغي أن تنفذ.

ولـذلك كـانت الجـرأة على عصـمتك ليسـت جـرأة على شخصك فقط، وإنمـا هي جـرأة على القيم نفسـها، وكـأن اللـه كلفنا بما لا نطيق..

وهي جـرأة على القـرآن الكـريم الـذي تـنزل عليـك وحيـه ومعناه، فصرت مثاله الناطق، وأنموذجه الحي المتحـرك.. ذلـك أن اختلاف سلوكك معه يؤثر فيك وفيه.. وذلك مستحيل.

وهي جرأة على الله تعالى الذي أمر بالاقتداء بك، واتخاذك أسوة حسنة في كل شيء، فقـال: ﴿لَقَـدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِـرَ وَذَكَـرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].. وهل يمكن أن يأمرنا الله بـأن نتأسـى بمن تقع منه الأخطاء والهفوات والذنوب؟

لقد رحت ـ سيدي ـ أذكر هذا لقـومي، فـاتهموني بالبدعـة، واعتبروا القول بعصـمتك المطلقـة نوعـا من الغلـو والمبالغـة.. وعنـدما ذكـرت لهم مـا ذكـره اللـه تعـالى في حقـك.. راحـوا يضربون القرآن الكريم بما يروونه من الأحاديث التي تحـط من شأنك، حتى أنهم اتهموك بأنك قد تسـب أو تلعن أو تضـرب من لا يستحق ذلك.. ومعاذ الله أن يكـون لسـانك بـذيئا، أو أن تلعن من لا يستحق اللعن.. أو تعاقب من لا يستحق العقوبة.

ولم يكتفوا بذلك ـ سيدي ـ بل راحوا يتهمونك في عقلـك.. وأن اليهـود اسـتطاعوا أن يسـحروك، ويـؤثروا في مـداركك العقلية، فتعتقد الأشياء على خلاف ما هي عليه..

وعندما قرأت عليهم ما ورد في القرآن الكريم من تنزيهك عن السحر.. وذكرت لهم أن الله تعالى أخبر أن اتهامك بالسحر ليسـت سـوى مقولـة المشـركين، وقـرأت عليهم قولـه تعـالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام: 7]، وقوله، وهـو يرسـم مشـهدا من مشـاهد المواجهـة بين دين اللـه ودين الشـياطين: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَـا بَيِّنَـاتٍ قَـالُوا مَـا هَـذَا إِلَّا رَجُـلٌ يُرِيـدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَـقِّ لَمَّا جَـاءَهُمْ إِنْ هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [سـبأ: 43]، وقوله، وهو يحكي اتهام المحاربين لـك بأنـك كنت خاضـعا لتأثير السحر: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْـتَمِعُونَ إِلَيْـكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْـحُورًا ﴾ [الإسراء: 47]

بعـد أن ذكـرت لهم هـذه الآيـات وغيرهـا، راحـوا يصـمون آذانهم، ويـذكرون لي تلـك الروايـة الـتي تتفـق العقـول على تنزيهك عنهـا.. وعنـدما أخـبرتهم أنهـا منافيـة للقـرآن.. ومنافيـة لحجج العقـول.. راحـوا يتهمونـني في ديـني، وأنـني أتجـرأ على الحديث الذي رواه رجـال كبـار كالبخـاري ومسـلم وأحمـد وابن ماجة والنسائي والبيهقي وغيرهم(1).

وعنـدما ذكـرت لهم أن هـؤلاء بشـر، قـد يخطئـون وقـد يصيبون، وأن الرواة الـذين رووا عنهم، قـد يغفلـون أو يتسـرب إليهم المدلسون، فيدسوا في السنة ما ليس منها.. ولذلك كـان الحكَم هو القرآن الكريم.

عندما ذكرت لهم هذا عبسوا، واعتبروني منكرا للسنة، مـع أني أتعبـد اللـه بقـراءة أحاديثـك، كمـا أتعبـد بقـراءة القـرآن الكريم.. وما نفيت من السنة إلا مـا رأيتـه مخالفـا لكتـاب اللـه، ومخالفا لكل تلك القيم التي جئت بها.. ولم أجز لنفسي أن أتبع

(1) الحديث رواه البخاري رقم (5766) في الطب، باب السحر، وباب هل يستخرج السحر، وباب السحر وفي الجهاد باب هل يعفى الذمي إذا سحر، وفي الأدب باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾، ومسلم رقم (2189) في السلام، باب السحر، ورواه أيضاً أحمد والنسائي وابن سعد والحاكم وعبد بن حميد وابن مردويه، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) وغيرهم.

راويا أو مجموعة رواة، ثم أحطم من خلالهم كـل تلـك الثـوابت التي رسخها القرآن الكريم في نفسي عنك.

لم يقبلوا هذا مني.. فقلت لهم: ألا تعلمون أن اللـه تعـالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَـافِقُونَ وَمِنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ مَـرَدُوا عَلَى النِّفَـاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَـنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُـرَدُّونَ إِلَى عَـذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبـة: 101].. ثم قلت لهم: ألا يمكن أن يكون في أولئـك الـرواة من وثقهم الموثقـون من غير معرفة كاملة بهم، فدسوا في الإسلام ما ليس منه؟

فرفضوا ما ذكرت لهم، وظلوا على تعلقهم بأنـك سـحرت، وأنه صار يخيلُ إليك أنك فعلت الشيء مع أنك لم تفعلـه.. وهي حالة خطيرة جدا بالنسـبة لإنسـان عـادي، فكيـف بنـبي، فكيـف بخاتم الأنبياء وسيدهم؟

إنهم ـ سيدي ـ لم يدركوا أن ذلك الشيء الذي يخيل إليــك أنك فعلته مع أنك لم تفعله قد يرتبط بتبليـغ الـدين.. وليس في الحديث الذي يروونه ما ينفي ذلك.. وبذلك يكون جــزء مهم من الدين لم يصل إلينا بسبب أنك ـ تعاليت عن ذلك علـوا عظيمـا ـ كنت تتوهم أنك بلَّغته مع أنك لم تبلغه..

ولو أنهم ـ سـيدي ــ رجعـوا لتلـك النصـوص الـتي تقدسـك وتنزهك وتخبر عن عصمتك المطلقة، لاكتفوا بها.

لو أنهم قرؤوا قول الله تعالى الواضح الـدقيق الـدال على أن حياتك كلها دعوة وبلاغ عن الله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَــا يَنْطِــقُ عَنِ الْهَــوَى (3) إِنْ هُــوَ إِلَّا وَحْيٌ يُــوحَى (4)﴾ [النجم: 2 ـ 4] لكفوا عن غلوهم وتعظيمهم للحديث، وهجرهم للقرآن الكريم.

بل إنهم لـو رجعـوا للسـنة نفسـها، لوجـدوا الحـديث الـذي

يرويه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، والذي يقول فيه: قلت: يا رسول الله اكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم، قلت: في الرضا والغضب؟ قال: (نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقا) (1)

ولو أنهم سيدي رجعوا لتلك الأحاديث الكثيرة التي تخبر عن كشف الله لك لكل ما حولك كشفا واضحا، بحيث لا يستطيع أحد أن يتجرأ عليك.. لاكتفوا بها.. وردوا بها تلك الرواية الهزيلة التي تسيء إليك.

لو أنهم عادوا لما يروونه من أن رجلا جاءك، فقال: من أنت؟ فقلت:(أنا نبي)، فقال: وما نبي؟ قلت:(رسول الله)، فقال: متى تقوم الساعة؟ قلت:(غيب ولا يعلم الغيب الا الله)، فقلت: أرني سيفك، فأعطيته سيفك، فهزه، ثم رده عليك، فقلت له:(أما إنك لم تكن تستطيع ذلك الذي أردت)(2).. ثم قلت لأصحابك:(إن هذا أقبل، فقال: آتيه، فاسأله ثم آخذ السيف، فاقتله ثم أغمد السيف)(3)

وهكذا كنت تخبر أصحابك بما يحدثون به أنفسهم من التعرض لك، فعن شيبة بن عثمان قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن، بحنين فعسى أن اختلطوا أن أصيب غرة من محمد فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا أتبع محمدا ما أتبعه أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، فدنوت منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوره، فرفع

1() رواه الترمذي.

2() رواه الحاكم وصححه والطبراني.

3() رواه الطبراني.

لي شـواط من نـار كـالبرق كـاد يمحشـني فوضـعت يـدي على بصري خوفا عليه فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال:(ادن مــني)، فدنوت فمسح صدري، وقال:(اللهم أعذه من الشيطان) فو الله لهو حينئذ أحب الي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان بي، فقال:(يـا شـيبة، الـذي أراد اللـه بـك خـيرا ممـا أردت بنفسك؟) ثم حدثني بما اضمرت في نفسي! فقلت: بأبي أشهد أن لا اله الا الله، وأنك رسول الله، استغفر لي يـا رسـول اللـه، قال:(غفر الله لك)[1]

ومثـل ذلـك مـا يروونـه عن عمـير بن وهب أنـه جـاء يريـد قتلك، فسألته: ما جاء بك يـا عمـير؟ فقـال : جئت لهـذا الأسـير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه؛ فقلت له: فمـا بـال السـيف في عنقك؟ فقال : قبحها الله من سـيوف، وهـل أغنت عنـا شـيئا ؟ فقلت : اصدقني، ما الذي جئت له ؟ فقال : مـا جئت إلا لـذلك، فقلت لــه: (بــل قعــدت أنت وصــفوان بن أميــة في الحجــر، فـذكرتما أصـحاب القليب من قـريش، ثم قلت : لـولا دين علي وعيال عندي لخرجت حـتى أقتـل محمـدا، فتحمّـل لـك صـفوان بدَيْنك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلــك)؛ فاندهش عمير حينها، وقال: (أشهد أنك رسول اللـه، قـد كنـا يـا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، ومـا يـنزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنـا وصـفوان، فواللـه إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هـداني للإسـلام، وساقني هذا المساق، ثم شـهد شـهادة الحـق)، فقلت: (فقهـوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره)[2]

وهكذا حماك الله تعالى من حـوادث كثـيرة كـان يمكن أن

1() رواه ابن سعد وابن عساكر.

2() سيرة ابن هشام: 1/ 662.

تودي بك، ولكن الله تعالى أنبـأك عنهـا قبـل أن تقـع.. وهـذا مـا يهدم كل الأسس التي قام عليهـا ذلـك الحـديث الـذي يشـوهك أعظم تشويه..

عندما ذكرت لهم هذا، وقلت لهم: هل كان الله يخــبر نبيــه ﷺ عن كل تلك الحوادث، ويخبره مباشرة عما يكاد له، من غـير حاجـة إلى ملاك أو غـيره.. إلا في حـديث السـحر.. فهـل كـان للسحرة من الكيد والقدرة على التخفي مـا لم يسـتطع رسـول الله ﷺ أن يطلع عليه؟

لم يجـدوا مـا يجيبـون بـه إلا مـا تعـودوا أن يجيبـوا بـه من يخالفهم برميه بالبدعة والزندقة، وإنكار السنة، وكـأن كـل تلـك الأحاديث، لم تكن من السنة، ولا كل تلك المعاني القرآنية التي تتحدث عنك لم تكن من السنة.

هذا سيدي غيض من فيض من إساءتهم لك.. وأنا أبــرأ إلى اللــه من كـل حـديث يشـوهك، أو كـل راو يسـيء إليـك.. فلأن أضـحي بكـل دواوين الـدنيا أهـون علي من أن أضـحي بشـعرة منك.

فأتوسل بك ـ سيدي يا رسول الله ـ إلى ربي أن يحفظني، ويحفظ أخلاقي ونفسي وروحي وقلـبي وجسـدي.. حـتى أمتلئ بالطهارة والصفاء والنبل.. وحتى أكون صـالحا لاتباعـك، وتكـون أنت قدوتي وأسوتي.

وأسألك أن أكـون من الـذابين عنـك، المـدافعين عن القيم الـتي جئت بهـا، فـأعظم الجهـاد المنافحـة عنـك وعن أخلاقـك الطاهرة التي هي مراد الله من عباده.

خاتم النبيين

سيدي يا رسول الله.. يا من جعلك الله الخاتم الذي تنتهي به النبوة، والكمال الـذي تنتهي إليـه مسـيرة شـرائعها.. فجعـل دينـك مهيمنـا على الأديـان، وكتابـك مصـححا لمـا انحـرف من الكتب، وشـريعتك ناسـخة للشـرائع، وهـديك موضـحا للسـراط المستقيم الـذي تفـرقت بـه الأهـواء.. فمن اقتبس الـدين منـك اهتدى، ومن مال لغيرك ضل..

سيدي لقد دلت كل الدلائل القطعية على خاتميتك للنبـوة، ونصـت عليهـا كـل البشـارات الـتي بشـرت بهـا الأنبيـاء؛ فكلهـا اتفقت على أنــك الخــاتم، وأنــك الخلاصــة، وأن كــل من ادعى النبــوة بعــدك ضــل.. ولم يجــادل في ذلــك إلا أولئــك الــذين حسدوك، وتوهموا أن ختمك للنبوة يحـول بينهم وبين المناصـب الإلهية التي يمنون نفوسهم الأمارة بها.

ولو أنهم سيدي سلموا لله تعالى الخلق والاختيار.. لعلمــوا أن الله تعالى ابتلاهم بك، كما ابتلى من أمرهم بالسـجود لآدم.. أما الملائكة الطاهرون، أصـحاب المناصـب الرفيعـة، فسـلموا.. وأما الشيطان ذلك الذي لم يعرف أسرار الاختيار الإلهي؛ فـراح يجادل فيه.

وكذلك حصل لمن راح يجادل في ختمك للأنبياء، وخاتميتك للنبوة، فقد توهموا أنك سددت أبواب الكمال عنهم، ولم يعلموا أنك فتحتها لهم، وأنه ليس على من يريد أن يلج باب أي منصب إلهي، أو يــرقى ســلم أي كمــال إلا أن يتبعــك، ويســير على سراطك المستقيم، ويحتذي حذو سنتك الشريفة.

هم لم يعلموا ـ سيدي ـ أن البشـر بعـد أن جئتهم اسـتغنوا

بك عن أن يتنزل إليهم الأنبياء، مثلما يستغني المريض الذي يجد الطبيب الذي يعالج كل أدوائه، ويشفي كل أسقامه..

أو مثلما يكتفي التلميذ بالأستاذ الذي يشرح له كل دروسه، أو يوضح له كل ما يريده من حقائق، ويربيه على كل ما يصلح من قيم.

هم لم يعلموا ـ سيدي ـ أن لكل شيء نهاية ينتهي إليها.. وأن النبوة مثل سائر الأشياء.. قد انتهت بك إلى الكمال الذي لا كمال بعده.. ولذلك جعلك الله النهر الذي تجتمع عنده كل الروافد.. فمن شرب منه شرب منها جميعا، ومن سبح فيه سبح فيها جميعا.

ولو أنهم ـ سيدي ـ تأملوا قولك: (مثلي في النبيين كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لَبنة لم يَضَعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تمَّ موضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة)(1) لعلموا أن الله تعالى هو الذي تولى بناء دار النبوة، وهو أعلم بمواضع كل لبنة من لبناتها.. وكما أن الدار إذا اكتملت لا تحتاج إلى المزيد من اللبنات؛ فكذلك النبوة.

فالنبوة منصب إلهي دعت إليه حاجة الخلق إلى هداية التشريع.. فإذا بلغت هداية التشريع إلى أجمل صورها، وأكملها، وحفظت بكل أساليب الحفظ ووسائله.. لم يكن هناك حاجة إليها.. بل إن رحمة الله في عدم حاجتهم إليها.. لأن الأمر قد استقر حينها على الشريعة التي تصلح للخلق جميعا.

إن الأمر في ذلك ــ سيدي ــ يشبه ذلك المريض الذي يسعى للأطباء.. وهو يتمنى من كل قلبه أن يجد الطبيب الذي

______

1() رواه أحمد (21281)

يكفيه كل أدوائه، ويعالج كل ما نزل بـه.. وحين يجـده، سـيمتلئ فرحـا، وسـيكتفي بـه، لأنـه يعلم أنـه لن يحتـاج إلى التعب في البحث عن طبيب جديد، ولن يبتلى في طريق البحث بالـدجالين والكذابين والمدعين.

لقد كنت تـذكر ذلـك سـيدي كـل حين، وتربطـه بالـدجالين الـذين يـدّعون النبـوة، أو يـدّعون وظائفهـا؛ فيحسـبون أن لهم الحق في تحليل ما حـرمت، أو تحـريم مـا أحللت، أو تعـديل مـا شرعت.. من غير أن يسموا أنفسهم أنبياء.. وإن كانوا يزعمـون لأنفسهم نفس أفعال الأنبياء.

لقـد ذكـرت هـؤلاء، فقلت: (لا تقـوم السـاعة حـتى تلحـق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثـان، وإنـه سـيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خـاتم النبـيين، لا نبي بعدي)[1]

وروي عنـك في حـديث آخـر قولـك: (في أمـتي كـذابون و دجالون، سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، و إني خاتم النبـيين، لا نبي بعدي)[2]

صدقت ـ يا سيدي يا رسول الله ـ فقد رأينـا بأعيننـا أمثـال هؤلاء الدجالين الـذين يتوهمـون أنهم يسـتدركون على مـا جئت به.. بل رأينا من يسخر بمن يلتزم بما نص عليـه ظـاهر الكتـاب الذي أنزل عليك، والبيان الذي كلفت بتبليغـه.. ويعتقـد أن ذلـك الالـتزام نصـيب العـوام.. لا الخـواص.. وأن الكمـال في تلـك الفهوم الجديدة التي تُبدل بها الحقائق، ويُعبث فيها بالقيم.

ولو سلموا لك، وعلموا أنك الخاتم، وأن شـريعتك لا تنقض

1() رواه الترمذي 2219، وأبي داود 4252.

2() رواه أحمد 22849..

أبدا، وأن الزمان لا يزيد حقائقها إلا جلاء ووضوحا.. لهداهم الله إلى تلك الأسرار التي تنطوي عليها، والكمال الذي توصل إليه.

لقد غفلوا عن ذلك ـ سيدي ـ وراحوا يتوهمون أن أولئك الدجالين الذي ارتقوا تلك المناصب الرفيعة.. هم الأولى بالاتباع، وهم الأحق بالانتساب إليهم.

لقد رأيت بعضهم يخالف هديا من هديك.. فرحت أعرض عليه قولك، وأدعمه بما ورد في كتاب الله مما يدل عليه.. فراح يقول لي: لكن شيخي وأستاذي يرفض هذا، وأنا لا أسلم إلا بما يقوله شيخي وأستاذي.

هل رأيت سيدي كيف استبدلوك بغيرك.. وكيف وضعوا الحجب بينهم وبينك.. وكيف وضعوا لأنفسهم شريعة جديدة هي أبعد الشرائع عن شريعتك.

لقد رأيت بعضهم يفتي بحرق الكنائس وإيذاء أهلها.. فذكرت له سماحتك ولطفك مع المخالفين لك في الدين، وقرأت له قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]، وقوله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]

وذكرت له كيفية تعاملك مع وفد نجران.. وكيف أذنت لهم في الصلاة في مسجدك.. فغضب غضبا شديدا، وقال: (أأنت أعلم بالسنة من شيخي الذي كتب رسالة في هذا.).. ثم راح يسرد لي أقوال من يراهم علماء، وهم ليسوا سوى مناوئين للهدي الذي جئت به، والسماحة التي وصفت بها شريعتك.

لم يكن الأمر قاصرا على هؤلاء سيدي، وليتـه كـان قاصـرا عليهم.. بل إن الكثير استبدلوا النسبة لك بالنسـبة لمشـايخهم.. فصـرت لا تكـاد تُـذكر بينهم.. ولـو أنهم اكتفـوا بنسـبتهم لـك، وانتمـــاءهم لـــدينك، لتوحـــدت صـــفوفهم، واجتمعت كلمتهم.. وعلموا أنهم حتى لو اختلفـوا فـأنت تجمعهم.. ولـو تفـرقت بهم بعض السبل، فـأنت الملاذ الـذي يحتمـون بـه من أوزار الفرقـة والخلاف والشقاق.

ولم يكن الأمر قاصرا على هـؤلاء أيضـا سـيدي.. بـل ظهـر من يجادل في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَـدٍ مِنْ رِجَـالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَـانَ اللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمًـا ﴾ [الأحـزاب: 40]، ويؤولـه بمـا شـاء لـه هـواه.. ابتغـاء أن يلغي خاتميتك، حتى أن بعضهم راح يصـور لأتباعـه أنـك الخـاتم الـذي يوضع في الأصبع، أو الخاتم الذي توقع به التواقيـع.. لا مـا أراده اللـه من كونـك النـبي الـذي تنتهي بـه الأنبيـاء، فلا شـريعة بعـد شريعتك، ولا نبوة بعد نبوتك.

ولو أن هؤلاء رجعوا لتلك النصوص الكثيرة التي تـذكر هـذا المعنى، وتحـذر من كـل دعـوى ترتبـط بـه، لعـادوا إلى وعيهم، وساروا خلفك.. فالله ابتلاهم بك، بـل شـرفهم بـك.. لكنهم أبـوا التشريف.

لقد ورد في الحديث عنك أنك خرجت يومـا على أصـحابك كالمودع، وأنت تقول: (أنا محمد النبي الأمي ـ ثلاث مرات ــ ولا نبي بعدي؛ أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه)(1)

بل إنك قلت لتلميذك الأكـبر، الإمـام علي، بعـد أن أشـدت به، وبينت فضله ومكانته، وأنه السراط المستقيم الـذي لا يزيـغ ولا يزل عن هديك: (أما ترضـى يـا علي أن أكـون أخـاك؟.. أنت

______

1() رواه أحمد (11/ 180)

أخي في الـدنيا والآخـرة)(1).. ثم قلت لـه: (أنت مـني بمنزلـة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)(2)

فإن كانت هذه هي المرتبة الـتي وصـل إليهـا الإمـام علي، وهو أشرف هذه الأمـة، وأكرمهـا على اللـه.. وهـو الـذي تمثلت فيه كل القيم النبوية.. فكيف يدعي النبوة غيره، أو كيف يتـوهم أحد من الناس أنه يمكن أن يستدرك على النبوة، وهـو لم يبلـغ جزءا بسيطا من مرتبة ذلك التلميـذ الأكـبر للنبـوة، والـذي كـان يقـول لمن سـأله: (يـا أمـير المؤمـنين أفنـبي أنت؟)، فقـال لـه الإمام علي: (ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ)(3)

سيدي يا رسول الله.. يا وسيلة الله العظمى.. أتوسل بــك إلى اللـه أن يحفظـني من كـل أولئـك الـدجالين الـذين يريـدون إبعادي عنك.. أو الانضمام للواء غير لوائك.. أو الفرح بنسبة غير الانتساب إليك.

فاجعلني من شيعتك وأنصارك والمتبعين لسـنتك وهـديك.. حتى لا تضل بي الأهواء، ولا تختلف علي الطرق.

وأسألك سيدي، وأتوسل بك إلى اللـه أن أحفـظ وصـاياك، وأركب السـفينة النجـاة الـتي أمرتنـا بركوبهـا.. فمن لم يركبهـا غرق في طوفان الفتن، واستهواه أصحاب الرايـات، وابتعـد عن رايتــك، ومن لم يتشــرف بالــدخول تحت لوائــك لم يتشــرف الشرب من حوضك.. فنستعيذ بالله متوسلين بك من ذلك.. إنك أنت صاحب الوسيلة العظمى والمقام المحمود.

1() المستدرك للحاكم 3/ 14، سنن الترمذي (6/ 80)

2() ابن أبي شـيبة 12/60 و14/545، والبخـاري (4416)، ومسـلم (2404)ـ (31)، والبزار (1170)، والنسائي في الكبرى (8141)، والخصائص (56)

3() التوحيد: 174/ 3.

المخلّص الموعود

سيدي يا رسول الله.. أيها المخلّص الموعود الـذي بشـرت به الأنبياء، وحن له الأولياء، وتحركت قلـوب كـل الأجيـال شـوقا إليـه.. بـل تمنت الأنبيـاء أن تكـون من أمتـه، وتظفـر بصـحبته، وتلقى الله، وهي في ركابه.

فأنت الهدية الكبرى التي أعدها الله للبشرية، ووعدها بهـا، ليقضى بها على كل التحريفات والتغييرات التي حصلت للأديان، وتسربت إليها من لدن معسكر الشيطان.

سـيدي.. لـو أن كـل أصـحاب الأديـان، تخلـوا عن أنـانيتهم وحرصــهم على مصــالحهم، وراحــوا إلى كتبهم يســتنطقونها، ويسألونها عنك، لوجدوك أقرب إليهم من المسـلمين أنفسـهم.. فقد أقام الله الحجة عليهم من كتبهم.. فمن شاء أن يجدك فيها وجدها، ومن شاء أن يتبع هواه، ويغض الطرف عنـك فعـل، ولم يكن إلا ملومـا، لأنــه أعــرض عنــك، وأعــرض عن الحجج الــتي أقامها الله لك، وفي الكتب التي يقدسها.

وقد أخبر الله تعالى عن أولئـك الصـادقين الـذين أسـرعوا إليك بمجرد علمهم بك، بعد أن رأوا فيك كل مـا ورد في كتبهم، فقـال مثنيـا عليهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَــزَّرُوهُ وَنَصَــرُوهُ وَاتَّبَعُــوا النُّورَ الَّذِي أُنْــزِلَ مَعَــهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 157]

ومنهم عبد الله بن سلام ذلك الذي بمجرد أن رآك، وسـمع

حـــديثك، وقارنـــه بمـــا ورد في كتب اليهــود، علم أنــك النـــبي الموعود، وقد قال يحدث عن نفسه: (أول ما قدم رسـول اللـه ﷺ المدينة انجفل (أسرع) الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلمّا تـأملت وجهـه، واسـتثبته علمت أنّ وجهـه ليس بوجـه كـذاب!، وكان أول مـا سـمعت من كلامـه أن قـال: أيهـا النـاس! أفشـوا السّلام، وأطعموا الطعام، وصـلوا بالليـل والنـاس نيـام، تـدخلوا الجنة بسلام)

ولم يكتف بذلك، بـل راح يسـألك بـالعلم الـذي لا يجـده إلا في كتبهم؛ فلمــا رأى أنــك الموعــود الحقيقي، راح يشــهد لــك بــالنبوة، ويقــول لــك: (يــا رســولَ اللــهِ، إن اليهــود قــوم بُهْت، فاسألهم عنِّي قبل أن يعلموا بإسلامي)

فلما جاء اليهـود، وقلت لهم: أي رجـل عبـد اللـه بن سـلام فيكم؟!، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضـلنا وابن أفضـلنا.. فقلت لهم ـــ لتقيم الحجـــة عليهم بمن يعتبرونـــه حـــبرهم وعـــالمهم المفضل ـ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟!.. فقالوا: أعـاذه الله من ذلك.. وحينها خرج إليهم عبد الله وهو يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)، حينها تغير مـوقفهم منـه وقالوا: (شرُّنا وابن شرِّنا)، وتنقصوه، فقال عبد اللـه بن سـلام: (هذا ما كنتُ أخاف يا رسولَ الله)

ولم يكن عبد الله بن سلام هو الوحيد الـذي تواضـع للحـق الذي رآه وسـمعه وقـرأه في كتبـه الـتي يقدسـها، وإنمـا يوجـد أمثاله الكثـير من الـذين كـانوا أئمـة في أديـانهم، لكنهم عنـدما رأوك في كتبهم راحوا يخلعون ثوب العناد، ويتبعونك.

لقد أنـزل اللـه تعـالى في عبـد اللـه بن سـلام وغـيره من الــذين تركــوا العنــاد، واتبعــوك قولــه: ﴿لَيْسُــوا سَــوَاءً مِنْ أَهْــلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُـونَ آيَـاتِ اللَّهِ آنَـاءَ اللَّيْـلِ وَهُمْ يَسْـجُدُونَ (

113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 113 - 115]

بل إنه أثنى على كل من فعل ذلك، وفي كل الأجيال ثناء عظيما، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 82، 83]

أما المعاندون، الذين رددوا ما ردد المشركون حين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]، والذين رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]، فقد أبوا التسليم لك، لا لكون الصفات الواردة في كتبهم لا تنطبق عليك، وإنما لكونهم كانوا يرغبون أن تكون من قوم غير القوم الذين ظهرت فيهم..

لقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء المعاندين، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 89 - 91]

وقد ذكر المؤرخـون الكثـير من الروايـات الـتي تـبين سـر قدوم اليهـود لبلاد العـرب، وخصوصـا للمدينـة المنـورة، لعلمهم أنها البلاد التي ستهاجر إليها، ولذلك أسرعوا إليها، ليستأثروا بك من دون النـاس.. لكنهم ــ لحسـدهم وبغيهم وكـبرهم ــ راحـوا يحاربونك، مثلما حارب إبليس آدم حسدا وكبرا.

لقد حدث بعضهم قال: (قـدم علينـا رجـل من الشـام، من يهود يقال له ابن الهيبان فأقام عندنا، واللّه ما رأينا رجلا قــط لا يصـلي الخمس خـيرا منـه، فقـدم علينـا قبـل مبعث النـبي ﷺ بسنين، فكنا إذا قحطنا وقل علينا المطر نقـول: يـا ابن الهيبـان اخرج فاستق لنا. فيقول: لا واللّه حـتى تقـدموا أمـام مخـرجكم صدقة. فنقول: كم؟ فيقول: صاع من تمـر أو مـدين من شـعير. فنخرجه ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه فيسـتقي فـو اللّه ما يقوم من مجلسه حتى تمر السحاب. قد فعل ذلك غـير مـرة ولا مـرتين ولا ثلاثـة. فحضـرته الوفـاة فاجتمعنـا إليـه فقـال: يـا معشر يهـود مـا ترونـه أخرجـني من أرض الخمـر والخمـير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم. قال: فإنه إنمـا أقـدمني هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه هذه البلاد مهـاجرة فأتبعه فلا تسبقن إليه إذا خرج يا معشـر يهـود.. ثم مـات. فلمـا كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة قال أولئك الفتيـة ــ وكـانوا شـبابا أحـداثا ــ يـا معشـر يهـود واللّه إنـه الـذي ذكـر لكم ابن الهيبان. فقالوا: ما هو به. قالوا: بلى واللّه إنها لصفته. ثم نزلـوا فأسـلموا وخلـوا أمـوالهم وأولادهم وأهـاليهم في حصـن مـع المشركين، فلما فتح رد ذلك عليهم)(1)

1() رواه البيهقي، انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 192)

وحـدث آخـر قـال: حضـرت سـوق بصـرى فـإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم هـل فيهم أحـد من أهـل الحرم؟ فقلت: نعم أنا. قال: هل ظهر أحمد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخـرج فيـه وهو آخر الأنبياء مخرجـه من الحـرم ومهـاجرة إلى نخـل وحـرّة وسباخ، فإياك أن تسبق إليه. قال الـراوي: فوقـع في قلـبي مـا قـال. فقـدمت مكـة فقلت: هـل كـان من حـدث؟ قـالوا: (نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ)(1)

وحدث ثـالث، فقـال: واللَّه لقـد علمت أن محمـدا رسـول اللَّه ﷺ قبل أن يبعث، فقيل لـه: وكيـف ذاك؟ قـال: فزعنـا إلى كاهن لنا في أمر نزل بنـا، فقـال الكـاهن: أقسـم بالسـماء ذات الأبراج والأرض ذات الأدراج والريح ذات العجاج إن هـذا لإمـراج ولقاح ذي نتاج. قالوا: وما نتاجه؟ قال: ظهور نبي صادق بكتـاب ناطق وحسام ذالق، قالوا: أين يظهر وإلام يـدعو؟ قـال: يظهـر بصــلاح ويــدعو إلى فلاح ويعطــل الأقــداح، وينهى عن الــراج والسـفاح وعن كـل أمـر قبـاح، قـالوا: ممن هـو؟ قـال من ولـد الشـيخ الأكـرم حـافر زمـزم ومطعم الطـير المحـرّم والسـباع الضرم. قالوا: وما اسمه؟ قال: محمد، وعـزه سـرمد، وخصـمه مكمد(2).

وقـال رابـع: (إن ممـا دعانـا إلى الإسـلام، مـع رحمـة اللـه تعالى وهداه لنا، لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهـل شـرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهـون، قـالوا لنا: إنه قد تقـارب زمـان نـبي يبعث الآن نقتلكم معـه قتـل عـاد

1() رواه ابن سعد والبيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 193)

2() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 192)

وإرم فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه، حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89])(1)

وقال خامس: (كان لنا جار من اليهود بالمدينة فخرج علينا قبل البعثة بزمان فذكر الحشر والجنة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال خروج نبي يبعث من هذه البلاد ــ وأشار إلى مكة ـ فقالوا متى يقع ذلك؟ قال فرمى بطرفه إلى السماء وأنا أصغر القوم، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله تعالى نبيه، وهو حي ـ أي اليهودي ـ فآمنَّا به وكفر هو بغياً وحسداً)(2)

وقال سادس: (كنا ويهود فينا كانوا يذكرون نبيا يبعث بمكة اسمه أحمد، ولم يبق من الأنبياء غيره، وهو في كتبنا، وما أخذ علينا منه، وصفته كذا وكذا، حتى يأتوا على نعته قال: وأنا غلام وما أرى أحفظ، وما أسمع أعي، إذ سمعت صياحا من ناحية بني عبد الأشهل، فأرى قوما فزعوا وخافوا أن يكون أمر حدث، ثم خفي الصوت، ثم عاد، فصاح، ففهمنا صياحه: يا أهل يثرب، هذا كوكب أحمد الذي ولد به. قال: فجعلنا نعجب من ذلك، ثم أقمنا دهرا طويلا، ونسينا ذلك، فهلك قوم، وحدث آخرون، وصرت رجلا كبيرا، فإذا مثل ذلك الصياح: يا أهل يثرب، قد خرج أحمد وتنبأ، وجاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام، فلم ألبث أن سمعت أن بمكة رجلا خرج يدعي

1() سيرة ابن هشام ت السقا (1/ 211)

2() ه البخاري في "التاريخ الكبير" 4/68-69، والطبراني في "الكبير" (6327)، والحاكم 3/417-418، وأبو نعيم في "الدلائل" (34).

النبوة، وخرج من خرج من قومنا، وتأخر من تأخر، وأسلم فتيان منا أحداث، ولم يقض لي أن أسلم، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة)(1)

وقال سابع: (جئت بني عبد الأشهل يوما، لأتحدث فيهم، ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي، يقال له أحمد يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزئ به: ما صفته؟ قال: رجل ليس بقصير، ولا بالطويل، في عينيه حمرة، يلبس الشملة، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره. قال: فخرجت إلى قومي بني خدرة، وأنا يومئذ أتعجب مما قال، فأسمع رجلا يقول: ويوشع يقول هذا وحده، كل يهود يثرب تقول هذا؟ قال أبي مالك بن سنان: فخرجت حتى جئت بني قريظة، فأجد جمعا، فتذاكروا النبي ﷺ، فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا بخروج نبي وظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذه مهاجره قال أبو سعيد: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخبره أبي هذا الخبر، فقال رسول الله ﷺ: (لو أسلم الزبير وذووه من رؤسائهم كلهم له تبع)(2)

وهكذا ورد في الأخبار الكثيرة المتواترة ما يدل على سبب تركهم لبلاد الشام ذات الجو الطيب، والغنى الوافر، وهجرتهم إلى تلك الصحارى القاحلة.. وكل ذلك طلبا لك، لعلمهم بأنها البلاد التي ستظهر فيها.

لقد رحت ـ سيدي ـ أطالع الكتب المقدسة التي تتبناها الأديان جميعا.. فوجدت البشارة بك واضحة ظاهرة لا ينكرها إلا الجاحدون.. وكان من أكبر أدلة انطباقها عليك أن الذين استخرجوها، وفسروها، وبينوا انطباقها عليك رجال من أهل تلك

1() دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ص: 77)

2() دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ص: 79)

الأديان(1).

وعندما طرحت عني كل جلابيب التقليد، وقيوده، ورحت أقرؤها بعقل المحقق المدقق، وجدت الأمر كما ذكروا، فهي تذكرك، بل تسميك في بعض المواضع باسمك الذي يعرفك به الناس.. لكن الجاحدين راحوا يحتالون على ذلك بأصناف الحيل حتى يصرفوا تلك البشارات عنك.

لقد وجدت في التوراة التي يتبناها اليهود والنصارى جميعا، وفي سفر التكوين وصية يعقوب عليه السلام لبنيه قبل وفاته.. عندما طبقتها بحروفها وكلماتها على من يمكن أن تصدق عليه، لم أجد غيرك سيدي، لقد ورد في سفر التكوين (49/10): (ثم دعا يعقوب بنيه، وقال اجتمعوا أبارك فيكم، وأخبركم بما ينالكم في آخر هذه الأيام، اجتمعوا واسمعوا ذلك يا بني يعقوب، واقبلوا من إسرائيل أبيكم.. لا يزول القضيب من يهوذا، والرسم من تحت أمره، إلى أن يجئ شيلوه، وإليه تجتمع الشعوب)(2)

إن هذه النبوة ــ سيدي ــ لا يمكن أن تنطبق على أحد غيرك.. فالتعابير المجازية الواردة فيها تدل على أنك تجمع بين الحكم والنبوة، وأنك صاحب الصولجان والشريعة، وأنك تملك حق التشريع والتنفيذ، وتخضع لك الشعوب.. وهذا لم يتحقق في التاريخ لنبي، أو مدعي نبوة غيرك.

فلا يمكن أن تنطبق هذه البشارة على موسى عليه السلام، لأنه أول منظم لأسباط بني إسرائيل، ولا في حق داود عليه السلام، لأنه أول ملك فيهم.

1() هم كثيرون جدا، أشرت إليهم في كتابي [قلوب مع محمد ﷺ] ومنهم علي بن ربن الطبري، وهو مسيحي هدته دراسة الموضوعية الصادقة للكتاب المقدس إلى الإسلام، وقد ذكرت بعض ما ذكره من بشارات في كتابي [أنبياء يبشرون بمحمد ﷺ]

2() شرحنا هذه النبوة وغيرها بتفصيل في كتاب [أنبياء يبشرو بمحمد ﷺ]

وهكذا وجدت بشارة موسى عليه السلام بك، فقد ورد في التوراة أنه عندما نزل من جبل الطـور بعـد مـا كلمـه ربـه قـال مخاطباً بني إسرائيل:(قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعـل كلامي في فمـه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكـون أن الإنسـان الـذي لا يسـمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه، وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي. وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسـم الـرب ولم يحدث ولم يصِر، فهو الكلام الـذي لم يتكلم بـه الـرب، بـل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف منه) (التثنية 18 / 17 - 22)

وهـذه البشـارة لا يمكن أن تنطبـق على غـيرك، ولـذلك ذكرها كل المهتدين إليك من الذين خرجوا من التقليـد، وقـرؤوا كتبهم بعين الإنصاف.

وكيـف لا يفعلـون ذلـك واليهـود مجمعـون على أن جميـع الأنبياء الذين كـانوا في بـني إسـرائيل من بعـد موسـى لم يكن فيهم مثله.. فلا أحد من أنبيـاء بـني إسـرائيل أتى بشـرع خـاص تتبعه عليـه الأمم من بعـده.. فهـذه الصـفة لا تنطبـق إلا عليـك، لأنـك من إخـوتهم العـرب، وقـد جئت بشـريعة ناسـخة لجميـع الشرائع السابقة، وتبعتك الأمم عليها، فـأنت في هـذه النـواحي تشبه موسى عليه السلام.

بالإضافة إلى هذا، فـإن تلـك البشـارة تنص على أن النـبي الـذي يقيمـه اللـه لبـني إسـرائيل ليس من نسـلهم، ولكنـه من إخوتهم، وكل نبي بعث من بعـد موسـى عليـه السـلام كـان من بني إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السلام، فلم يبق رسـول من إخوتهم سواك.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن الكتـاب المقـدس ينص على أن إسماعيل وذريته كانوا يسمون إخوة لبني إبراهيم عليه السـلام، لأن الله قال في التوراة لهاجر ــ حسب رواية العهد القديم .عن ابنها إسماعيل: (بأنه قبالة إخوتـه ينصـب المضـارب) كمـا دعى إسحاق وذريته إخوة لإسماعيل وذريته.

وهكذا يصيح كـل حـرف وكلمـة في تلـك البشـارة بالدلالـة عليـك.. لكن لا يمكن أن يـرى ذلـك غـير الصـادقين المخلصـين الباحثين عن الحقيقة المتجردين لها.

وهكذا وجدت نـبي اللـه إشـعيا يبشـر بـك، بـل يـؤرخ لـك؛ فسفره مملوء بالحديث عنك، ومن قـرأه بعين التجـرد رآك في كل حرف من حروفه..

لقد قال في بعض بشـاراته عنـك: (قـال لي السـيد: اذهب أقم الحارس، ليخبر بما يرى، فرأى ركاباً أزواج فرسـان، ركـاب حمير، ركاب جمال، فأصغى إصغاء شديداً، ثم صرخ كأسد: أيهـا السيد أنا قائم على المرصد دائمـاً في النهـار، وأنـا واقـف على المحـرس كـل الليـالي، وهـوذا ركـاب من الرجـال، أزواج من الفرسان. فأجاب وقال: سقطت، سقطت بابـل وجميـع تماثيـل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض.. يا دياستي وبني بيدري، مـا سمعته من رب الجنود إله إسرائيل أخبرتكم به، وحي من جهـة دومة. صرخ إلي صارخ من سعير: يـا حـارس مـا من الليـل، يـا حارس ما من الليل. قـال الحـارس: أتى صـباح وأيضـا ليـل، إن كنتم تطلبـون فـاطلبوا. ارجعـوا تعـالوا، وحي من جهـة العـرب: ستبيتين في صحاري بلاد العرب يا قوافل الددانيين، فاحملوا يـا أهل تيماء الماء للعطشان، واستقبلوا الهاربين بالخبز، لأنهم قـد فـروا من السـيف المسـلول، والقـوس المتـوتر، ومن وطيس المعركة. لأنه هذا ما قالـه لي الـرب: في غضـون سـنة مماثلـة

لسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وتكون بقية الرماة الأبطال من أبناء قيدار، قلة. لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم) (إشعيا 21/ 6 – 17)

إن كل حرف من هذه النبوءة يشير إليك، ويدل عليك، ولا يمكن فهمه ولا فهم مصاديقه إلا بتطبيقها عليك[1].

أما المسيح عليه السلام، فقد امتلأت الأناجيل التي وصلتنا بالحديث عنك، وكلها تبشر بك، ليتحقق فيها مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6]

لقد ورد في إنجيل يوحنا قول المسيح موصياً تلاميذه بك: (إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً.. الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم.. قلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون، لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيّ شيء) (يوحنا 14/15 – 30)

1() هناك تفاصيل كثيرة مرتبطة بهذه النبوة، أعرضنا عن ذكرها هنا لطولها، يمكن العودة إليها في كتابي: أنبياء يبشرون بمحمد ﷺ (ص: 159)،فما بعدها.

وفي إنجيل متى ولوقـا، نقـرأ المسـيح عليـه السـلام وهـو يصفك بدقة لحوارييـه، لقـد قـال لهم: (اسـمعوا مثلاً آخـر، كـان إنســان رب بيت، غــرس كرمــاً، وأحاطــه بســياج، وحفــر فيــه معصرة وبنى برجـاً، وسـلمه إلى كـرامين وسـافر.. ولمـا قـرب وقت الإثمار أرسـل عبيـده إلى الكـرامين ليأخـذ أثمـاره، فأخـذ الكرامون عبيده، وجلدوا بعضاً وقتلـوا بعضـاً ورجمـوا بعضـاً، ثم أرسـل إليهم أيضـاً عبيـداً آخـرين أكـثر من الأولين، ففعلـوا بهم كـذلك.. فـأخيراً أرسـل إليهم ابنــه قــائلاً: يهـابون ابــني، وأمــا الكرامـون فلمـا رأوا الابن قـالوا فيمـا بينهم: هـذا هـو الـوارث، هلمـوا نقتلـه ونأخـذ ميراثـه، فأخـذوه وأخرجـوه خـارج الكـرم، وقتلوه.. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئـك الكـرامين؟ قالوا له: أولئك الأرديـاء يهلكهم هلاكـاً رديـاً، ويسـلم الكـرم إلى كرامين آخرين يعطون الأثمار في أوقاتها.. قال لهم يسوع: أمــا قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هو قــد صــار رأس الزاوية، من قبل الرب كـان هـذا، وهـو عجيب في أعيننـا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمــل أثماره، ومن سقط على هذا الحجـر يترضـض، ومن سـقط هـو عليه يسـحقه.. ولمـا سـمع رؤسـاء الكهنـة والفريسـيون أمثالـه عرفوا أنه تكلم عليهم)(متى 21/33 - 45)، (لوقا 20/9 - 19)

وفي إنجيــل مــتى قــال المسـيح متحـدثا عن تـأخر زمـان ظهورك عن النبوات السـابقة، وأن ذلـك لن يمنـع عظيم الأجـر والثواب لأمتـك: (فـإن ملكـوت السـماوات يشـبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فَعَلـة لكرمـه، فـاتفق مـع الفعلـة على دينــار في اليــوم وأرسـلهم إلى كرمـه، ثم خـرج نحـو السـاعة الثالثة، ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين، فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فـأعطيكم مـا يحـق لكم، فمضـوا.. وخـرج أيضـاً نحـو السـاعة السادسـة والتاسـعة وفعـل ذلـك.. ثم نحـو

الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطالين، فقال لهم: لماذا وقفتم ههنا، كلَّ النهار بطالين؟ قالوا له: لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم.. فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله: ادع الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين.. فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً، فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر، فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً، وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين: هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر.. فأجاب وقال لواحد منهم: يا صاحب ما ظلمتك، أما اتفقت معي على دينار؟ فخذ الذي لك واذهب، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأني أنا صالح! هكذا يكون الآخرون أولين، والأولون آخرين، لأن كثيرين يُدعَون، وقليلون ينتخبون) (متى 20/1 - 16)

إن المسيح عليه السلام ــ من خلال هذا المثال ــ يهيء النفوس لتقبلك، وأنك مع كونك خاتم الرسل إلا أن الله برحمته وهب لك ولأمتك من الفضل ما لم ينله غيركم.. فالآخرون هم الأولون السابقون كما قال المسيح.

لقد أشرت إلى هذا ــ سيدي رسول الله ــ فقلت: (نحن الآخرون السابقون)[1]، وضربت عليه مثالا لا يختلف كثيرا عن مثال المسيح، فقلت مخاطبا أمك ـ مبشرا بما أعد الله لها من الأجر العظيم إن هي صدقت في اتباعك ــ: (مثلكم ومثل أهل

1() هذا هو نص الحديث:« إن الله أدرك بي في الأجل المرجو واختارني اختيارا فنحن الاخرون ونحن السابقون يوم القيامة، وإني قائل قولا غير فخر: ابراهيم خليل الله وموسى صفي الله وأنا حبيب الله، ومعي لواء الحمد يوم القيامة، وإن الله وعدني في أمتي وأجارهم من ثلاث: لا يفنيهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة » رواه الدارمي، وابن عساكر عن عمرو بن قيس.

الكتابين كمثل رجل استأجر أجـراء فقـال: من يعمـل لي غـدوة إلى نصـف النهـار على قـيراط؟ فعملت اليهـود، ثم قـال: من يعمـل لي من نصـف النهـار إلى صـلاة العصـر على قـيراط، فعملت النصارى، ثم قال من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فـأنتم هم. فغضـبت اليهـود والنصـارى فقالوا: مالنـا أكـثر عملاً وأقـل عطـاءً؟ قـال: هـل نقصـتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء)[1]

وغيرهـا من البشـارات الكثـيرة الـتي لا تنطبـق إلا عليـك، ومن أكبر دلائـل ذلـك تسـليم الأحبـار والرهبـان الصـادقين لهـا، واتباعهم لك.

بل إنني ـ سـيدي ــ عنـدما تـركت كتب اليهـود والنصـارى، ورحت أقرأ غيرها من الأسفار المقدسة لأهل الأديان المختلفـة، وجدتك فيها، ليقيم الله الحجة عليهم بك، وفي مصـادرهم الـتي يعتمدونها.

لقد قرأت سيدي في كتـاب (أدروافيـدم أدهروويـدم) وهـو كتـاب مقـدس عنـد الهنـدوس.. وفي [الجـزء العشـرين منـه، الفصل 127، الفقرة 1-3] هذه البشارة: (أيها النـاس اسـمعوا وعوا يبعث المحمد بين أظهر الناس.. وعظمته تحمـد حـتى في الجنة ويجعلها خاضعة له وهو المحامد)

وقرأت في (بفوشيا برانم) بهوشـى بـرانم.. [في الجـزء3، الفصل3، العبارة 5 وما بعـدها] هـذه البشـارة:(في ذلـك الحين يبعث أجنبي مع أصـحابه باسـم محامـد الملقب بأسـتاذ العـالم، والملك يطهره بالخمس المطهرات).. فهذا نص صـريح لا يمكن انطباقه إلا عليك، وفي قولـه (الخمس المطهـرات) إشـارة إلى

1() رواه مالك والبخاري والترمذي.

الصلوات الخمس التي يتطهر بها المسلم من ذنوبه كل يوم(1).

وقرأت في كتاب (بفوشيا برانم)، وصـف لأصـحابك.. حيث ذكر أنهم (الذين يختتنون، ولا يربون القزع، ويربون اللحى، وهم مجاهدون، وينادون الناس للـدعاء بصـوت عـال، ويـأكلون أكـثر الحيوانـات إلا الخـنزير، ولا يسـتعملون الـدرباء(2) للتطهـير، بـل الشـهداء هم المتطهـرون، ويسـمون بمسـلي(3) بسـبب أنهم يقاتلون من يلبس الحق بالباطـل، ودينهم هـذا يخـرج منـا، وأنـا الخالق)

وقـرأت في بعض كتب الزرادشـتيين: (إن أمـة زرادشـت حين ينبـذون دينهم يتضعضـعون، وينهض رجـل في بلاد العـرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون هم أتباع النبي رحمة للعالمين، وسادة لفـارس ومـديان وطـوس وبلخ(4)..وإن نـبيهم ليكـونن فصـيحاً يتحدث بالمعجزات)(5)

هذا بعض ما حفظ لنا من بشارات، وهي كثيرة جدا.. فكـل الأنبياء والأولياء والأصفياء، كانوا يشيرون إليك، ويتحدثون عنـك، ويبشرون بك..

فـوا بشـرانا بـأن حظينـا بـأن نكـون من أمتـك، ونحظى

1() انظر:كتاب التيارات الخفية في الديانات الهندية القديمة لمؤلفه: تى محمد.

2() الدرباء نبات يخرج به الهنود الدم من جسم الإنسان ويعدون هذا العمل تطهيراً من الخطايا.

3() أي يسمون بالمسلمين، دخل عليها شئ من التحريف.

4() وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم.

5() محمد في الأسفار العالمية: 47.

باتباعـك.. فأسـألك يـا سـيدي يـا رسـول اللـه.. يـا وسـيلة اللـه العظمى.. أن تجعلـني من الصـادقين في اتبـاعهم لـك، حـتى لا أكون كأولئك الجاحدين الذين عرفوك، واستيقنوا بنبوتــك، ولكن كبرهم حال بينهم وبينك.

وأسألك ـ سيدي ـ وأتوسـل بـك إلى اللـه، أن يرزقـني من التواضع والتسليم ما يجعلني بين يديك كالريشة في مهب الريح يحركها حيث يشاء، أو كالميت بين يدي الغسـال، لا يملـك شـيئا من أمره.. حتى أتحقق بما ذكره الله تعالى، فقـال: ﴿وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَـلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36]

المؤيد بالمعجزات

سـيدي يـا رسـول اللـه.. يـا من أيـده اللـه بـالمعجزات البـاهرات، والخـوارق الواضـحات، والآيـات البينـات، حـتى يثبت لكل العقول، وكل الأجيال أنك النبي الذي جعل الله في الإيمان بـه واتباعـه خلاص البشـرية، وسـعادتها، وصـلاحها، في الـدنيا والآخرة.

لقــد رحت ســيدي إلى دواوين الــوراقين أبحث في كــل الأديان، عن معجزات تشبه المعجزات التي جئت بهـا، والـدلائل التي دل الله بها عليك؛ فلم أجد عشر معشار ما أتيت به..

وليس ذلـك عجيبـا.. فقـد كـان الأنبيـاء يبعثـون إلى أقـوام محدودين، وأزمنة محـدودة، أمـا أنت فقـد جئت للبشـر جميعـا، باختلاف طباعهم وعقولهم ومشاربهم.. ولكل الأزمنة متقــدمها، ومتأخرها.. ولذلك كنت بحاجـة إلى كـل أصـناف البينـات، حـتى يقيم الله الحجة بك على خلقه.. فقد جرت سـنة اللـه ألا يـترك رسـله من غـير آيـات تـدل عليهم، حـتى لا يـزاحمهم في ذلـك الكذابون والمدعون والدجالون.

لقد أشرت سيدي إلى عظمة ما آتاك الله من آيات بينات، مقارنة بالرسل عليهم الصلاة والسـلام، فقلت: (مـا من الأنبيـاء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليـه البشـر، وإنمـا كـان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكـون أكـثرهم تابعـا يوم القيامة)(1)

فرجاؤك سيدي لأن يكـون أتباعـك أكـثر من سـائر الأنبيـاء عليهم السـلام يـدل على امتـداد حجتـك لأكـثر البشـر والعقـول

1() رواه البخاري ومسلم.

والأزمنة..

يؤسفني ـ سيدي ـ أن أذكر لك بأن بعض قومي راحوا يقرؤون حديثك هذا على خلاف ما قصدته؛ فقد توهموا أن القرآن الكريم هو معجزتك الوحيدة، وأن كل المعجزات التي جرت للأنبياء من قبلك، والتي خرقت لهم بها ما يعرفه الناس من قوانين لم تتحقق لك.

وقد وهموا في ذلك؛ فأنت لم ترد الحديث عن تلك المعجزات الحسية التي لم يشاهدها إلا قومك.. وإنما أردت المعجزة الممتدة التي يراها كل الأجيال.. وهي المعجزة الوحيدة الباقية على الأرض.. ذلك أن كل معجزات الأنبياء ذهبت بذهابهم، ولم يشاهدهم إلا قومهم، أو الذين طالبوا بها.. أما من عداهم؛ فصار إيمانهم بها تقليدا لا رؤية، أو نتيجة تلك الأخبار المتواترة عنهم، لا عن حقيقة عاينوها بأنفسهم.

لذلك كان حديثك عن معجزتك الخالدة الدائمة لكل العصور، وليس عن سائر المعجزات والكرامات والخوارق التي هيأها الله لك كما هيأها لغيرك من الأنبياء، وما ذلك على الله ببعيد..

ولم يكتفوا بذلك ـ سيدي ـ بل راحوا إلى بعض آيات القرآن الكريم يفهمونها على غير المراد منها، ليضربوا بها مئات الأحاديث التي تنقل معجزاتك الحسية..

لقد راحوا يستدلون بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57]، وراحوا يفهمون من قول الله تعالى:﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ [الأنعام: 57] أن مرادك منها نفي ما طلبوه من معجزات أو خوارق.. والأمر

ليس كـذلك؛ فهـذه الآيـة تنص على تلـك الطلبـات السـاخرة الكثـيرة الـتي كـان المشـركون يطالبونـك بهـا بـأن يعجـل اللـه عقوبته لهم، لكي يكون ذلك دليلا على نبوتك.

وقد أشار إلى هذا المعـنى آيـات كثـيرة، كقولـه تعـالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَـى أَنْ يَكُـونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْـتَعْجِلُونَ ﴾ [النمـل: 71،ـ 72]، وقوله: ﴿قُتِـلَ الْخَرَّاصُـونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْـرَةٍ سَـاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَـوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُـونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: 10 ـ 14]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تذكر طلب المشـركين منك تعجيل العذاب.

ولهذا عقب الله تعالى تلك الآية الكريمة بقولـه: ﴿ قُـلْ لَـوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْـرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 58] أي: لو كان مرجع مـا تسـتعجلون بـه إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك.

وقد أشار إلى هذا المعنى آيات أخرى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْـدِكَ فَـأَمْطِرْ عَلَيْنَـا حِجَـارَةً مِنَ السَّـمَاءِ أَوِ ائْتِنَـا بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَـا كَـانَ اللَّهُ مُعَـذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: 32، 33]

ولذلك كان من رحمة اللـه تعـالى عـدم اسـتجابة اللـه لهم بتعجيل عـذابهم، وإلا انتفى مقصـود رسـالتك، وانتهت وظيفتهـا عند هذا المطلب الذي طلبوه..

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى أنه أتيح لك تحقيـق هـذا الطلب لكنـك ــ سـيدي ــ رفضـت أن تنفـذه رحمـة بهم، ففي

الحديث الذي ذكرت فيه ما لقيته من أهل الطـائف قلت: (فـإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتْني، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليـه السـلام، فناداني، فقـال: إن اللـه قـد سـمع قـول قومـك لـك، ومـا ردوا عليـك، وقـد بعث إليـك مَلَـك الجبـال لتـأمره بمـا شـئت فيهم، فناداني مَلَك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن اللـه قـد سمع قول قومك لك، وقد بعثـني ربـك إليـك، لتـأمرني بـأمرك، فما شـئت؟ إن شـئت أطبقت عليهم الأخشـبين(1)، فقلت: (بـل أرجو أن يخـرج اللـه من أصـلابهم من يعبـد اللـه، لا يشـرك بـه شيئا)(2)

إن الـذي يشـاغبون في ذلـك ــ سـيدي ــ يشـبهون ذلـك المريض الذي يطلب من طبيبه أن يدس له السم، ويقتله، حتى يريحه من العـذاب.. لكن الطـبيب الـرحيم لا يسـتجيب لـه، بـل يتعامل معه بلطف إلى أن يقدر الله له الشفاء..

وكذلك فعلت سيدي.. فقد كـان رفضـك لمـا طلبـوه منـك رحمة بهم، وحرصا عليهم، لا عجزا، فالله فوض لك أن تنفـذ مـا طلبوه منك، وأنت ـ برحمتك ورأفتك ـ رفضـت.. وقـد علم اللـه منك ذلك.. ولذلك كنت أهلا لأن تكون رحمته للعالمين.

وهكذا راحوا إلى قوله تعالى: وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ [الأنعـام: 109] يفهمـون منهـا أنـه لم تظهـر على يـديك أي معجـزات حسـية، وقـد وهمـوا في ذلـك؛ فالآية الكريمة لا تنفي ذلك، وإنما تنفي استجابتك لمـا اقـترحوه من الآيات والمعجزات، ذلك أن من سنة اللـه تعـالى في أقـوام الأنبياء أنهم إذا أنكروا المعجزات التي اقترحوها يعذبون بسـبب

---

(1) وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا.

(2) رواه البخاري ومسلم.

ذلك.

وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن قريشا كلموك، فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كان لهم ناقة فآتنا من الآيات حتى نصدقك، فقلت لهم: (أي شيء تحبون أن آتيكم به)، قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبا، فقلت لهم: (فإن فعلت تصدقوني؟)، قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقمت لتدعو الله بما طلبوه، فجاءك جبريل فقال لك: (ما شئت إن شئت أصبح الصفا ذهبا، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم)، فقلت حينها: (بل أتركهم حتى يتوب تائبهم)(1)

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59]

وقد حصل هذا لغيرك من الأنبياء ــ سيدي ــ فكلهم لم يستجيبوا لكل ما طلبه قومهم من الآيات حرصا عليهم، وقد ورد في الإنجيل: (فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه. فتنهد بروحه وقال لماذا يطلب هذا الجيل آية. الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية) (مرقس:8/11-12)

وهكذا راحوا إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا

1() سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي (ص: 274)

زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) ﴾ [الإسراء: 90 - 94]

وهي ـ سيدي ـ لا تعني ما فهموه من عدم إتيانك بالآيات مطلقا، وإنما تعني رفض هذه الاقتراحات التي قدموها، لأنها لا تتناسب مع الرسالة، ولا مع مقتضياتها، وهي تدل على أنهم ساخرون في طلباتهم، وإلا فإنه يكفيهم للإيمان مطالب يتحقق بها التأكد من النبوة من غير حاجة لكل هذا.

وقد ذكر المؤرخون والمحدثون الأمثلة على ذلك، ومنها ما روي عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله ﷺ؟ قال: (أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله ﷺ، قال: نعم، فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط على الأرض، فأقبل إليه، وهو يسجد ويرفع ويسجد ويرفع حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ثم قال له: (ارجع)، فرجع إلى مكانه، فقال: والله لا أكذبك بشيء تقوله بعد أبدا أشهد أنك رسول الله، وآمن[1].

ومنها ما روي عن ابن عمر قال: كنا في سفر، فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: (أين تريد؟)، قال: إلى أهلي، قال: (هل لك في خير؟)، قال: وما هو؟ قال: (تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله)، قال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ قال: (هذه الشجرة)، فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخد الأرض خدا فقامت بين يدي رسول الله ﷺ فاستشهدها ثلاثا، فشهدت

1() رواه البخاري في التاريخ والترمذي وصححه وأبو يعلى وابن حبان.

أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجـع الأعـرابي إلى قومـه، وقال لرسـول اللـه ﷺ: إن يتبعـوني آتـك بهم، وإلا رجعت إليـك فكنت معك(1).

ومنها ما روي عن بريدة قال: جاء أعرابي إلى رسول اللـه ﷺ فقال: يا رسول الله قد أسلمت فأرني شـيئا أزداد بـه يقينـا، قال: (ما الذي تريـد؟)، قـال: ادع تلـك الشـجرة، فلتأتـك، قـال: (اذهب فادعها)، فأتاها الأعرابي، فقـال: أجيـبي رسـول اللـه ﷺ فمالت على جانب من جوانبها، فقطعت عروقها، ثم مالت على الجانب الآخر فقطعت عروقها حتى أتت رسول الله ﷺ فقـالت: السلام عليك يا رسول الله، فقالت: (بم تشهدين، يـا شـجرة؟)، قالت: أشهد أن لا إله إلا اللـه، وأنـك عبـد اللـه ورسـوله، قـال: (صدقت)، فقال الأعـرابي: حسـبي حسـبي، مرهـا فلـترجع إلى مكانها، فقال: (ارجعي إلى مكانك، وكوني كمـا كنت)، فـرجعت إلى حفرتها، فجلست على عروقها في الحفرة، فوقع كل عـرق مكانه الذي كان فيه، ثم التأمت عليهـا الأرض، فقـال الأعـرابي: أتأذن لي يا رسول الله أن أقبل رأسك ورجليك، ففعل، ثم قال: أتأذن لي أن أسجد لك؟ فقال: (لا يسجد أحد لأحد)(2)

فهذه الروايات، وغيرها كثير يدل على أنه كان في إمكانـك ـ سيدي ـ أن تـأتي بالآيـات الـتي طلبوهـا، والـتي لا تتنـافى مـع الرسالة التي جئت بها.. ذلك أن ما طلبوه من التعجيل بعـذابهم لا يفيدهم شـيئا، بـل هـو يتنـاقض مـع مـا جئت بـه من الرحمـة واللطف واللين.

وقد ذكر القرآن الكريم ـ سيدي ـ نموذجا من الآيـات الـتي كنت تـأتيهم بهـا، لتثبت لهم صـدقك، فقـال: ﴿اقْتَـرَبَتِ السَّـاعَةُ

1() رواه الدارمي وابن حبان والحاكم وصححاه وقال الذهبي إسناده جيد.

2() رواه البزار وأبو نعيم.

وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ [القمر: 1 - 5]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى تلك المعجزة الثابتة بأدلة لا تكاد تحصى، والتي تواترت الأخبار فيها بأن المشركين سألوك أن تريهم علامة تدل على صدق نبوتك، فأريتهم القمر شقين، وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنوات، ففي الحديث عن ابن عباس وغيره: اجتمع المشركون على عهد رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل هشام والعاصي بن وائل والأسود بن حبر يغوث والأسود بن عبد المطلب والنضر بن الحرث ونظراؤهم فسألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، وقالوا: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفا على أبي قبيس ونصفا على قعيقعان؛ فقال رسول الله ﷺ: (اشهدوا)، فنظر الكفار ثم مالوا بأبصارهم فمحوها، ثم أعادوا النظر، فنظروا، ثم مسحوا أعينهم، ثم نظروا فقالوا: سحر محمد أعيننا، فقال بعضهم لبعض: لئن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فانظروا إلى السفار، فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم، فقد صدق، فكانوا يلتقون الركب، فيخبرونهم، أنهم رأوا مثل ما رأوا، فيكذبونهم(1).

لقد قرأت هذه الروايات ــ سيدي ــ لأولئك المشاغبين

1() قال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كبيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجَمُّ الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر، راجع هذه الأحاديث (فتح الباري 6/631 باب 27 من كتاب المناقب حديث 3636، 3637، 3638، و 7/182 باب 36 من كتاب مناقب الأنصار حديث 3868، 3869، 3870 و 3871 و 8/ 617 باب 1 من كتاب التفسير حديث رقم 4864، 65، 66، 67، 68 وصحيح مسلم 17/143-145 في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، وسنن الترمذي 9/30 في أبواب الفتن، ودلائل النبوة للأصبهاني 1/367 حديث 207-212، ودلائل النبوة للبيهقي 2/262 و وحدائق الأنوار للشيباني والسيرة النبوية للذهبي والبداية والنهاية والشفا، والوفا. وغيره الكثير.

المجـادلين، وقرأت لهم معهـا مـا ورد في القـرآن الكـريم من الدلالـة الواضـحة عليهـا، وقلت لهم: تصـوروا لـو أن ذلـك لم يحصـل ــ كمـا ذكـر القـرآن الكـريم ــ ألم يكن ذلـك مـدعاة لتكذيبهم، فما أسهل أن يقولـوا: (إن محمـداً يكـذب علينـا، فمـا انشق القمر، ولا رأينا شيئاً من ذلك)

وقلت لهم: ليس بالضرورة أن تشاهد جميع قـريش ذلـك.. لأن إنكارهم للآية بعـد المطالبـة بهـا سـيؤدي إلى تعـذيبهم كمـا توعدهم الله تعالى بذلك.. وإنمـا يكـون الـذين شـاهدوها أولئـك النفر المحدودين الـذين طـالبوا بهـا.. وقـد نـزل عليهم العـذاب بالفعل، ولو بعد حين.

وقلت لهم، عندما طالبوا بالـدليل الحسـي من القمـر على ذلك: إن كون المعجزة معجزة يدل على تـدخل القـدرة الإلهيـة التي لا يعجزها شيء.. فلو شاء الله أن يشق أي شـيء لشـقه، ثم أعـاده إلى خلقتـه أول مـرة، وكأنـه لم يحصـل لـه شـيء.. فالمطالبة بالدلائل شأن المحجوبين، لا شـأن العلمـاء العـارفين بقدرة ربهم المطلقة.

وقد ذكر القرآن الكـريم مـا هـو فـوق ذلـك ممـا لا تطيقـه العقول، فهل يمكنهم أن يسـلموا لـذلك، أم يجـادلوا فيـه.. فقـد ذكر الله تعالى انشقاق البحر لموسى عليه السلام، وذكر تحول العصا إلى حية، وذكر إحياء الموتى.. بل ذكر ما فـوق ذلـك كلـه من خلق المسيح عليه السلام من الطين كهيئة الطير.

بعد أن حدثتهم بهـذا كلـه، علمت أن السـبب في إنكـارهم لكل تلك الروايات، وما يدل عليها من القـرآن الكـريم هـو ذلـك الإيمان الضعيف الذي جعلهم لا يثقون في قـدرة اللـه المطلقـة الـتي لا يعجزهـا شـيء.. ولـو أنهم سـلموا لهـا، لسـلموا لـك، ولسلموا لكل ما حصل على يديك من الآيات البينات.

لقد قلت لهم ـ سيدي ـ إن كل تلك الآيات البينات لا تتنافى مع كون معجزتك الكبرى هي القرآن الكريم.. فهو الكتاب الذي لا زال إعجازه نراه رأي العين، وفي كل المجالات والتجليات.

لقد راحوا ـ سيدي ـ يجادلون فيه أيضـا.. ليسـقطوا الكثـير من مظاهر إعجازة التي تتجلى في كل العصـور.. فهم ينكـرون تلك الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا بعد أن بذل البشر كـل جهودهم في الوصول إليها.. ليكون ذلك آية للعلماء.. ولأهل هذا الجيل، كما كانت سـائر أنـواع إعجـازه آيـات للأدبـاء والفلاسـفة والمفكـرين وغـيرهم.. فكـل يـرى من إعجـازه مـا يتناسـب مـع تخصصه.

لقد راحوا يجادلون فيه ساخرين من أولئـك الـذين يبحثـون في مطابقة ما ذكره القرآن الكريم مع الحقائق العلمية، والـتي قد يخطئون في بعض نواحيها.. لكن خطأهم لا علاقة له بالقرآن الكريم، ذلك أنها اجتهادات مرتبطة بالفهم، لا بحقيقة التنزيل.

لقد ذكرت لهم أن مثل ـ الإعجاز القرآني ـ مثـل دولـة لهـا أسلحة متطـورة كثـيرة لم تكشـف عنهـا لأعـدائها، فلم يعرفـوا أسرارها، ولا أنواعها، ولا أنواع القـوة الـتي تحملهـا، فلـذا كلمـا قدم أعداؤها سلاحا، كلما وجدوا عنـدها من الأسـلحة مـا يفـوق ذلك السلاح.

ثم سألتهم: أذلك خير أم دولة ليس لهـا من السـلاح إلا مـا تسلح به سلفها، وليس لها من القوة إلا ما ورثته، فأيهمـا أقـوى قوة؟

وقلت لهم: لا شـــك أن الدولـــة الأولى هي الأقـــوى.. وهي تشبه القرآن الكريم، فمن يقول بإطلاق إعجازه يجعله كنزا من كنوز العجائب والمعجزات، ومن يقول بمحدوديته لا يراه إلا كما

يــراه ذلــك البــدوي البسـيط.. يــراه من خلالــه عنزاتــه وناقتــه وخيمته.

ثم ذكرت لهم أن هذا ليس كلامي وإنما القرآن الكريم هــو الذي ذكر ذلك؛ فهو الذي وعد البشرية بأنه سيريها في مستقبل أيامها من الآيات في الآفاق والأنفس ما يرون بــه الحقــائق رأي العين..

وتلوت على أسماعهم تلك الآيتين الكريمتين اللـتين تتنبـآن بهذه الحقيقة العظيمـة، قـال تعـالى: ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَـانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُـوَ فِي شِـقَاقٍ بَعِيـدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 52، 53]

وقلت لهم: إن هـذه الآيـات الكريمـة لا تتحـدث فقـط عن معجزات الآفاق والأنفس الدالة على الله، بل هي تتحدث أيضا ـ بحسب ما يدل السياق ـ على معجزات الله في الآفاق والأنفس الدالة على القرآن الكريم، وعلى صدقك.

وذكرت لهم أن تلك الآيات ليست وحدها مـا يعـد البشـرية بفيض المعجـزات الـتي يختزنهـا القـرآن الكـريم، بـل نجـد هـذا واضــحا في قولــه تعــالى: ﴿ إِنْ هُــوَ إِلَّا ذِكْــرٌ لِلْعَــالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)﴾ [ص: 87ـ 88]، وهي واضحة في أن حقائق القرآن الكريم سـتتجلى في كـل العصـور، بمـا يكفي للدلالة على كونه من عند الله، وكونك نبي الله، وقد قـال بعض المفسرين القدامى في ذلك: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أعلم المشركين بهذا القرآن أنهم يعلمون نبأه بعد حين، من غير حد منه لذلك الحين بحد، ولا حد عنـد العـرب للحين لا يجاوز ولا يقصر عنه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا قول فيه أصح من أن يطلق، كما أطلقـه اللـه، من غـير حصـر ذلـك على

وقت دون وقت)[1]

وقال آخر: (ومعجـزة القـرآن مسـتمرة إلى يـوم القيامـة، وخرقه للعادة في أسلوبه، وفي بلاغته، وإخبـاره بالمغيبـات، فلا يمر عصر من الأعصار، إلا ويظهر فيه شـيء ممـا أخـبر بـه أنـه سيكون؛ يـدل على صـحة دعـواه... فعم نفعـه من حضـر، ومن غاب، ومن وجد، ومن سيوجد)[2]

لكنهم سـيدي أبـوا إلا أن يحصـروا القـرآن الكـريم في مجـالات محـدودة، ويسـخروا من كـل من يبحث في طلاقـة إعجازه بما آتاه الله من علم.. مع أن ذلك كان سببا في هدايات عظيمة تحققت لمن آمن بذلك، واهتدى به.

فيا سـيدي يـا رسـول اللـه.. يـا من آتـاك اللـه المعجـزات البـاهرات الواضـحات الـتي لا ينكرهـا إلا المكـابرون الجاحـدون أسألك وأتوسـل بـك إلى اللـه أن تكـون أنت معجـزتي الكـبرى التي لا أحتاج معها إلى أي معجـزة.. فـأنت كلـك معجـزة.. ولـو أنهم اكتفوا بك، لوصلوا إلى اليقين الذي يقطع كل شك، والعلم الذي ينفي كل وهم.

وأسـألك سـيدي وأتوسـل بـك إلى اللـه أن يجعـل إيمـاني إيمان الموقنين الذين يثقون في قدرة ربهم المطلقة؛ فلـذلك لا ينكرون شيئا من مظاهر قدرته، بل يـرون كـل شـيء منـه وبـه وله، ولذلك يسلمون لله في كل شيء، فكل شـيء آيـة بـاهرة، ومعجزة خارقة.

1() تفسير الطبري (21/ 244)

2() فتح الباري لابن حجر: 9/ 7.

المنبأ بالنبوءات

سيدي يا رسول الله.. يا من عظم نصحه وحرصه؛ فتجـاوز حدود كل الأمكنـة.. وامتـد إلى كـل الأزمـة.. وسـرى إلى جميـع القضـايا.. وتغلغـل في جميـع الشـؤون.. فلا يكتفي بـك أحـد إلا كُفي.. ولا يقبل عليك إلا ويجد عندك ولديك كل الحلـول، ولكـل المشاكل، وفي كل الأوقات.

لقد كان أول ما أرقـني وفتّ في عضـدي أني ــ عنـد تـدبر القــرآن الكــريم ــ علمت سـنة اللــه تعـالى في الأمم وأقــوام الأنبياء، بعد وفـاة أنبيـائهم، وأنهم يبـذلون كـل جهـودهم للتغيـير والتبديل والتحريف، فلـذلك يحاصَـر دين اللـه بـالأهواء، ويُـدنّس جماله بالشبهات، وتختلط الأمور على الناس بعد أن أمتلأ عسل دينهم بالســم، وكــل أنــواع الأدواء، وذلــك ليتحقــق الاختبــار، ويمحص التابعون الصادقون من المزورين والمحرفين.

وقـد جعلـني هـذا ــ وخشـية على نفسـي من الوقـوع في الضلالة ـ أقبل عليك، وأسألك عن حل هذه المعضلة، وكيف لي أن أتجاوز تلك التحريفـات.. وكيـف لي أن أظـل معـك، دون أن يجتذبني أولئك الذين صنعهم الشـيطان على عينـه، ليخلـط بهم دين الله بدينه.

وعندما عدت إليـك بعـد تلـك المتاهـة الطويلـة الـتي رأيت فيها كل أصناف الأوهام والدعاوى والكذب.. وجـدت عنـدك كـل شيء.

فمن أراد أن يبحث عن سر تخلـف الأمـة عن دينهـا وجـده عندك.. ومن أراد أن يعرف مظان التحريفات والتغييرات يجدك قد ذكرتها في سنتك، وحذرت منهـا في أحاديثـك.. ومن أراد أن

يعرف أئمة التحريف والتضليل وأدواتهم، وجدك قد سبقت إلى ذكرهم والإشارة الصريحة إليهم.. ومن أراد أن يعرف أئمة الهدى، وكيفية الاستفادة منهم وجدهم.. وهكذا لم تترك لنا ـ سيدي ـ شاردة ولا واردة قد نحتاج إليها بعدك إلا وأخبرتنا بها.

ولذلك كانت نبوءاتك تتمة لنبوتك.. ومن جحد نبوءاتك، أو تكاسل في الاهتمام بها، أو تفعيلها في حياته، فسيكون كالذي ألغى شطر نبوتك.. فلنبوتك شطران: شطر يرتبط بحياتك، والذي قد يتفق عليه الجميع.. وشطر يرتبط بما هو بعدك.. وهذا الذي وقع فيه التقصير فيمن جاء بعدك، بعد أن تسربت إليهم سموم الأهواء، وسرى إليهم ما سرى إلى الأمم قبلهم من الغفلة عن وصايا أنبيائهم، وإن كانوا قد أخذوا بالكثير من هديهم.

لقد ذكر أصحابك المقربين اهتمامك بهذا الجانب من رسالتك، حتى تحمي الأمة بعدك من كل ما يؤذيها، أو يشوهها، وحتى يظل في دينك المتمسكون الحقيقيون به، الذين يأوي إليهم الشاردون، ويهتدي بنورهم الضالون.

لقد قال بعض أصحابك يذكر ذلك: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا)(1)

وقال آخر ـ وهو صاحبك حذيفة ذلك الذي كان مهتما بهذا النوع من العلم خشية على نفسه، وعلى أمتك ـ: (قام فينا رسول الله ﷺ قائما، فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون الشيء فأذكره كما يذكر

(1) رواه مسلم.

الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه)(1)

لقد رحت ـ سيدي ـ أبحث عند أصحابك المقربين الذين تعلموا منك هذه العلوم؛ فوجدت عندهم كل شيء.. لقد كان تلميذك الأكبر الإمام علي يصيح في أصحابه طالبا منهم أن يتعلموا هذا العلم حتى يحفظوا للأمة كينونتها، فيقول: (سلوني قبل أن تفقدوني، فو الّذي نفسي! بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين السّاعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحطّ رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتا)(2)

لقد بدأت نبوءاتك ــ سيدي ــ من الفترة التي تلتك مباشرة.. تلك الفترة الخطيرة التي وصفها الله تعالى، وحذر منها، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

لقد رأيتك ـ سيدي ــ تذكر كل التفاصيل المرتبطة بمن يصدقون معك، ويفون لك، ولدينك، وبين من يحرفون، ويغيرون، ويبدلون.. حتى لا يؤسس الدين إلا على الأسس الصحيحة، والرجال الأقوياء الصالحين المحافظين على هدي النبوة.

1() رواه أبو داود.

2() شرح الأخبار 1: 139، وقد روى الحاكم في المستدرك [رقم الحديث: (3394)] عن عامر بن واثلة، قال: سمعت علياً قام، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: من ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]؟، قال: منافقو قريش، قال: فمن ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: 104]؟، قال: منهم أهل حروراء)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح عال.

لقد وجدت في دواوين المحدثين الكثير من الأحاديث الـتي تخبر فيها أصحابك عن البلاء الذين ينتظرهم، والاختبـارات الـتي سيقعون فيها، ويمحصون، وبينت لهم كيفية التعامل معها، حـتى لا تزيغ بهم الأهواء.

وبما أن الموقـف من الإمـام علي ــ بسـبب قرابتـه منـك، وتلمذته الصادقة على يديك ـ كان أكـثر من تعلم تعرضـه للظلم بعدك؛ فقد نبهت إلى خطورة ذلك الظلم، وكونه غير متعلق بــه فقـط، وإنمـا يتعلـق بالـدين جميعـا.. لأن النـاكثين والقاسـطين والمارقين والبغاة سيجعلون الحرب عليه وسيلة للحرب عليـك، وهذا ما تحقق بالفعل، وقد روي في الحديث عن بعض أصحابك قـال: كنـا مـع رسـول اللـه ﷺ فـانقطعت نعلـه، فتخلـف علي يخصفها، فمشى قليلا ثم قال: (إن منكم من يقاتـل على تأويـل القرآن كما قاتلت على تنزيله)، فقـال أبـو بكـر: أنـا، قـال: (لا)، قال عمر: أنا، قال: (لا ولكن خاصف النعل)(1)

وفي حديث آخر عن صحابي آخر قال: (أمر رسول الله ﷺ عليا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين)(2)

وأخبر الإمام علي عن نفسه قال: (إن مما عهد إلي النــبي ﷺ أن الأمة ستغدر بي بعده)(3)

ولهذا كان الإمام علي موقنا تمامـا أنـه لن يمـوت قبـل أن يحصل له ما أخبرته عنه؛ فقد روي أنه لما مرض وهــو في ينبــع عــاده بعض الصــحابة والتــابعين، وطلبــوا منــه أن ينتقــل إلى المدينة، حتى إذا حضر أجله وليه الصحابة وصـلّوا عليـه، أمـا إذا

1() رواه الحاكم وصححه والبيهقي.

2() رواه الحاكم.

3() رواه أبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم.

مات في مكانه فلا يحضره إلا أعـراب جهينـة، فأجـابهم بقولـه ـ بناء على ما ذكرته له من نبـوءات ــ: (لكـني واللـه مـا تخـوّفت على نفسي منه، لأني سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق يقول: (إنك ستُضرب ضربةً ههنا، ويكون صـاحبها أشـقاها، كمـا كان عاقرُ الناقة أشقى ثمود)(1)

وهكذا ورد في النبوءات تحذيرك لأم المؤمنين عائشــة من أنها ستقع في فتنة خروجها في معركـة الجمـل، فقـد روي أنـك قلت لعلي: (إنه سيكون بينك وبين عائشـة أمـرٌ)، قـال: (أنـا يـا رسول الله؟)، فقلت: نعم.. فقال: فأنا أشقاهم يا رسول اللــه؟ فقلت: (لا.. ولكن إذا كان ذلك، فارددها إلى مأمنها)(2)

بل إنك ـ سيدي ـ ذكرت العلامة التي سـتكون عنـد ظهـور هذا الخلاف، كما أشرت إلى الظـرف الـذي سـتكون عليـه تلـك الأحــوال، فقــد روي عن عائشــة أنهــا لمــا أتت على الحــوأب، وسمعت نباح الكلاب، قالت: سمعت رسول اللـه ﷺ يقـول لنـا: (أيتكن تبنح عليها كلاب الحوأب)(3)

بـل إنـك ــ سـيدي ــ أخـبرت بدقـة عمـا يحصـل في تلـك المعركـة، فقـد روي أنـك قلت مخاطبـا نسـاءك: (ليت شـعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج فينبحها كلاب الحوأب، يقتــل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير)(4)

بـل إن حذيفـة حـدث عن هـذا مـع أنـه مـات قبـل مسـير

____

1() رواه عبد بن حُميد والبخاري في تاريخه وابن أبي عاصم والطبراني وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وحسنه الهيثمي.

2() رواه أحمد الطحاوي والبزار والطبراني، ورجاله ثقات، كما قال الحافظ الهيثمي، وحسنه الحافظ ابن حجر.

3() رواه أحمد وابن شيبة وأبو يعلى والبزار، وصححه ابن حبان والحاكم.

4() رواه البزار والطحاوي، برجال ثقات، كما قال الحافظان الهيثمي وابن حجر.

عائشة، فقد روي أنه قيل له: حدثنا ما سمعت من رسـول اللـه ﷺ قال: (لو فعلت لرجمتموني)، قلنا: سـبحان اللـه! قـال: (لـو حدثتكم أن بعض أمهاتكم تغزوكم في كتيبة تضربكم بالسيف ما صدقتموني)، قالوا: سبحان الله، ومن يصدقك بهذا قال: (أتتكم الحمراء في كتيبة تسـوق بهـا أعلاجهـا)(1)، قـال الـبيهقي، أخـبر بهذا حذيفة ومات قبل مسير عائشة.

بل إنك ـ سيدي ـ أخـبرت بعض من سـار مـع عائشـة على أنه سيقاتل عليا ظالما له، فعن أبي الاسود قال: شهدت الزبـير خرج يريد عليا، فقال له علي: أنشدك الله هـل سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: (تقاتله وأنت له ظالم)، فقال: لم أذكر، ثم مضى الزبير منصرفا(2).

وفي حديث آخر عن أبي جروة المازني قال: سمعت عليـا يقول للزبير نشدتك بالله أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنـك تقاتلني وأنت ظالم لي؟ قال: بلى، ولكن نسيت(3).

وفي حديث آخر عن قيس قال: قال علي للزبير: أما تـذكر يوم كنت أنا وأنت، فقـال لـك رسـول اللـه ﷺ: (أتحبـه)، فقلت: وما يمنعني، فقال: (أما إنك ستخرج عليه وتقاتله وأنت ظـالم)، قال: فرجع الزبير(4).

وهكـذا أخـبرت عمـارا بأنـه سـيقتل شـهيدا على يـد الفئـة الباغيـة الـتي تحـرف دينـك، وأنـه سيصـبح علامـة لأهـل الحـق، وسيصبح أعداؤه علامة على أهل البغي إلى يـوم القيامـة، فقـد

---

(1) رواه الحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم.

(2) رواه الحاكم وصححه والبيهقي.

(3) رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي وأبو نعيم.

(4) رواه الحاكم.

حدث الرواة عنك أنك قلت: (إذا اختلف النـاس كـان ابن سـمية مع الحق)(1)، وقلت: (إن ابن سمية لم يخير بين أمـرين قـط إلا اختار أرشدهما ـ يعنى عمارا فالزموا ـ سمته)(2)

وقلت عن قريش، تلك التي حاربتـك في حياتـك، وحـاربت دينك بعد موتك: (ولعت قريش بعمار.. ما لهم ولعمـار يـدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، قاتله وسالبه في النار)(3)

بل إنك ـ سيدي ــ أخـبرت عمـارا عن آخـر طعـام يتناولـه، فعن أبي البختري، أن عمار بن ياسـر أتي بشـربة لبن فضـحك، وقال: إن رسول الله ﷺ قال لي: آخـر شـراب أشـربه لبن حين أموت(4).

وقد حصـل مـا أخـبرت عنـه، وبدقـة، فقـد كـان عمـار في جيش الإمام علي يوم صـفين، وقتلـه معاويـة وجيشـه من أهـل الشام الذين خرجوا بغاة ظالمين.

ولهذا كان عمار يذكر لمن يعوده في أمراضه أنه لن يموت فيها، بناء على تلك الوعود التي وعدتـه بهـا.. فعن مـولاة لعمـار قالت: اشتكى عمار بن ياسر شكوى ثقـل منهـا، فغشـي عليـه، فأفاق، ونحن نبكي حوله قال: ما يبكيكم؟ أتحسبون أني أمــوت على فراشي، أخبرني حبيبي رسـول اللـه ﷺ أنـه تقتلـني الفئـة الباغية، وأنا آخر زادي مذقة من لبن(5).

1() رواه البيهقي في الدلائل.

2() وقعة صفين (ص: 342).

3() وقعة صفين (ص: 342).

4() رواه أحمد، والحاكم.

5()، وفي رواية: ضياح لبن، وفي لفظ: إن آخر زادك من الدنيا ضياح من لبن، رواه الطبراني والبزار بإسناد حسن.

وهكذا أخبرت أبا ذر الغفاري بالبلاء الذين ينتظره، وقد شاهده أبو ذر رأي العين، فعن إبراهيم بن الأشتر، أنه لما حضر الموت أبا ذر، وهو بالربذة فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: أبكي أنه لا يد لي بنفسك، وليس عندي ثوب يسع لك كفناً، قال: لا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين)، قال: فكل من كان معه في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، ولم يبق منهم غيري، وقد أصبحت بالفلاة أموت، فراقبي الطريق فإنك سوف ترين ما أقول، فإني والله ما كَذبت ولا كُذبت، قالت: وأنى ذلك وقد انقطع الحاج، قال: راقبي الطريق، قال: فبينا هي كذلك إذا هي بالقوم تخب بهم رواحلهم كأنهم الرخم، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها فقالوا: ما لك؟ فقالت: أمرؤ من المسلمين تكفنوه وتؤجرون فيه، قالوا: ومن هو؟ قالت: أبو ذر، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ووضعوا سياطهم في محورها يبتدرونه، فقال: أبشروا، فأنتم النفر الذين قال رسول الله ﷺ فيكم ما قال، ثم أصبحت اليوم حيث ترون، ولو أن لي ثوباً من أثوابي يسع لأكفن فيه، فأنشدكم بالله لا يكفني رجل منكم كان عريفاً أو أميراً أو بريداً، فكل القوم قد نال من ذلك شيئاً إلا فتى من الأنصار كان مع القوم، قال: أنا صاحبك، ثوبان في عيبتي من غزل أمي وأحد ثوبي هذين الذين علي، قال: أنت صاحبي، فكفنه الأنصاري في النفر الذين شهدوه منهم حجر بن الأدبر ومالك الأشتر في نفر كلهم يمان(1).

وعن القرظي، قال: خرج أبو ذر إلى الربذة فأصابه قدره، فأوصاهم أن غسلوني وكفنوني، ثم ضعوني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على غسله ودفنه ففعلوا.. فأقبل عبد

(1) رواه أحمد من طريقتين أحدهما هذه، والأخرى مختصرة عن إبراهيم بن الأشتر عن أم ذر، ورجال الطريق الأولى رجال الصحيح ورواه البزار بنحوه باختصار.

الله بن مسعود في ركب من العراق، وقد وضعت الجنـازة على قارعـة الطريـق، فقـام عليـه غلام، فقـال: هـذا أبـو ذر صـاحب رسول الله ﷺ قال: فبكى عبـد اللـه بن مسـعود قـال: سـمعت رسول الله ﷺ يقـول: (تمشـي وحـدك، وتمـوت وحـدك، وتبعث وحدك)(1)

وهكذا أخـبرت عن أولئـك الظلمـة الـذين يحرفـون دينـك، ويحولونه من دين العدالة إلى دين الاسـتبداد.. ومن دين العقـل إلى دين الخرافة.. بل إنك لم تترك شـيئا يتعلـق بهم إلا ذكرتـه، وحذرت منه.. ومن تحذيراتك في ذلك قولك: (خذوا العطـاء مـا دام عطـاء، فـإذا صـار رشـوة على الـدين فلا تأخـذوه، ولسـتم بتاركيـه؛ يمنعكم الفقـر والحاجـة، ألا إن رحى الإسـلام دائـرة، فـــدوروا مـــع الكتـــاب حيث دار، ألا إن الكتـــاب والســـلطان سـيفترقان فلا تفـارقوا الكتـاب، ألا إنـه سـيكون عليكم أمـراء يقضـون لأنفسـهم مـا لا يقضـون، إن عصـيتموهم قتلـوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم)، فقـالوا ــ عنـدما سـمعوا ذلـك منـك ــ: يـا رسول الله كيف نصنع؟ فقلت: (كما صـنع أصـحاب عيسـى ابن مريم نشروا بالمناشير وحملوا على الخشـب. مـوت في طاعـة الله خير من حياة في معصية الله) (2)

وقد ذكرت ــ سـيدي ــ خوفـك على مـا يحصـل بعـدك من تسلط الأئمة الظلمة، ومن يعينهم من علماء السلاطين، فقلت: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)(3)

وقـد نبهت أمتـك إلى كيفيـة التعامـل مـع هـؤلاء الأمـراء المستبدين، فقلت: (اسـمعوا، هـل سـمعتم أنـه سـيكون بعـدي

1() رواه احمد وإسحاق.

2() رواه احمد بن منيع برجال ثقات وإسحاق.

3() رواه احمد برجال ثقات.

أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعـانهم على ظلمهم فليس مـني ولسـت منـه، وليس بـوارد علي الحـوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم، فهـو مني وأنا منه، وهو وارد علي الحوض)(1)

ولم تكتف ـ سيدي ـ بتلك التحذيرات العامـة، بـل ضـممت إليها الكثير من الإشارات بل التصريحات الـتي تـدل على منـابع الفتن ومصـادرها، ومن ذلـك حـديثك عمن سـيتولى شـؤون المسلمين من الصبية المراهقين، وما سيحصل على أيديهم من فساد وإفساد، فقلت: (هلكة أمتي على يدي غلمة)(2)

وقد وقع سـيدي بدقـة مـا ذكـرت حيث أصـبح المراهقـون والصبية هم الذين يتولون أمور المسـلمين، ويعيثـون في الأرض فسادا، فشوهوا دينك تشويها عظيما.

وهكـذا أخـبرت ــ سـيدي ــ عمـا يلحـق بأهـل بيتـك من المظالم، ومن يتولى ذلك في أحاديث كثـيرة، منهـا قولـك: (ان أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمـتي قتلا وتشـريدا، وان أشـد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم)(3)

وأخبرت عمـا سيحصـل لسـبطك سـيد شـباب أهـل الجنـة الإمام الحسـين، فقلت: (إن جبريـل أخـبرني أن ابـني الحسـين يقتل، وهذه تربة تلـك الارض)(4)، وقلت: (إن جبريـل كـان معنـا في البيت، فقال: اتحبه؟، فقلت: أما في الـدنيا فنعم؟ قـال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض، يقـال لهـا: كـربلاء، فتنـاول جبريـل من

1() رواه الترمذي وقال: صحيح غريب وابن حبان والنسائي.

2() رواه أحمد، ورواه البخاري بنحوه عن أبي هريرة، والأحاديث في هذا كثيرة جداً وهي موجودة في كتب دلائل النبوة.

3() رواه ابن عساكر ونعيم بن حماد في الفتن، والحاكم.

4() رواه الخليل في الإرشاد.

تربتهـا، فأرانيـه)[5]، وقلت: (إن جبريـل أخـبرني أن ابـني هـذا ـ يعني الحسين ـ يقتل، وأنه اشتد غضب الله على من يقتله)[6]

ولم تكتف بكل ذلك ـ سيدي ـ بل ذكرت الفترات التي تمر بها الأمة، والمفاسد التي تعترضها في طريقها.. والمواضع الـتي تظهر فيها الفتن.. وكيفية النجاة منها.. وكان في ذلك كله كفاية لكل من يريد أن يميز بين الحق والباطـل، وبين دينـك الأصـيل، والدين الجديد الذي ابتدعه المحرفون.

لقد رحت ـ سيدي ـ بعد اطلاعي على تلـك النبـوءات الـتي تركتها لنا، والتي تمس جميع جوانب الحياة، وفي جميع العصور، وقارنت صدقها بما ورد من النبوءات المحدودة من أولئك الذين اعتبرهم البشر عباقرة وأبطالا، فوجدت البون الشاسع.

فكـل نبوءاتـك مـع تفاصـيلها الدقيقـة صـدقت، ودل عليهـا التاريخ والواقع.. وكـل نبـوءاتهم فضـحتها الأيـام، وبينت تهافتهـا وضلالها وكذب أصحابها.

لقد ذكر المؤرخون أن نابليون بونابرت، ذلك الذي كـان ولا يزال يعد من أعظم قواد الجيوش في عصره، ذلك الـذي تـوهم أنه سيحيي بطولات الإسكندر المقدوني وفتوحاتـه.. ذلـك الـذي توهم أنه أصبح مالك القدر، وادعي أنه لم يكتب في قـدره غـير الغلبة الكاملة على جميع أهل الأرض.. لكن كـل تلـك النبـوءات المغـرورة أصـابها مـا أصـاب نبـوءات جميـع المـدعين، فتلـك الجحافل العظيمة التي أعدها هزمت شر هزيمـة.. وعنـدما علم نابليون بمصيره المحتوم فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجهـا إلى أمريكـا، ولم يكـد يصـل إلى الشـاطئ، حـتى ألقت شـرطة السواحل القبض عليه وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية

5() رواه الطبراني.

6() رواه ابن عساكر.

البريطانيـة، وانتهي بـه القـدر إلي أن أرسـل إلي جزيـرة غـير معمورة بجنوب الأطلنطي، ومات ذلك القائد المغـرور في تلـك الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشـقاء، يتجـرع كـأس الندم، بعد أن جرع جيوشه كأس الخديعة.

وهذا ما حصل للبيـان الشـيوعي الـذي تنبـأ بـأن أول البلاد التي ستقود الثـورة الشـيوعية هي (ألمانيـا)، ولكن ألمانيـا على الرغم من مضي العقود الكثيرة من تلك النبوءة عليهـا، لا تـزال أبعد الناس عن مثل تلك الثورة..

وهذا ما حصل لكارل ماركس ــ ذلـك الـذي يعتـبره الكثـير إلههم الذي لا يخطئ ـ فقد كتب يقول: (إن الجمهورية الحمـراء تـبزغ في سـماء بـاريس)، لكن ذلـك، ورغم مـرور تلـك الفـترة الطويلة لم يحصل.. ولن يحصل.

وهذا ما حصـل لأدولـف هتلـر في خطابـه الـذي ألقـاه بين قومه يقول لهم فيه: (إنني سائر في طريقي، واثقا تمـام الثقـة بأن الغلبـة والنصـر قـد كتبـا لي)، وقـد عـرف العـالم أجمـع أن الهزيمة هي التي كتبت لهتلر وليس النصر.

وهكذا كذبت كل النبوءات.. إلا نبوءاتك ـ سيدي ـ والتي لم تزدها الأيام إلا صدقا.. وبكل تفاصيلها.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول اللـه ــ وأتوسـل بـك إلى ربي أن يجعلني من المطبقين لوصاياك، المعتصمين بهـديك.. الـذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يحرفوا..

وأسألك أن أكون من الذين استفادوا من نبوءاتك، وعاشوا معها، وحذروا مما حذرتهم منه، وعملـوا بمـا أوصـيتهم بـه.. وألا تأخذني في ذلك لومة لائم.. إنك وسيلة الله العظمى، وصـاحب الجاه العظيم.

مجاب الدعوات

سيدي يا رسول الله.. يـا صـاحب الجـاه العظيم، والمقـام الرفيع الذي لا ترد معه الدعوات.. ولا تصـد عنـه الحاجـات.. ولا تقف دونه الحجب.

لقد بلغ قربك من الله تعالى إلى الدرجة التي لا تدعو فيهـا بدعاء إلا اسـتجيب لـك، ولا تتمـنى أمنيـة إلا تحققت، ولا تـرغب في شيء إلا كان بين يديك؛ فلذلك كنت وسـيلة الصـادقين إلى ربهم.. لعلمهم أن دعاءك لهم أقرب من دعائهم لأنفسهم.

وكيف يكون دعاؤهم لأنفسهم أقرب إلى اللـه من دعائـك، وقد قال الله تعالى عن دعائك: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُـولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: 63](1)

وكيف يكون دعاؤهم أقرب إلى الله، وأنت الـذي قـال لـك ربـك: ﴿ وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النسـاء: 64]، وقد كان يمكن أن يـدعوهم إلى الاسـتغفار بأنفسـهم لأنفسـهم، لكنـه طلب منهم العـودة إليـك، فاسـتغفارك لهم أجـدى من استغفارهم لأنفسهم.

ولذلك كنت ــ سـيدي ــ ملجـأ السـائلين في حياتـك، وبعـد وفاتـك.. فكـل من احتـاج حاجـة لجـأ إليـك، وطلب دعـاءك، أو توسل إلى الله بدعائك، أو توسل إلى الله بجاهك، أو لجـأ إليـك أن تـدعو لـه.. إلا أولئـك المحجـوبين الـذين توهمـوا أن المـوت

1() هذا أحد الأقوال التي فسرت بها الآية، فقد قال ابن كثـير في تفسـيره (6/ـ 89): أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحـذروا أن يـدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصـري، وعطيـة العَـوفي، والله أعلم.

قضى عليك، وأنه لم يعـد لـك من الأمـر شـيء، وأن قربـك من الله لن يتيح لك أن تلجأ إليه لإغاثـة من طلب الغـوث، أو إجـارة من طلب الإجـارة، أو إجابـة من طلب شـيئا من شـؤون الـدنيا والآخـــرة.. وكـــل ذلـــك لكـــونهم حجبـــوا بأنفســـهم وأهـــوائهم ووساوسـهم عنـك، وإلا فـإنهم لـو تركـوا تلـك الحجب لـرأوك لا تزال مستقرا على العرش الذي بوأك الله إياه، وأنزلـك فيـه، لا ترد من سألك، ولا يحجب عنك من طلبك.

ولو أنهم فعلوا ذلك.. لعاشوا معك مثلمـا عـاش صـحابتك، يطلبونك في كل ملمة، ويلجئون إليك عند كل حاجـة.. فيجـدون عندك كل ما يطلبون، وفوق ما يطلبون.

اسمح لي ـ سيدي ـ أن أشنف قلبي بذكر بعض تلك الأخبار الجميلة التي نقلها لنا الرواة عنك، والتي تـدل على تكـريم اللـه لك بإجابـة الـدعاء، وفي كـل المناسـبات، ولكـل الحاجـات.. فلا يخيب من لجـأ إليـك، ولا يـرد صـفر اليـدين من مـد يـده إلى حضرتك.

فمن تلك الأخبار ما يرتبط بلجـوء المرضـى إليـك، بعـد أن علموا أنك طبيبهم، وأن كل من دخل عيادتك، شفي مهمـا كـان مرضه، ومن غـير معانـاة، وبغـير أدويـة.. فقـد وردت الروايـات الكثيرة تخبر بذلك عنك، وبأسانيد كثيرة متواترة، لا يشكك فيهـا إلا جاحد.

ومن تلـك الروايـات مـا روي في إبرائـك الأعمى والأرمـد ومن فقئت عينه، وغيرهم.. فقد روي أنك سألت يـوم خيـبر عن الإمام علي، فقيل لـك: يـا رسـول اللـه، يشـتكي عينيـه، فقلت: (فأرسلوا إليه)، فأتي به فنفثت في عينيه، ثم دعوت له، فـبرئ، حتى كأنه لم يكن به وجع، ثم أعطيته الراية[1].

(1) رواه البخاري ومسلم.

ومن تلك الروايـات مـا روي عن حـبيب بن فـديك أن أبـاه خرج به إليك، وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شـيئا، فسـألته: (مـا أصابك؟) فقال: وقعت رجلي على بيضـة حيـة فأصـيب بصـري، فنفثت في عينيه، ودعوت له، فأبصر، حتى أنه صار ـ كمـا يـذكر الراوي عنه ـ يدخل الخيط في الإبرة، وإنـه لابن الثمـانين سـنة، وإن عينيه لمبيضتان[1].

ومن تلك الروايات مـا روي أن قتـادة بن النعمـان أصـيبت عينه يوم أحد، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوهـا، ثم بـــدا لهم أن يستشـــيروك، فقلت: (لا تقطعوهـــا)، ثم رفعت حدقته، ثم غمزتها براحتك الشريفة، وأنت تقول: (اللهم اكســبه جمالا)، فكانت ـ كما يذكر الرواة ــ أصـح عينيـه وأحسـنهما، بـل كان لا يدري أي عينيه أصيبت[2].

ومن تلك الروايات مـا روي عن رفاعـة بن رافـع بن مالـك قال: رميت بسهم يـوم بـدر، ففقئت عيـني، فنفث فيهـا رسـول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء[3].

ومن تلك الروايات ما روي في إبرائك الأبكم والرتــة، ومن أمثلتها مـا روي أن امـرأة جاءتـك بصـبي قـد شـب، فقـالت: يـا رسول الله ان ابني هذا لم يتكلم منـذ ولـد، فقلت لـه مخاطبـا: (من أنا؟) قال: (أنت رسول الله)[4]، ثم صار يتحدث من حينها.

ومنها ما روي عن بشير بن عقربة الجهني قال: أتى عقربة رسول الله ﷺ فقال: (من هذا معك، يا عقربة؟) قال: ابني بحير

1() رواه ابن أبي شيبة والبيهقي وأبو نعيم.

2() رواه أبو يعلى والبيهقي وابن سعد وأبو نعيم.

3() رواه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بسند جيد.

4() رواه البيهقي.

قال: (ادن) فدنوت حتى قعدت عن يمينـه، فمسـح على رأسـي بيده، فقال: (ما اسمك؟) قلت: بحير يـا رسـول اللـه، قـال: (لا، ولكن اسمك بشير) وكـانت في لسـاني عقـدة، فنفث النـبي ﷺ في في، فانحلت من لساني وأبيض كل شيء من رأسي ما خلا ما وضع يده عليه فكان أسود)(1)

ومنها مـا روي أن مخوس بن معـدي كـرب، قـال: يا رسـول الله، ادع الله أن يذهب عني الرتة، فدعا له، فذهبت(2).

ومن تلك الروايـات مـا روي في إبرائـك للقرحـة والسـلعة والحرارة، ومنها ما روي أنـك أتيت برجـل في رجلـه قرحـة قـد أعيـا الأطبـاء علاجهـا، فوضـعت أصـبعه على ريقـه، ثم رفعت طرف الخنصر، فوضعتها على التراب، ثم رفعتها، فوضعتها على القرحة، ثم قلت: (باسمك اللهم ريق بعضنا بتربة أرضنا ليشفى سقيمنا باذن ربنا)(3)

ومنها ما روي أنك أتيت برجل في كفه سـلعة(4) وقـد قـال لك: (يا رسول الله هـذه السـلعة قـد آذتـني وتحـول بيـني وبين قائم السيف أن أقبض عليه، وعنان الدابة)، فنفثت في كفه، ثم وضعت كفك الشريفة على السلعة، فما بقي لها أثر (5).

وغيرهـا من الروايـات الكثـيرة المتـواترة الـتي تـدل على إجابة الله لدعائك، وفي شـفاء جميـع الأمـراض، مهمـا اشـتدت وصعبت.. وكيف يشـتد على اللـه أو يصـعب عليـه مـرض، وهـو

1() رواه اسحاق بن ابراهيم الرملي في فوائده.

2() رواه ابن سعد عن عكرمة والزهري وعاصم بن عمرو بن قتادة مرسلا.

3() رواه البيهقي.

4() السلعة:الغدة تكون في العنق.

5() رواه البخاري في التاريخ والطبراني والبيهقي.

الشافي الذي خلق المرض والدواء؟

ومن تلك الحاجات التي كان أصحابك يقصدونك فيها، وخاصة في تلك البيئة الصحراوية الجافة، الحاجات المرتبة بالاستسقاء وطلب الماء، ونزول الأمطار، ومما روي في ذلك أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة، وأنت قائم تخطب، فاستقبلك قائمًا، ثم قال: (يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغثنا)، فرفعت يديك، ثم قلت: (اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا).. قال الراوي، يصف ما حصل بعد دعائك وقبله: (ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا)

ثم ذكر أنه دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة وأنت قائم تخطب، فاستقبلك قائمًا، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، فرفعت يديك، ثم قلت: (اللهم حولنا ولا علينا اللهم على الآكام، والظراب ومنابت الشجر)، قال الراوي: (فانقلعت وخرجنا نمشي في الشمس)[1]

ومن تلك الروايات ما حدث به بعض صحابتك، من أن أعرابيا جاءك، فقال: يا رسول الله، لقد أتيناك وما لنا بعير يئط، ولا صبي يصيح وأنشد:

أتيناك والعذراء يدمى	وقد شغلت أم الصبي
وألقى بكفيه الصبي	من الجوع ضعفا ما يمر

1() رواه البخاري ومسلم.

ولا شئ مما يأكل الناس   الحنظل القامي

وليس لنا إلا إليك فرارنا   وأين فرار الناس إلا

فقمت حتى صعدت المنبر، ثم رفعت يـديك، فقلت: (اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا غدقا طبقـا عـاجلا غـير رائث نافعـا غير ضار تملا به الضرع وتنبت به الـزرع وتحـيي بـه الارض بعـد موتها وكذلك تخرجون)

قال الراوي يصف ما حدث: (فوالله ما رد يديـه إلى نحـره حتى ألقت السماء بأردافهـا، وجـاء أهـل الوطابـة يضـجون: (يـا رسـول اللـه الغـرق).. حينهـا رفعت يـديك إلى السـماء، وقلت: (اللهم حوالينـــا ولا علينـــا)، فانجـــاب الســـحاب من المدينـــة، فضحكت سيدي حتى بدت نواجذك، ثم قلت تذكر عمك الصـالح أبا طالب: (لله در أبي طالب لو كان حيا قـرت عينـاه) (1)،وأنت تقصد بذلك قوله فيك:

وأبيض يستسقى   ثمال اليتامى

ولم يكن ذلك ـ سيدي ـ مقصورا على حادثة أو اثنـتين، بـل كان يحدث كثيرا، وقد قـالت الربيـع بنت معـوذ بن عفـراء: بينـا نحن عند رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذا احتاج النــاس إلى الماء، فالتمسوا في الركب ماء، فلم يجدوا، فـدعا رسـول اللـه ﷺ فأمطرت حتى استقى الناس وسقوا(2).

وروي أن وفد سلامان قدموا في شوال سنة عشـر، فقلت لهم: (كيف البلاد عندكم؟) قالوا: مجدبة، فـادع اللـه أن يسـقينا في أوطاننا، فقال ﷺ: (اللهم اسقهم الغيث في بلادهم) فقـالوا: يا رسول الله ارفع يديك، فإنه أكثر وأطيب.. فتبسـمت، ورفعت

1() رواه البيهقي وابن عساكر.

2() رواه أبو نعيم.

يديك حتى بدا بياض إبطيك، ثم رجعوا إلى بلادهم، فوجدوها قـد مطرت في اليوم الذي دعوت فيه، وفي تلك الساعة[1].

ومن تلـك الحاجـات الـتي كـان أصـحابك يقصـدونك فيهـا، وخاصة الفقراء منهم، حاجتهم إلى المطعم، وقد كنت ـ سيدي ـ تلبي حاجتهم، وتدعو الله لهم، فيغدق عليهم بمجـرد دعائـك من كل ما يحتاجون من الرزق..

ومما يروى في ذلـك، مـا حـدث بـه بعض أهـل الصـفة من الفقراء، أنهم بعد صومهم، لم يجدوا ما يفطرون به، ولم يجـدوا من يــدعوهم إلى طعامــه، لشــدة الفاقــة، فــانطلقوا إليــك، فأخبروك، ولم يكن في بيتك شيء، فقلت لهم: (فـاجتمعوا)، ثم دعوت لهم قائلا: (اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتـك، فإنهـا بيدك لا يملكها أحد غيرك)

قال الراوي: (فلم يكن إلا ومسـتأذن يسـتأذن، فـإذا بشـاة مصلية ورغف، فـأمر بهـا رسـول اللـه ﷺ، فوضـعت بين أيـدينا، فأكلنا حتى شبعنا، فقال لنا رسول الله ﷺ: (إنـا سـألنا اللـه من فضله ورحمته، فهذا فضله، وقد ادخر لنا عنده رحمته)[2]

لكنك مع ذلك ـ سيدي ـ ولشدة زهـدك في الـدنيا، لم تكن تدعو لنفسك بمثل تلك الدعوات، بل كنت تقـول: (اللهم اجعـل رزق آل محمد قوتا)[3]

وقد أجاب الله دعاءك، فقد كان رزقك ورزق أهلك القـوت في أكثر الأحيان لا يجاوزونه، وكنت تعلـل ذلـك بقولـك: (مـا لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شـجرة ثم راح

1() رواه أبو نعيم.

2() رواه البيهقي في الدلائل، ورواه الطبراني وإسناده حسن.

3() رواه مسلم.

وتركها)(1)

ومن تلـك الحاجـات الـتي كـان أصـحابك يقصـدونك فيهـا، طلبــاتهم للتــأمين من بعض المخــاوف الــتي كــانت تعــتريهم، وخاصة في تلك البيئة التي اجتمع فيها رؤوس النفاق مع رؤوس الشـرك واليهوديـة، وممـا يـروى في ذلـك أن رجلا أتـاك يشـكو الوحشة، فقلت له: (أكثر من أن تقول: سبحان الملك القـدوس رب الملائكــــة والــــروح جللت الســــموات والأرض بــــالعزة والجبروت)، فقالها الرجل، فذهبت عنه الوحشة والخوف(2).

ولم تتوقف طلباتهم ـ سيدي ـ عند تلك الطلبات.. بـل إنهم كانوا يدعونك حتى في شؤونهم الخاصة، ومن ذلك ما حدث بــه جابر أن امرأة كان بينها وبين زوجها خصومة، فأتيا إليك، فقالت المرأة: هـذا زوجي، والـذي بعثـك بـالحق، مـا في الأرض أبغض إلي منه، وقال الآخر: هذه امرأتي، والـذي بعثـك بـالحق مـا في الأرض أبغض إلي منها، فأمرتهما أن يدنوا إليه، ثم دعوت لهمــا، فلم يفترقا من عندك حتى قالت المرأة: والذي بعثك بالحق مــا خلق الله شيئا أحب إلي منه، وقال الرجل: والذي بعثك بـالحق، ما خلق الله شيئا أحب إلي منها(3).

وكــان بعضــهم يطلب منــك الــدعاء لــه بالبركــة، فكــانت دعواتك تستجاب، وبصورة لم يكونوا يتوقعونها، ومما يـروى في ذلك ما حدث به أنس بن مالك قـال: جـاءت أم سـليم، وهي أم أنس إلى رسول الله ﷺ وقد أزرتني بخمارهـا، وردَّتـني ببعضــه، فقالت: يا رسول الله هذا أُنيس أتيتك به يخدمك فادع اللــه لــه، قال: اللهم أكثر ماله وولده.. وفي لفظ: اللهم أكثر ماله وولــده

1() التِّرمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

2() رواه ابن السني.

3() رواه الطبراني برجال الصحيح غير مقداد بن داود.

وأطِل عمره واغفر له[1]..

وقد ذكر أنس استجابة الله لدعائك له، فقال: (فو اللــه إن مالي لكثير، وإن ولدي وولـد ولـدي يتعـادون على نحـو المائـة.. وحدثتني ابنتي أُمَيْنة أنه قد دفن من صـلبي إلى مقـدم الحجـاج البصرة تسعة وعشرين ومائـة.. وإن ثمـرتي لتحمـل في السـنة مرتين، ولقد بقيت حتى سئمت الحيـاة، وأرجـو الرابعـة.. وكـان لي بستان يحمل في السنة الفاكهة مـرتين، وكـان فيهـا ريحـان يجيء منها ريح المسك)[2]

ويروى أنك دعوت للسائب بن يزيـد، ومسـحت بيـدك على رأسه، فطـال عمـره حـتى بلـغ أربعًـا وتسـعين سـنة، وهـو تـام القامة معتدل، ولم يشب منه الموضع الذي أصـابته يـدك، ومُتِّع بحواسه وقواه[3].

وذكر الجعد بن عبد الـرحمن بن عـوف أثـر هـذه الـدعوة، فقال: (مات السائب ابن يزيد وهو ابن أربع وتسعين سنة، وكان جلدا معتـدلا، وقـال: لقـد علمت مـا متعت بسـمعي وبصـري إلا بدعاء النبي ﷺ)[4]

ويروى أنـك دعـوت لعـروة بن البـارقي بالبركـة في بيعـه، فكان لو اشترى التراب لربح فيه[5]، وروي عنـه قولـه: قـال لي رسول الله ﷺ: (بارك الله لك في صـفقة يمينـك)، فكنت أقـوم بالكناسة (مكان بالكوفة) فما أرجع إلى أهلي حـتى أربح أربعين

1() رواه البخاري في الدعوات.

2() رواه الترمذي وغيره، وقال: حديث حسن.

3() رواه البخاري كتاب المناقب، ومسلم في الفضائل.

4() رواه البخاري.

5() رواه البيهقي.

ألفا(1).

ويروى أنك دعوت لعمرو بن الحمق، بعد أن سقاك لبنا فقلت: (اللهم أمتعه بشبابه)، فمرت به ثمانون سنة لم ير الشعرة البيضاء (2).

ولم تكتف بكل ذلك ـ سيدي ـ بل كنت تصف من الأدعية النافعة ما يحقق لكل طالب حاجة كل ما يريد، ومن ذلك ما روي أن رجلا قال لك: (يا رسول الله، إن الدنيا أدبرت عني وتولت)، فقلت له: (فأين أنت من صلاة الملائكة، وتسبيح الخلائق، وبه يرزقون، قل عند طلوع الفجر: سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله العظيم، استغفر الله، مائة مرة، تأتيك الدنيا صاغرة)، قال الراوي: فمكث الرجل ثم عاد، فقال: يا رسول الله، لقد أقبلت علي الدنيا، فما أدري أين أضعها(3).

ولم يكن ذلك سيدي خاصا بحياتك، بل إن صحابتك، فمن بعدهم، كانوا يتوسلون بك إلى الله بعد وفاتك، فيتحقق لهم كل ما يريدون، وقد روي عن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً كان يختلف على عثمان بن عفان في حاجته، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين وقل: (اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي)، وتذكر حاجتك ورُح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على

1() رواه أبو نعيم.

2() رواه ابن أبي شيبة في (مسنده) وأبو نعيم وابن عساكر.

3() رواه الخطيب في (رواة مالك).

الطنفسة، فقال: حاجتك، فذكر حاجته وقضاها لـه، ثم قـال لـه: ما ذكرت حاجتك حتى كـان السـاعة، وقـال: مـا كـانت لـك من حاجّة، فاذكرها، ثم إنّ الرجل خـرج من عنـده فلقي عثمـان بن حنيف فقال له: (جزاك الله خيراً، ما كان ينظـر في حـاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلّمتَه فيّ)، فقال عثمان بن حـنيف: (واللـه مـا كلّمتُه فيك، ولكنّي شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال لـه النـبي ﷺ: (إن شـئت دعـوتُ، وإن شـئتَ صبرتَ وهو خير؟) قـال: فادعُـهُ، فـأمره ﷺ أن يتوضّـأ فيُحسـن وضوءه ويُصلّي ركعتين ويـدعو بهـذا الـدعاء: (اللهم إنّي أسـألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبي الرحمة يا محمّد إنّي أتوجّه بـك إلى ربّي في حاجتي لتُقضى، اللهمّ شفّعه فيّ)، فوالله مـا تفرّقنـا وطـال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضُرّ [1].

فيا سيدي يا رسول الله.. أتوسل بـك إلى اللـه أن يجعلـك في قلوبنا وأرواحنا، وأن تكون معنا في كل أحوالنا.. فأنت جنتنا وسعادتنا.. وبك راحتنا وفرحتنا.. ومن كنت معه لا يعوزه شيء.. ومن كنت صاحبه لا تصيبه فاقة.

فنسألك ـ سيدي ـ أن ترضى عنا، حـتى تتحقـق لنـا معيتـك التي لا تتحقق إلا للذين رضـيت عنهم.. واجعلنـا ــ سـيدي ــ من حزبك وفريقك وأنصارك والمستشهدين بين يدي وليك الذي هو خليفتك وناصرك ومؤيدك ومسدد أمر أمتك.. إنك أنت الوسـيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

1() انظر الحـديث كـاملا في: المعجم الكبـير للطـبراني:9/ـ 30 و 31.. وانظـر قصـة الأعمى في: أحمد في المسند (4/ 138)، والترمذي (تحفة 10/ 132، 133)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 417)، وابن ماجة في السنن (1/ 441) والبخاري في التاريخ الكبير (6/ 210). والطبراني في المعجم الكبير (9/ 19)، وفي الدعاء أيضاً (2/ 1289) والحاكم في المستدرك (1/ـ 313، ـ 519) وصححه وسـلمه الـذهبي والـبيهقي في دلائـل النبوة (6/ 166)، وفي الدعوات الكبير.

مهبط البركات

سيدي يا رسول الله.. أيها العبد المبارك الـذي جعلـه اللـه ربيعا للحياة؛ فحيث ما حل أزهرت وأينعت وأثمرت.. فلا يسـكن قلبا إلا سكن معه السرور، وملأت جوانحه السعادة.. ولا يسـكن عقلا إلا طردت عنه الأوهـام والوسـاوس والشـبهات.. ولا تتبـنى اسـمه دولـة إلا انتصـرت على أعـدائها، وتطـورت في كـل المجالات..

وكيف لا تكون كـذلك سـيدي، وأنت القـريب من اللـه.. فلا يقترب منك أحد إلا اقترب من فضل الله، ونال من بركاتـه.. ولا يبتعـد عنـك إلا ونـزل عليـه الشـؤم، وامتلأت حياتـه بالتعاسـة والظلمات.. وكيف ينال النور من ابتعد عن سراجه المنير؟

لا أزال أذكر سيدي حليمة السعدية.. تلك التي جاءت مكة، وأنت صبي صغير لا تزال في حجر أمك، فقد ذكرت أنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسـوة من بـني سعد، وذلك في سنة شهباء، لم تبـق لهم شـيئا.. لكنهـا فـوجئت بالسعد يطل عليها بمجرد حملها لك، وأخـذك معهـا إلى بلادهـا، وقد عبرت عن ذلك بقولها: (فلمـا أخذتـه رجعت بـه إلى رحلي، فلمـا وضـعته في حجـري أقبـل عليـه ثـدياي بمـا شـاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبـل ذلـك.. وقـام زوجي إلى شـارفنا تلـك، فـإذا إنهـا لحافـل فحلب منهـا مـا شـرب وشـربت معـه حـتى انتهينـا ريـا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا: تعلمي واللـه يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، فقلت: والله إني لأرجو ذلك) (1)

1() سيرة ابن إسحاق، (ص: 49)

ثم ذكرت عجبها وعجب الناس مما حصل لهم عند العودة، فقالت: (ثم خرجنـا وركبت أتـاني، وحملتـه عليهـا معي، فواللـه لقطعت بالركب ما يقدر عليها أبي ذؤيب، حتى قال الذين معي: ويحك أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خـرجت عليهـا؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنا.. ثم قدمنا منازلنـا من بلاد بـني سـعد، ومـا أعلم أرضـا من أرض الله أجدب منها، فكـانت غنمي تـروح علي حين قـدمنا بـه معنـا شـباعا لبنـا، فنحلب ونشـرب ومـا يحلب إنسـان قطـرة لبن ولا يجـدها في ضـرع حـتى كـان الحاضـرون من قومنـا يقولـون لرعيـانهم: ويلكم اسـرحوا حيث يسـرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطـرة لبن وتـروح غنمي شـباعا لبنا.. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته)(1)

ولا أزال أذكر ـ سيدي ـ فترة كفالة عمـك أبي طـالب لـك، وكيف ظهرت بركاتك عليه.. وقـد وصـف بعضـهم ذلـك، فقـال: (لما توفي عبد المطلب كفل أبـو طـالب رسـول اللـه ﷺ فكـان يكون معه، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده، وكـان لا ينـام إلا إلى جنبه، وصب بـه صـبابة لم يصـب مثلهـا قـط، وكـان يخصـه بالطعام، وكان عيـال أبي طـالب إذا أكلـوا جميعـا أو فـرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا.. وكان أبو طـالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم، يقول: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فيفضلون من طعـامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعهم، وإن كان لبنا شرب أولهم، ثم يتنـاول العيال القعب، فيشربون منـه، فـيروون عن آخـرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبا وحده، فيقول أبـو طـالب: إنـك لمبـارك.. وكـان الصـبيان يصـبحون رمصـا شـعثا، ويصـبح

1() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (1/ 387)

رسول الله ﷺ دهينا كحيلا)[1]

ولهذا كان عمك يستسقي بك، وكيف لا يفعل ذلك، وهو يعلم من شأنك ما سمعه من أبيه وأمك، وقد روي عن بعضهم قوله: (قدمت مكة وقريش في قحط، فقائل منهم يقول: اعتمدوا واللات والعزى، وقائل منهم يقول: اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي: أنى تؤفكون، وفيكم بقية إبراهيم وسلالة إسماعيل، قالوا: كأنك عنيت أبا طالب؟ قال: إيها.. فقاموا بأجمعهم، وقمت معهم، فدققناه عليه بابه، فخرج إلينا رجل حسن الوجه، عليه إزار قد اتشح به، فثاروا إليه، فقالوا: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق لنا.. فخرج أبو طالب، ومعه غلام كأنه شمس دجنة، تجلت عليه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأضبعه الغلام وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا أغدق واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي)[2]

وقد قال أبو طالب في ذلك يمدحك:

وأبيض يستسقي   ثمال اليتامى

يلوذ به الهلاك من آل   فهم عنده في نعمة

وقد حدث عن بعض بركاتك عليه، فقال: كنت بذي المجاز مع ابن أخي ـ يعني النبي ﷺ ـ فأدركني العطش، فشكوت إليه، فقلت: يا ابن أخي قد عطشت.. وما قلت له ذلك، وأنا أرى عنده شيئا إلا الجزع قال: فثنى وركه، ثم قال: يا عم عطشت؟ قلت: نعم.. فأهوى بعقبه إلى الأرض، فإذا أنا بالماء، فقال:

1() رواه ابن سعد والحسن بن عرفة وابن عساكر وغيرهم.

2() السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (1/ 170)

اشرب، فشربت)(3)

هذه بعض بركاتك على أهل بيتك قبل أن يبعثك الله رسولا إلى عباده، أما بعدها، فهي كثيرة جدا، لا يمكن حصرها ولا وصفها ولا حدها.. وكيف يمكن ذلك.. وما من فرد من أمتك إلا وهو يعيش في ظلال بركاتك التي لا تنتهي؟

وكيف يمكن ضبطها، ونحن كلما ذكرناك، وملأنا قلوبنا بك، كلما من الله علينا من نعم الظاهر والباطن ما لا يمكن وصفه ولا ضبطه ولا حده.

ولكن مع ذلك ائذن لي ــ سيدي ــ أن أشنف قلبي بذكر بعض بركاتك على حياة الناس في الجيل الذي تشرف بظهورك المبارك فيه.. وهي نقطة من بحر بركاتك.. وقبس من نورها.. وهي كافية للدلالة على ما أتاحه الله لك.. وكيف لا يتيحه، وأنت أقرب المقربين، وسيد الأولين والآخرين.

فمن تلك البركات ما حدث به جابر قال: قام رسول الله ﷺ أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يصب عند واحدة منهن شيئا، فأتى فاطمة، فقال: (يا بنية، هل عندك شيء آكله، فإني جائع) فقالت: لا والله، فلما خرج من عندها رسول الله ﷺ بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها، فوضعته في جفنة لها وغطت عليها، وقالت: والله، لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، فكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له: قد أتى الله بشيء فخبأته لك، قال: (هلمي يا بنية)، فكشفت عن الجفنة، فإذا هي مملؤة خبزا ولحما، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله عز وجل، فحمدت الله عز وجل وصلت على نبيه ﷺ وقدمته إلى

3() رواه الخطيب وابن عساكر.

رسول الله ﷺ فلما رآه حمد الله عز وجل، وقال: (من أين لك هذا يا بنية؟) قالت: يا أبت، هذا من عند الله، إن اللـه يـرزق من يشـاء بغير حساب، فقال: (الحمد لله الـذي جعلـك شـبيهة بسـيدة نسـاء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله عز وجل شيئا فسئلت عنـه قالت: هو من عنـد اللـه، إن اللـه يـرزق من يشـاء بغـير حسـاب،) فبعث رسـول اللـه ﷺ إلى علي، ثم أكـل رسـول اللـه ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين وجميـع أزواج النـبي ﷺ وأهـل بيتـه حـتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هي فأوسعت بقيتها على جميـع جيرانهـا، وجعل الله عز وجل فيها بركة وخيرا كثيرا (1).

ومنها ما حدث به الإمام علي قـال: نمنـا ليلـة بغـير عشـاء فأصبحت فالتمست فأصبت ما أشتري به طعاما ولحما بــدرهم، ثم أتيت به فاطمـة فخـبزت وطبخت، فلمـا فـرغت، قـالت: لـو أتيت أبي، فدعوته، فجئت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: (أعــوذ بالله من الجوع ضـجيعا)، فقلت: يـا رسـول اللـه، عنـدنا طعـام فهلم، فجاءوا والقدر تفور، فقال: (اغرفي لعائشـة في صـحفة) حتى غرفت لجميـع نسـائه، ثم قـال: (اغـرفي لأبيـك وزوجـك)، فغرفت، فقال: (اغرفي فكلي)، فغرفت ثم رفعت القـدر، وإنهـا لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله عز وجل(2).

ومنها ما حدث به جابر بن عبد الله عن نفسه، وكيف نالتـه بركاتك، حيث ذكر أن أباه توفي، وترك عليه ثلاثين وسقا، لرجل من اليهود، فاستنظره جـابر، فـأبى أن ينظـره، فكلمـك لتشـفع إليه، فجئت اليهودي، فكلمته ليأخذ تمر نخلـه بالـذي لـه، فـأبى، فدخلت إلى بسـتانه، فمشـيت فيـه، ثم قلت لـه: يـا جـابر، جـد

1() رواه أبو يعلى، انظر: السيوطي في الدر المنثور 2 / 20 وابن كثير في التفسير 2 / 29.

2() رواه ابن سعد:1 / 124.

له(1)، فأوفه الذي له، فجد بعـدما رجعت، فأوفـاه ثلاثين وسـقا، وفضلت له سبعة عشر وسقا(2).

ومثل ذلك ما حصل لفرس أنس بن مالك، التي حدث عنها وعن بركاتك عليها، فقال: (فزع الناس، فركب النـبي ﷺ فرسـا لأبي طلحة بطيئا، ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه، فقال: (لن تراعوا إنه لبحر)، قـال: فواللـه مـا سـبق بعـد ذلك اليوم)(3)

ومثل ذلك ما حصـل لخبـاب بن الأرت، فقـد حـدثت ابنتـه، قالت: خرج خباب في سرية، فكان رسول الله ﷺ يتعاهدنا حتى كان يحلب عنزا لنا، فكان يحلبها في جفنة لنا فتمتلئ فلما قـدم خباب حلبها، فعاد حلابها كما كـان، فقـالت أمي: أفسـدت علينـا شـاتنا، قـال: ومـا ذاك؟ قـالت: إن كـانت لتحلب مـل ء هـذه الجفنة، قال: ومن كان يحلبها؟ قالت: رسول الله ﷺ قال: وقـد عدلتيني به؟ هو والله أعظم بركة (4).

ومثل ذلك ما حصل لنوفل بن الحـارث فقـد روي عنـه أنـه استعان بـك من أجـل الـزواج، فأرسـلت بعض أصـحابك بدرعـه فرهناه عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير، فدفعتـه إليـه، قـال: فطعمنا منه نصف سنة ثم كلناه فوجدناه، كما أدخلناه.. وعندما

1() الجداد: قطع الثمر وجَنْيُه وحصاده.

2() رواه البخاري، قال ابن كثير: وهذا الحديث قد روي من طرق متعددة عن جابر بألفاظ كثيرة، وحاصلها أنه ببركة رسول الله ﷺ، ودعائه له، ومشيه في حائطه وجلوسه على تمره، وَفَى الله دين أبيه، وكان قد قتل بأحد، وجابر كان لا يرجو وفاءه في ذلك العام ولا ما بعده، ومع هذا فضل له من التمر أكثر وفوق ما كان يؤمله ويرجوه ولله الحمد والمنة.(انظر: البداية والنهاية 6/0121)

3() رواه البخاري.

4() رواه أحمد وأبو داود الطيالسي وابن سعد والطبراني.

ذكر ذلك لك قلت له: (لو لم تكله لأكلت منه ما عشت)(1)

ومثل ذلك ما حصل لحمـزة الأسـلمي، فقـد روي عنـه أنـه قـال: عملت طعامـا للنـبي ﷺ ثم ذهبت بـه، فتحـرك بـه النحي فأهريق ما فيه، فقلت: على يدي أهريق طعام رسـول اللـه ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (ادنه) فقلت: يـا رسـول اللـه لا أسـتطيع، فـرجعت مكـاني، فـإذا النحي يقـول قب قب، فقلت: مـه قـد أهريق فضلة فضلت فيه، فاجتذبته، فإذا هـو قـد ملئ إلى يديـه، فأوكيته، ثم جئت إلى رسول اللـه ﷺ فـذكرت لـه ذلـك، فقـال: (أما إنك لو تركته لسال واديا سمنا)(2)

ومثل ذلك ما حصل لمسـعود بن خالـد فقـد روي عنـه أنـه قال: بعثت إلى رسول اللـه ﷺ شـاة، ثم ذهبت في حاجـة، فـرد رسول الله ﷺ شطرها، فرجعت، فإذا لحم، فقلت: يا أم خنـاس ما هذا اللحم؟ قالت: رد رسـول اللـه ﷺ من الشـاة الـتي بعثت بها إليـه شـطرها، قلت: مالـك لا تطعمينـه عيالـك، قـالت: هـذا سؤرهم، وكلهم قد أطعمت، وكانوا يذبحون الشاتين والثلاثة فلا تجزئهم(3).

ومثل ذلك ما حصل لعبد الله بن طهفة فقد روي عنــه أنــه قال: كان رسول الله ﷺ إذا اجتمع الضـيفان قـال: (لينقلب كـل رجـل مـع جليسـه)، فكنت أنـا ممن انقلب مـع رسـول اللـه ﷺ فقال: (يا عائشة، هل من شـيء) قـالت: حويسـة كنت أعـددتها لإفطارك، فأتي بها في قعبة فأكل منها رسول اللـه ﷺ شـيئا ثم قدمها إلينا ثم قال: (بسم الله كلوا) فأكلنا منهـا حـتى واللـه مـا ننظر إليها، ثم قال: (هـل من شـراب؟) فقـالت لبينـة: أعـددتها

1() رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل.

2() رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي.

3() رواه الطبراني.

لإفطارك، فجاءت بها فشرب منها شيئا، ثم قال: (باسم الله اشربوا)، فشربنا حتى والله ما ننظر إليها[1].

ومثل ذلك ما حصل لرجل أتاك يستطعمك، فأطعمته شطر وسق شعير، فما زال يأكل منه هو وامرأته ومن ضيفهما حتى كالوه فأخبروك، فقلت له: (لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم)[2]

ومثل ذلك ما حصل لأم سليم، فقد حدثت عن بعض ما رأته من بركاته، فقالت: كانت لنا شاة فجمعت من سمنها في عكة فملأتها العكة، وبعثت بها مع الجارية فقالت: أبلغي هذه العكة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم، قال: (فرغوا لها عكتها)، ففرغت العكة فدفعت إليها فانطلقت وجاءت أم سليم، فرأت العكة ممتلئة تقطر فقالت: أليس قد أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله ﷺ فقالت: قد فعلت فإن لم تصدقيني فانطلقي فسلي رسول الله ﷺ فانطلقت أم سليم، فقالت: يا رسول الله إني بعثت إليك بعكة سمن قال: (قد فعلت جاءت بها)، قالت: والذي بعثك بالهدى ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمنا، فقال لها رسول الله ﷺ: (يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيه، كلي وأطعمي)، فجاءت إلى البيت، ففتت لنا كذا وكذا وتركت فيها ما ائتدمنا شهرا أو شهرين[3].

ومثل ذلك ما حصل يوم الخندق، حيث أطعمت ــ سيدي ـ جيش المسلمين الذي كان يحفر يوم الخندق من طعام فئة قليلة من الناس، وقد حدث صاحب الوليمة جابر بن عبد الله

1() رواه أحمد وأبو نعيم في الدلائل.

2() رواه مسلم.

3() رواه أبو يعلى والطبراني وأبو نعيم وابن عساكر.

عن ذلك، فقال: كنا يوم الخنـدق نحفـر الخنـدق، فعرضـت فيـه كذانة، وهي الجبل، فقلنا: يا رسول الله، إن كذانـة قـد عرضـت فيه، فقال رسول الله ﷺ: (رشوا عليها)، ثم قام رسول الله ﷺ، فأتاهـا، وبطنـه معصـوب بحجـر من الجـوع، فأخـذ المعـول أو المسحاة، فسمى ثلاثا ثم ضرب، فعادت كثيبا أهيـل، فقلت لـه: ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل، ففعـل، فقلت للمـرأة: هـل عنـدك من شـيء؟ فقـالت: عنـدي صـاع من شـعير وعنـاق، فطحنت الشـعير وعجنتـه، وذكت العنـاق وسـلختها، وخليت من المـرأة، وبين ذلـك، ثم أتيت رسـول اللـه ﷺ، فجلسـت عنـده ساعة ثم قلت: ائذن لي يا رسـول اللـه، ففعـل، فـأتيت المـرأة فـإذا العجين واللحم قـد أمكنـا، فـرجعت إلى رسـول اللـه ﷺ، فقلت: إن عندي طعيما(1) لنا، فقم يا رسـول اللـه أنت ورجلان من أصحابك، فقال: (وكم هو؟) فقلت: صاع من شعير، وعنـاق، فقال للمسلمين جميعا: (قوموا إلى جـابر)، فقـاموا، فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، فقلت: جاء بالخلق على صـاع شـعير وعناق، فدخلت على امرأتي أقول: افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالجند أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامـك؟ فقلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرناه ما عندنا، فكشـفت عني غما شديدا.. فدخل رسول الله ﷺ فقال: خذي ودعيني من اللحم، فجعل رسول الله ﷺ يثرد، ويغرف اللحم، ثم يخمر هـذا، ويخمر هـذا، فمـا زال يقـرب إلى النـاس حـتى شـبعوا أجمعين، ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا، ثم قـال رسـول اللـه ﷺ: (كلي وأهدي)، قال جابر: فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع(2).

ومثل ذلـك مـا حصـل في نفس الغـزوة، فقـد حـدثت ابنـة

1() طعيما: تصغير طعام، أي طعاما قليلا.

2() رواه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي في السنن الكبرى والدارمي في سننه وأبو عوانة وابن أبي شيبة في المصنف والفريابي في دلائل النبوة والأصبهاني في دلائل النبوة وغيرهم.

بشير بن سعد، قالت: دعتني أمي فأعطتني جفنـة من تمـر في ثـوبي، ثم قـالت: يـا بنيـة، اذهـبي إلى أبيـك وخالـك عبـد اللـه بغدائهما، قالت: فأخذته ثم انطلقت بهـا، فمـررت برسـول اللـه ﷺ فقـال: (تعـالي مـا معـك؟) فقلت: يـا رسـول اللـه هـذا تمـر بعثتـني بـه أمي إلى أبي بشـير بن سـعد وخـالي عبـد اللـه بن رواحة يتغديانه، فقال: (هاتيه)، فصببته في كفي رسول اللـه ﷺ فما ملأهـا، ثم أمـر بثـوب فبسـط، ثم دعـا بـالتمر فصـبه فـوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: (اخرج في أهل الخندق أن هلمــوا إلى الغـداء، فـاجتمع أهـل الخنـدق عليـه، فجعلـوا يـأكلون منـه وجعـل يزيـد حـتى صـدر أهـل الخنـدق عنـه، وإنـه ليسـقط من أطراف الثوب)(1)

ومثل ذلك مـا حـدث بـه أنس، قـال: جئت رسـول اللـه ﷺ فوجدته جالسا مـع أصـحابه يحـدثهم قـد عصـب بطنـه بعصـابة، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول اللـه ﷺ بطنـه؟ فقـالوا: من الجـوع، فـذهبت إلى أبي طلحـة فأخبرتـه فـدخل على أمي فقال: هل من شيء؟ قالت: نعم عندي كسر من خبز وتمـرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه وإن جاء معه بأحـد قـل عنهم، فقال لي أبو طلحة: قم قريبا من رسول الله ﷺ فإذا قام فدعه حتى يتفرق عنه أصحابه ثم اتبعه حتى إذا قـام على عتبـة بابه، فقل: أبي يـدعوك، ففعلت ذلـك، فلمـا قلت: أبي يـدعوك، قال لأصحابه: (يا هؤلاء تعالوا) ثم أخـذ بيـدي فشـدها، ثم أقبـل بأصحابه حتى إذا دنونا من بيتنا أرسل يدي فـدخلت وأنـا حـزين لكثرة من جاء به، فقلت: يا أبتاه، قد قلت لرسول الله ﷺ الذي قلت لي فدعا أصحابه، وقد جاء بهم، فخرج أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إنما أرسلت أنسا يدعوك وحدك ولم يكن عندي مـا يشبع من أرى، فقال: رسول الله ﷺ ادخـل، فـإن اللـه سـيبارك

1() رواه ابن سعد، وانظر: ابن كثير في البداية 6 / 133.

فيما عندك، فدخلت فقال: (اجمعوا ما عندكم ثم قربوه) فقربنا ما كـان عنـدنا من خـبز وتمـر، فجعلنـاه على حصـير فـدعا فيـه بالبركة، فقال: (يدخل علي ثمانية) فأدخلت عليه ثمانية، فجعـل كفه فوق الطعام، فقال: (كلوا وسموا الله عز وجل) فأكلوا من بين أصابعه حتى شبعوا، ثم أمـرني أن أدخـل عليـه ثمانيـة فمـا زال ذلك أمره حـتى دخـل عليـه ثمـانون رجلا كلهم يأكـل حـتى يشبع، ثم دعاني وأمي وأبا طلحـة، فقـال: (كلـوا)، فأكلنـا حـتى شبعنا، ثم رفع يـده، فقـال: يـا أم سـليم، أين هـذا من طعامـك حين قدمتيه؟ فقالت: بـأبي أنت وأمي، لـولا أني رأيتهم يـأكلون لقلت: ما نقص من طعامنا شيء(1).

ومثل ذلك ما حصـل في غـزوة تبـوك، حيث أطعم رسـول الله ﷺ جيش المسلمين من طعام فئـة قليلـة من النـاس، فقـد حدث ابن عباس قال: لما نزل رسول الله ﷺ مـر الظهـران في عمرته بلغ أصحابه أن قريشا تقـول: مـا يتبـاعثون من العجـف، فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهورنا، فأكلنا من لحمـه وحسـونا من مرقة لأصبحنا غدا ندخل على القوم وبنـا جمامـة فقـال: (لا تفعلـوا، ولكن اجمعـوا لي من أزوادكم)، فجمعـوا لـه، وبسـطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تولوا، وحثا كل واحد منهم في جرابه (2).

هذه ـ سيدي ـ بعض بركاتك المرتبطة بالطعام، والذي كان النـاس في ذلـك الحين في أشـد الحاجـة إليـه.. وهكـذا كـانت بركاتـك على الميـاه، والـتي كـانت الحاجـة إليهـا، لا تقـل عن الحاجة إلى الطعام، خاصة في تلك البلاد المجدبـة.. فقـد رويت من بركاتك فيهـا الكثـير، فقـد كـانت بركاتـك تتـنزل على الآبـار الجافـة، فتتحـول إلى آبـار مملـوءة مـاء.. وتتـنزل على الميـاه

____

1() رواه مسلم (143 / 2040) والبيهقي في الدلائل 1 / 963 وأبو نعيم في الدلائل 148 وانظر المجمع 8 / 306.

2() رواه أحمد231.

المالحة، فتتحول إلى مياه عذبة.. وتتنزل على المياه القليلة، فتتحول إلى مياه كثيرة.

ومما يروى في ذلك بركاتك التي تنزلت على بئر بتبوك، فقد قلت لأصحابك حين جئتها: (إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي).. وكانت العين جافة ليس فيها إلا القليل من الماء.. فقمت، وغسلت وجهك ويديك بمائها، ثم أعدته فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قلت لمعاذ: (يا معاذ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماء ههنا قد ملئ جنانا)(1)

ومثل ذلك ما حصل ببئر بقباء، فعن يحيى بن سعيد أن أنس بن مالك آتاهم بقباء، فسأله عن بئر هناك، قال: فدللته عليها فقال: لقد كانت هذه، وإن الرجل لينضح على حماره فتنزح، فجاء رسول الله ﷺ وأمر بذنوب، فسقى، فإما أن يكون توضأ منه، وإما أن يكون تفل فيه، ثم أمر به، فأعيد في البئر، فما نزحت بعد(2).

ومثل ذلك ما حصل ببئر باليمن، فعن زياد بن الحارث الصدائي قال: قلت: يا رسول الله، إن بئرنا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها، وإذا كان في الصيف قل ماؤها وتفرقنا عن مياه حولنا، وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو، فادع الله لنا في بئرنا، فيسقينا ماؤها، فنجتمع عليها، ولا نتفرق.. فدعا رسول الله ﷺ بسبع حصيات، فعركهن بيده، ودعا فيهن، ثم قال: (اذهبوا بهذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة، واذكروا اسم الله عز وجل)، قال: ففعلنا ما قال

(1) رواه أحمد.

(2) رواه البيهقي.

لنا، فما استطعنا أن ننظر إلى قعرها (يعني البئر)(1)

ومثل ذلك ما حصل ببئر أنس، فعن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ منزلنا، فسقيناه من بئر كانت لنا في دارنا، وكانت تسمى في الجاهلية (النزور) فتفل فيها فكانت لا تنزح بعد.

ومثل ذلك ما حصل ببئر الحديبية، فعن البراء وسلمة بن الأكوع قالا: قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبية، ونحن أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على شفيرها، قال البراء: وأتي بدلو فيه ماء فبصق ودعا، ثم قال: (دعوها ساعة) وقال سلمة: فجاشت، فأرووا أنفسهم وركابهم بالماء، فسقينا واستقينا)(2)

ومثل ذلك ما حصل ببئر غرس بالمدينة، فعن أنس قال: جئنا مع رسول الله ﷺ إلى قباء، فانتهى إلى بئر غرس، وإنه ليستقي منه على حمار، ثم نقوم عامة النهار ما نجد فيها ماء، فمضمض في الدلو ورده، فجاشت بالرواء(3).

ومثل ذلك ما ورد في الروايات الكثيرة من بركاتك على الماء القليل، فيتحول إلى كثير، ومن تلك الروايات ما حدث به أنس قال: كنا في سفر مع رسول الله ﷺ، فقال لأبي قتادة: (أمعكم ماء؟)، قلت: نعم، في ميضأة فيها شيء من ماء، قال: (ائت بها)، قال: فأتيته بها، فقال لأصحابه: (تعالوا مسوا منها فتوضئوا)، وجعل يصب عليهم، فتوضأ القوم، وبقيت جرعة، فقال: (يا أبا قتادة، احفظها، فإنها ستكون لها نبأ).. فذكر الحديث إلى أن قال: فقالوا: يا رسول الله، هلكنا عطشنا،

1() البيهقي في الدلائل: 4 / 127، 5 / 357 وابن كثير في البداية: 5 / 84.

2() رواه البخاري ومسلم، وفي غير روايتيهما من طريق ابن شهاب فأخرج سهما من كنانته فوضعه في قليب بئر ليس فيه ماء فروى الناس حتى ضربوا بعطن خيامها.

3() رواه ابن سعد.

انقطعت الأعناق، فقال: (لا هلك عليكم)، ثم قال: (يا أبا قتـادة، ائت بالميضأة)، فأتيته بها، فقال: (أطلقـوا لي قـدحي)، فحللتـه فأتيته به، فجعـل يصـب فيـه ويسـقي النـاس، فـازدحم النـاس، فقــال رســول اللــه ﷺ: (أيهــا النــاس أحســنوا الملأ، فكلكم سيروى)، فشرب القوم، وسقوا دوابهم وركابهم وملئوا ما كـان معهم من إداوة وقربة ومزادة حتى لم يبق غيري وغـيره، قـال: (اشرب يا أبا قتـادة)، قلت: اشـرب أنت يـا رسـول اللـه، قـال: (ساقي القوم آخرهم شربا)، فشربت، وشرب بعدي، وبقي في الميضأة نحو مما كان فيها وهم يومئذ ثلاثمائة[1].

ومثل ذلك ما حصل في غزوة هوازن، فقد حدث سلمة بن الأكوع، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن فأصابنا جهد شديد فـأتى بشـيء من مـاء في إداوة، فـأمر بهـا فصـبت في قـدح، فجعلنا نتطهر حتى تطهرنا جميعا[2].

ومثل ذلك مـا حـدث بـه عمـران بن حصـين قـال: كنـا مـع رسول الله ﷺ في سفر، فاشتكى إليه الناس العطش، فنزل ثم دعا عليا، ورجلا آخر، فقال: (اذهبا فابغيا الماء فإنكمـا سـتجدان امـرأة بمكـان كـذا وكـذا معهـا بعـير عليـه مزادتـان فأتيـا بهـا)، فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين من مـاء على بعـير لهـا، فقـالا لها: أين الماء؟ قالت: عهـدي بالمـاء أمس هـذه السـاعة، فقـالا لهـا: انطلقي إذا، قـالت: إلى أين؟ قـالا: إلى رسـول اللـه ﷺ قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الـذي تعـنين[3]، فانطلقـا فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه بالحديث، قـال: فاسـتنزلوها عن

1() رواه مسلم.

2() الدلائل للبيهقي (4 / 119).

3() ذكر العلماء حسن الأدب الذي حوى عليه قول علي ورفيقه لها لما قالت: الصابئ: (هو الذي تعنين)، لأنه لو قالا لها: لا، لفات المقصود، أو نعم، لما حسن بهما، إذ فيه طلب تقرير ذلك، فتخلصا أحسن تخليص.

بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء، فأفرغ فيه من أفواه المزادتين، فمضمض في الماء، وأعاده في أفواه المزادتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق الغرارتين، ونودي في الناس: (اسقوا، واستقوا)، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وملأنا كل قربة معنا وإداوة، وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها وأيم الله، لقد أقلع عنها، وإنها ليخيل إليها أنها أشد ملئة منها حيث ابتدأ فيها فقال النبي ﷺ: (اجمعوا لها طعاما)، فجمعوا لها ما بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما، فجعلوه في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، وقالوا لها: تعلمين ما رزأنا من مائك شيئا، ولكن الله هو الذي أسقانا.. فجاءت المرأة أهلها فأخبرتهم، فقالت: جئتكم من أسحر الناس، أو إنه لرسول الله حقا، قال: فجاء أهل تلك القرية، حتى أسلموا كلهم(1).

ومثل ذلك ما وردت به النصوص الكثيرة المتواترة(2) من نبع الماء من بين أصابعك الشريفة، وفي مرات متعددة كثيرة.. ومن تلك الروايات ما حدث به أنس، قال: كان رسول الله ﷺ بالزوراء، وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء، فحين بسط يده فيه فضم أصابعه فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ فتوضأوا من عند آخرهم.. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟

1() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

2() قال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت عنه من طرق كثيرة يفيد عمومها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، قال: ولم يسمع بمثل هذه المعجزة العظيمة من غير نبينا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه.

ونقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال: نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى ﷺ بالعصا فتفجرت منه المياه، لان خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروجه من بين اللحم والدم.

قال: كنا زهاء ثلثمائة(1).

وحدث به عبد الله بن مسعود قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ليس معنا ماء، فقال: اطلبوا من معه فضل ماء، فأتى بماء فوضعه في إناء، فوضع يده فيه، فجعل الماء يجري ــ وفي لفظ يخرج من بين أصابعه ــ ثم قال: (حي على الطهور المبارك، البركة من الله) فتوضأوا وشربوا، قال عبد الله: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)(2)

وحدث جابر بن عبد الله قال: عطش الناس يوم الحديبية، وكان الذي بين يديه ركوة يتوضأ منها وجهش الناس نحوه، قال: (مالكم؟) قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ولا ماء نشربه إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قال سالم: قلت لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة(3).

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه النسائي والبيهقي وابن مردويه.

3() رواه البخاري ومسلم، وهذا الحديث لا يتعارض مع ما ورد في حديث البخاري عن البراء بن عازب قال: كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ماء فبلغ رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فمضمض وبخ في البئر، فمكث غير بعيد ثم استقينا حتى روينا وصررنا ركائبنا.

لأن كل حديث له محل خاص، بالإضافة إلى أن بركته ﷺ المرتبطة بالبئر مستمرة باقية في البئر بخلاف نبع الماء بين أصابعه الذي غطى حاجة الصحابة للماء في ذلك المحل فقط.

وقد جمع ابن حجر بينهما، فقال: ويحتمل أن يكون الماء لما انفجر من بين أصابعه ويده في الركوة وتوضئوا كلهم وشربوا أمر حينئذ بصب الماء الذي بقي في الركوة في البئر، فتكاثر الماء فيها.

وفي هذا الجمع بعض التكلف، وأولى منه القول بتعدد الحوادث، وهو ما ذكره ابن حبان.

وحدث أبو قتادة، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ نسير في الجيش إذ لحقهم عطش كاد يقطع أعناق الرجال والخيل والركاب عطشا، فدعا بركوة فيها ماء فوضع أصابعه عليها، فنبع الماء من بين أصابعه، فاستقى الناس، وفاض الماء حتى رووا خيلهم وركابهم، وكان من العسكر اثنا عشر ألف بعير، والناس ثلاثون ألفا، والخيل اثنا عشر ألف فرس(1).

وحدث ابن عباس قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم، وليس في العسكر ماء، فقال رجل: يا رسول الله، ليس في العسكر ماء، قال: هل عندك شيء؟.. قال: نعم فأتي بإناء فيه شيء من ماء فجعل رسول الله ﷺ أصابعه في الإناء وفتح أصابعه، قال: فرأيت العيون تنبع من بين أصابع النبي ﷺ فأمر بلالا ينادي في الناس بالوضوء المبارك(2).

وحدث أبو ليلى الأنصاري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصابنا عطش، فشكونا إليه، فأمره بحفرة فوضع عليها نطعا، ووضع يده عليها، وقال: (هل من ماء؟)، فأتي بماء، فقال لصاحب الإداوة: (صب الماء على كفي، واذكر اسم الله)، ففعل.. قال أبو ليلى: (فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ حتى روى القوم وسقى ركابهم)(3)

هذه ـ سيدي ـ بعض بركاتك المرتبطة بالطعام والمياه وحاجات الناس الأساسية.. أما بركاتك على الأرواح والقلوب والعقول.. فلا يمكن عدها ولا إحصاؤها.. فأنت شمسها ونورها ودفؤها وحنانها.. ولولاك لظلت قابعة في الظلمات، ممتلئة بالجفاء والغلظة والقسوة.

1() رواه أبو نعيم.

2() رواه أحمد والبزار.

3() رواه الطبراني وأبو نعيم.

لقد راح بعض المشاغبين من قومي ــ سـيدي ــ يسـخرون من تلك الأحاديث، مع كثرتها، وتواترها، ورواية مثلهـا عن سـائر الأنبياء عليهم السلام.. وقد توهموا أن ذلك مناف مع ما تقتضيه قوانين الطبيعة من أن الموزون والمكيل ثابتـان لا يتغـيران من دون أن يضاف إليهما، أو ينقص منهما.

وكان في إمكانهم أن يطبقـوا هـذا الحكم على النـار الـتي أراد أعداء إبراهيم عليـه السـلام حرقـه بهـا.. فهـل يجـدون في القوانين التي يدرسونها أن النار برد وسلام، أم أنها حر وحرق؟

هم لم يعلموا أن النار والتمر واللبن والماء وكل شيء بيـد الله.. وأنه الخالق الذي يزيد ما يشاء، وينقص ما يشاء.. فالملك له، والأمر له.. فـإن شـاء أن يزيـد مـا يشـاء زاد.. وإن شـاء أن ينقص ما شاء ينقص.

وقد روي في الحديث عن أبي رافع قال: أهديت لنـا شـاة، فجعلتها في قدر، فدخل رسول اللـه ﷺ فقـال: (مـا هـذا يـا أبـا رافـع؟) فقلت: شـاة أهـديت لنـا، فطبختهـا في القـدر، فقـال: (ناولني الذراع) فناولته ثم قـال: (نـاولني الـذراع يـا أبـا رافـع)، فناولته ثم قال: (ناولني الـذراع الآخـر) فقلت: يـا رسـول اللـه، إنما للشاة ذراعان، فقال رسول الله ﷺ: (أمـا إنـك لـو مسـكت لناولتني ذراعا ما دعوت به)[1]

فنسألك ـ سيدي ـ ونتوسل بك إلى الله، نحن الذي حرمنـا أن نعيش في ذلك العهد المبارك، أن تمن علينا بأن تزورنـا كـل حين، لتملأ بيوتنا وحياتنا بما ملأت به بيـوت وحيـاة من تشـرفوا بزيارتك لهم..

نحن نعلم ـ سيدي ـ أنك لست بعيـدا عنـا، ولكنـا البعيـدون

______

1() رواه أحمد وأبو يعلى.

عنك.. فنتوسل بك إلى الله أن يهذب نفوسـنا، ويطهـر أخلاقنـا، ويسمو بأرواحنا حتى تصبح صالحة للقائك وزيارتك وبركاتك..

ونتوسل بك ـ سيدي يا رسول الله ـ إلى الله أن يعيد لهذه الأمة رشدها، فتعود إليـك، وتسـتنير بهـديك، لتنـال بركاتـك، فلا يمكنها أن تراها من دون أن تتبعك، أو تسير خلفك، أو تلغي كل شيء يحجبها عنك.. إنك أنت الوسيلة العظمى.. وصاحب الجـاه العظيم.

المستبصر المتوسم

سـيدي يـا رسـول اللـه.. يـا من جعلـك اللـه بشـرا لكن لا كالبشــر.. فــأنت في صــورتك مثلهم.. لكن حقيقتــك العظمى تجاوزتهم بكثير.. فقد غلبت روحك جسدك.. وبصيرتك بصــرك.. وحقيقتك مظهرك.. فلذلك كنت ترى ما لا يرون.. وتسـمع مـا لا يسمعون.. ولك من القدرات والطاقات ما لا يملكون..

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وأنت الذي تطهرت نفســك طهارة كاملـة، وسـمت روحـك سـموا رفيعـا.. وأوتيت العصـمة المطلقة.. فلذلك رقا جسدك إلى ما رقت إليه روحـك، فصـرت روحا تمشي على الأرض.. ونورا يمشي بين الناس.

ولولا ذلك سيدي ما أطقت تحمل الوحي الذي كـان يتـنزل عليـك.. ومـا أطقت أن تكـون واسـطة بين الغيب والشـهادة.. والأرض والسـماء.. والملـك والملكـوت.. فقـد كنت تملـك كلا الجانبين.. فأنت معهم في عالم الملك.. لكنك كنت تبصر وبدقة ما حولك من عالم الملكوت.

لقد عبر عن كل هذه المعـاني قولـه تعـالى، وهـو يصـفك: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [فصلت:6].. فـأنت بشــر مثلهم في الصـورة.. لكن تلـك الخاصـية العظيمـة الـتي أهلتـك لتنزل الوحي عليك، جعلتك مختلفا عنهم تماما..

إن مثل ذلك ـ سيدي ــ مثـل شخصـين أحـدهما أصـم أبكم أعمى مقعد فيه كل العاهات والآفات.. وآخر سليم منها جميعــا، وفي قمة القوة والشباب، وفي قمة الصلاح والتقوى، وفي قمة العلم والخبرة.. فكلاهما بشر.. لكن الفرق بينهما عظيم جدا..

فهكـذا الأمـر بالنسـبة لسـائر البشـر مقارنـة بـك.. فهم لا

يـرون مـا تـرى، ولا يسـمعون مـا تسـمع.. ولا تتحـرك أرجلهم للعوالم التي يمكن أن تسير إليها، وفي أي لحظة تريد..

لـذلك كنت أهلا لتـنزل الـوحي عليـك، والـذي لا يطيقـه غيرك.. وقـد قـال تعـالى في شـأنك: ﴿ إِنَّا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمـل: 5)، فـإن كـان هـذا القـول ثقيلا بالنسـبة لـك، فكيف هو بالنسبة لغيرك.

وقد روي في الحديث أن بعضهم سألك، فقـال: يـا رسـول الله، هل تحس بالوحي؟ فقلت له: (أسمع صلاصيل، ثم أسـكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض)(1)

لقد وصف المعايشون لـك ــ سـيدي ــ بعض مظـاهر ثقـل ذلـك الـوحي، فقـال: (أنـزل على رسـول اللـه ﷺ وفخـذه على فخذي، فكادت فخذه ترض فخذي)(2)

وقال آخر: (رأيت الوحي يـنزل على رسـول اللـه ﷺ، وإنـه على راحلته، فترغو وتفتل يديها حـتى أظن أن ذراعهـا تنقصـم، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه عن ثقـل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان)(3)

وقـال آخـر: (كنت آخـذ بزمـام ناقـة رسـول اللـه ﷺ حين أنـزلت عليـه سـورة المائـدة فكـاد ينكسـر عضـدها من ثقـل السورة)(4)

وقال آخر: (كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الـوحي تربـد

1() رواه أحمد (2/222)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه ابن سعد.

4() رواه أحمد والطبراني.

لذلك جسده ووجهه وأمسك عن أصحابه ولم يكلمه أحــد منهم) (1)

وهذه الطاقة العظيمة التي آتاك الله جعلتك ترى الحقــائق رأي العين، فكنت تصــفها عن عيــان لا عن تأمــل أو تــدبر أو تفكير.. وفرق كبير بين من يرى الحقـائق، وبين من يبحث عنهـا بعقله الذي قد يختلط معه الوهم والوساوس.. وهذا هـو الفـرق بين علمك وعلوم الفلاسفة التي تلقوها بالتأمل، لا بالعيان.

وقـد وردت الروايـات الكثـيرة المتـواترة تخـبر عن ذلـك، وتخـبر معهـا عن توسـمك واستبصـارك ورؤيتـك للحقـائق رأي العين، وكأنها جسد أمامك تراه ولا يرونه..

ومن تلك الروايات ما يذكر رؤيتك للملائكة وكـثرتهم، وقـد قلت في ذلك ـ مخاطبا أصحابك ـ: (هل تسـمعون مـا أسـمع؟)، فقالوا: ما نسمع من شيء، فقلت: (إني لأسمع أطيط السّـماء، وما تلام أن تئطّ، ما فيها موضـع قـدم إلا وعليـه ملـك سـاجد أو قائم أو ملك راكع) (2)

وقلت لهم: (أطّت السّماء وحقّ لها أن تئطّ ما فيها موضـع أربع أصابع إلّا وعليه ملك واضع جبهته ساجدا لله، لو تعلمون ما أعلم لضـحكتم قليلا ولبكيتم كثـيرا ومـا تلـذّذتم بالنّســاء على الفرش، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله)

ومنها رؤيتك للفتن، وأنواعها، وكيفية تسللها لحياة النــاس، وقد حدث بعض أصحابك عنك في ذلـك فقـال: أشـرف رسـول الله ﷺ على أطم من آطام المدينة، فقال: (هل ترون مــا أرى؟

1() رواه أبو داود الطيالسي.

2() رواه ابن أبي حاتم والطبراني والضياء في «المختارة» وأبو الشيخ

إني لأرى مواقع الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر)(1)

وحدث آخر، فقال: رفع رسول الله ﷺ بصره إلى السماء، فقال: (سبحان الذي يرسل عليهم الفتن إرسال القطر)(2)

ومنها رؤيتك للدنيا، وزخرفتها، وزينتها، وقد ذكرت ذلك، فقلت: (أتتني الدنيا خضرة حلوة ورفعت لي رأسها وتزينت لي، فقلت: لا أريدك، فقالت: إن انفلت مني لم ينفلت مني غيرك) (3)

ومنها رؤيتك لأحوال البرزخ، فقد روي أنك مررت على قبرين، فقلت: (إنهما ليعذبان، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة بين الناس)(4)

ومنها رؤيتك للجنة والنار، وقد ورد في الحديث أن الشمس كسفت، فصليت، ثم حمدت الله تعالى، وأثنيت عليه، ثم قلت: (ما من شيء لم أكن رأيته الا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار)(5)

وفي حديث آخر قلت: (إني رأيت الجنة، فتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع)(6)

وفي حديث آخر قلت: (إنه عرضت علي الجنة، فرأيت

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الطبراني.

3() رواه أحمد في الزهد عن عطاء بن يسار مرسلا.

4() رواه مسلم.

5() رواه البخاري.

6() رواه البخاري.

قطوفها دانية، فأردت أن أتناول منها شيئا، وعرضت علي النار فيما بينكم وبيني كظلي وظلكم فيها)(1)

وحدث بعض أصحابك قال: صليت مع رسول الله ﷺ يوما فأطال القيام، وكان إذا صلى لنا خفف، فرأيته أهوى بيده ليتناول شيئا ثم ركع بعد ذلك، فلما سلم رسول الله ﷺ قال: (علمت أنه راعكم طول صلاتي وقيامي)، قلنا: أجل، يا رسول الله، وسمعناك تقول: (أي رب، وأنا فيهم؟)، فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده، ما من شيء وعدتموه في الآخرة إلا قد عرض علي في مقامي هذا حتى عرضت علي النار، فأقبل منها حتى حاذى خبائي هذا فخشيت أن تغشاكم فقلت: أي رب، وأنا فيهم؟ فصرفها الله تعالى عنكم، فأدبرت قطعا كأنها الزرابي فنظرت نظرة، فرأيت عمر بن حرثان بن الحارث أحد بني غفار متكئا في جهنم على قوسه، ورأيت فيها الحميرية صاحبة القطة التي ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي سقتها)(2)

ومنها رؤيتك للرحمة والسكينة وإجابة الدعاء، وقد حدث بعض أصحابك أنه كان في جماعة يذكرون الله عز وجل فمررت بهم، فكفوا إعظاما لك، فقلت لهم: (ما كنتم تقولون؟ فأني رأيت الرحمة تنزل عليكم، فأحببت أن أشارككم فيها) (3)

وحدث آخر أنك كنت في مجلس، فرفعت طرفك إلى السماء، ثم خفضته؛ فسئلت عن ذلك، فقلت: (إن هؤلاء القوم كانوا يذكرون الله، فنزلت عليهم السكينة تحملها الملائكة كالقبة فلما دنت تكلم رجل منهم بباطل، فرفعت عنهم) (4)

1() رواه الحاكم.

2() رواه الطبراني باسناد جيد.

3() الحاكم (1/ 122)

4() رواه ابن أبي حاتم وابن عساكر مرسلا، السيوطي في الدر المنثور 1/ 317 وانظر كنز العمال (1879)

وحدث آخر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى المسجد وفيه قوم رافعو أيديهم يدعون، فقال: (ترى ما بأيديهم ما أرى؟) قلت: وما بأيديهم؟ قال: (بأيديهم نور)، قلت: ادع الله عز وجل أن يرينيه، فدعا الله عز وجل فأرانيه(1).

وحدث آخر قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتاك، فذكر لك ما رآه، فقلت له: (تلك السكينة تنزلت للقرآن) (2)

وقد كنت ـ سيدي ـ لا تكتفي بذلك، بل إنك، ولأجل إزالة الشكوك وزرع الطمأنينة في قلوب أصحابك وغيرهم ـ تخبرهم عما يحصل من أحداث فور وقوعها، مع بعدها عنهم.

ومن الأمثلة على ذلك إخبارك بقتل أصحابك يوم الرجيع، فقد روي أن خبيبا ـ وكان أحد الشهداء ـ قال: (اللهم اني لا أجد من يبلغ رسولك عني السلام)، فقلت حينها: (وعليك السلام) فسألك أصحابك عن سر سلامك، فقلت: (خبيب قتلته قريش) (3)

ومن الأمثلة على ذلك إخبارك بقتل أصحابك يوم بئر معونة، ففي الحديث أن أناسا جاءوا إليك، فقالوا: ابعث معنا رجالا يعلموننا القرآن والسنة، فبعثت إليهم سبعين رجلا من الأنصار، فتعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا، فقلت حينها: (إن إخوانكم قتلوا، فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أن

1() رواه البخاري في التاريخ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 3)

2() أخرجه البخاري 6/ 170، 232 ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (241)

3() رواه البخاري والبيهقي وأبو نعيم.

قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا) (1)

وقد حصل هذا في مرات كثيرة، وقد حدث بعض أصحابك، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فلم نلبث الا قليلا، حتى قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (إن إخوانكم قد لقوا المشركين واقتطعوهم فلم يبق منهم أحد، وإنهم قالوا: ربنا بلغ قومنا أنا قد رضينا ورضي عنا ربنا، فأنا رسولهم إليكم، إنهم قد رضوا ورضي عنهم)(2)

وهكذا حدث الرواة عن إخبارك بقتل من قتل في غزوة مؤتة يوم أصيبوا، فقد روي أن بعضهم قدم عليك بخبرهم، فقلت له: (إن شئت فأخبرني، وان شئت أخبرتك)، قال: أخبرني يا رسول الله به، فأخبرته خبرهم كلهم ووصفته لهم، فقال: والذي بعثك بالحق، ما تركت من حديثه حرفا لم تذكره، وان أمرهم لكما ذكرت، فقلت: (إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم)(3)

وهكذا حدث الرواة عن إخبارك بأن خيبر تفتح على يد علي بن أبي طالب، فقد حدث بعضهم أنك قلت يوم فتح خيبر: (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه)، فلما أصبحت قلت: (أين علي بن أبي طالب؟) قالوا: يشتكي عينيه، قلت: (فأرسلوا إليه)، فأتي به إليك، فنفثت في عينيه، ودعوت له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، ثم سار إلى المعركة، وفتح الله عليه (4).

1() رواه مسلم والبيهقي.

2() رواه البيهقي.

3() رواه البيهقي وابو نعيم.

4() رواه البخاري ومسلم.

ولم تكن تكتفي بكل ذلك ـ سيدي ـ بل كنت تخـبرهم عمـا تحدثه به في نفوسـهم، وبكـل دقـة، فيمتلئـون من ذلـك عجبـا، ويمتلئون معه إيمانا ويقينا وطمأنينة..

ومما يروى في ذلك ما حدث به بعضهم من أنه كـان معـك إذ جاءك رجل فقال: من أنت؟ قلت: (أنا نبي)، قال: ومـا نـبي؟ قلت: (رسول الله)، قال: مـتى تقـوم السـاعة؟ قلت: (غيب ولا يعلم الغيب الا الله)، قال: أرني سيفك، فأعطيته سـيفك، فهـزه الرجل، ثم رده عليك، فقلت له: (أما انك لم تكن تستطيع ذلـك الذي أردت)، قال: وقد كان[1].

ثم قلت مخاطبـا أصـحابك: (إن هـذا أقبـل، فقـال: آتيـه، فاسأله ثم آخذ السيف، فاقتله)[2]

وحدث آخر أنك كنت مع أصـحابك، وهم يتحـدثون بإعجـاب شديد عن رجل من المجاهدين معك، لكنـك قلت لهم: (أمـا انـه من أهل النار)، فاتبعه بعضهم لـيرى سـر قولـك، فـإذا بـه يـرى الرجل يجرح جرحا شديدا، جعله يأخذ سيفه، ويقتـل نفسـه بـه، منتحرا، فرجع إليك، وهو يقول: أشهد أنـك رسـول اللـه، فقلت: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيمـا يبـدو للنـاس، وهـو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبـدو للنـاس، وهـو من أهـل الجنـة)[3]، ثم قلت لبلال: (يـا بلال، قم فـأذن: لا يدخل الجنة الا مؤمن، وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)

وحدث آخر قال: استأذن عيينة بن حصـين رسـول اللـه ﷺ أن يأتي أهل الطائف يكلمهم، لعل الله تعالى أن يهـديهم فـأذن

1() رواه الحاكم وصححه والطبراني.

2() رواه الطبراني.

3() رواه البخاري.

لـه، فأتـاهم، فقـال: تمسـكوا بمكـانكم، فواللـه لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لو حدث به حدث لتمسن العرب عز ومنعة، فتمسـكوا بحصـنكم، وإيـاكم أن تعطـوا بأيـديكم، ولا يتكـاثرن عليكم قطع هذا الشجر، ثم رجع فقال له رسول الله ﷺ: (مـاذا قلت لهم؟) قـال: قلت لهم، وأمـرتهم بالإسـلام ودعـوتهم إليـه، وحذرتهم من النار، ودللتهم إلى الجنـة، قـال: (كـذبت، بـل قلت لهم: كذا وكذا)، فقال: صدقت، يا رسـول اللـه، أتـوب إلى اللـه تعالى وإليك من ذلك)(1)

وحدث آخر قال: لما أجمع رسول الله ﷺ على المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذي أجمـع رسـول اللـه ﷺ عليـه من المسـير إليهم، ثم أعطـاه امـرأة من مزينة، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، وخرجت به، فأتى رسـول اللـه ﷺ الخـبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبـير بن العوام، فقال: (أدركا امرأة قد كتب معهـا حـاطب كتابـا إلى قريش يحذرهم)(2)

لم يكن ذلـك ــ سـيدي ــ شـيئا عرضـيا تبديـه بين الحين والحين، بـل كـان شـيئا عاديـا، تفعلـه كـل حين، حـتى تزيـد من حولك طمأنينة، ومن الأمثلة على ذلك أن رجلا جاءك، فقال: يـا رسول الله إن أبي يريد أن يأخذ مالي، فدعوت أباه، فقلت لـه: (قلت في نفسك شيئا لم تسمعه أذناك؟) قـال: لا يـزال يزيـدنا الله تعالى بك بصيرة ويقينا، نعم، فقلت: هات، فأنشأ يقول:

غذوتك مولودا ومنتك   تعل بما أجني عليك

---

(1) رواه البيهقي وأبو نعيم.

(2) رواه ابن إسحاق والبيهقي.

إذا ليلة ضاقتك بالسقم لسقمك إلا ساهرا
تخاف الردى نفسي لتعلم أن الموت
كأني أنا المطروق دونك طرقت به دوني
فلما بلغت السن والغاية مدى ما كنت فيك
جعلت جزائي غلظة كأنك أنت المنعم
فليتك إذ لم ترع حق فعلت كما الجار

فبكيت، ثم عاتبت ابنه على سلوكه، وقلت له: (أنت ومالك لأبيك)(1)

ومن الأمثلة على ذلك إخبارك أصحابك عن أسئلتهم قبل أن يسألوها، ومما يرى في ذلك ما حدث به وابصة بن معبد قال: جئت رسول الله ﷺ وأنا لا أريد أن أدع من البر والإثم شيئا الا سألته عنه، فأتيته، وهو في عصابة من المسلمين حوله، فجعلت أتخطاهم لأدنو منه، فانتهرني بعضهم، فقال: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ؟ فقلت: إني أحب أن أدنو منه، فقال رسول الله ﷺ: (دعوا وابصة، ادن مني وابصة)، فأدناني حتى كنت بين يديه، فقال: (أتسألني أم أخبرك؟) فقلت: لا، بل تخبرني، قال: (جئت تسأل عن البر والإثم؟) قلت: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري وقال: (البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في نفسك، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك)(2)

وحدث آخر أنك كنت جالسا في مسجد الخيف، فأتاك رجل من الأنصار، ورجل من ثقيف فلما سلما، قالا: جئناك، يا

---

(1) رواه البيهقي.

(2) رواه أحمد وأبو يعلى.

رسـول اللـه، لنسـألك، فقلت لهمـا: (إن شـئتما أخبرتكمـا بمـا تسـألاني عنـه فعلت، وان شـئتما أن أسـكت وتسـألاني فعلت(، فقالا: لا، أخبرنا يا رسول الله، نزدد إيمانا أو نـزدد يقينـا.. فقلت لأحــدهما: (جئت تســألني عن مخرجــك من بيتــك تــؤم الــبيت الحرام ومالك فيه، وعن طوافك بالبيت، ومالـك فيـه، وركعتيـك بعد الطواف، ومالك فيهما، وعن طوافك بالصفا والمـروة، وعن وقوفك بعرفة، ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيـه، وعن نحــرك ومالــك فيــه، وعن حلاقــك رأســك، ومالــك فيــه، وعن طوافك، ومالك فيه)، فقال الرجل: (والذي بعثك بالحق عن هذا جئت أسألك!)، ثم أجبته عن أسئلته وأسئلة رفيقه [1].

وحدث آخر قال: أصابنا جوع ما أصابنا مثله قط فقالت لي أختي: اذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فجئت، فإذا هو يخطب، فقال: (من يستعفف، يعفه الله، ومن يستغن يغنه اللــه)، فقلت في نفسـي: واللـه لكأنمـا أردت بهـذا.. لا جـرم لا أسـأله شـيئا، فرجعت إلى أخـتي فأخبرتهـا، فقـالت: أحسـنت، فلمـا كـان من الغد، فاني والله لأتعب نفسي تحت الأجم، إذ وجدت من دارهم يهود فابتعنا به، وأكلنا منه وجاءت الدنيا، فمـا من أهـل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا[2].

وحدث آخر قال: قالت الأنصار يـوم فتح مكـة: أمـا الرجـل فقد أدركته رغبة في قريتـه ورأفـة بعشـيرته، وكـان الـوحي إذا جاء لم يخف علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رســول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما رفع الـوحي قـال: (يـا معشـر الأنصـار، قلتم: أمـا الرجـل فأدركتـه رغبـة في قريتـه، ورأفـة بعشيرته، كلا فما أسمي إذن كلا، إني عبد الله ورســوله المحيـا محياكم، والممات مماتكم)، فأقبلوا يبكون، وقالوا والله، ما قلنا

1() رواه مسدد والبزار والاصبهاني البيهقي.

2() رواه البيهقي.

الا للضن بالله ورسوله، فقال: (إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم)(1)

وحدث آخر عن نفسه، وهمه بقتلك، فقال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، قلت في نفسي: أسير مع قريش إلى هوازن، بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب غرة من محمد فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا أتبع محمدا ما أتبعه أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة.. فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، فدنوت منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوره، فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفا عليه فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال: (ادن مني)، فدنوت فمسح صدري، وقال: (اللهم أعذه من الشيطان)، فوالله لهو من حينئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان بي، فقال: (يا شيبة، الذي أراد الله بك خيرا مما أردت بنفسك؟) ثم حدثني بما أضمرت في نفسي! فقلت: بأبي أشهد أن لا اله الا الله، وأنك رسول الله، استغفر لي يا رسول الله، قال: (غفر الله لك)(2)

وحدث آخر عنك أنك مررت وأصحابك بامرأة، فذبحت لكم شاة، واتخذت لكم طعاما، فدخلت وأصحابك، فلما رأيتها قلت: (هذه ذبحت بغير إذن أهلها)، فقالت المرأة: يا رسول الله، إنا لا نحتشم من آل معاذ، نأخذ منهم، ويأخذون منا(3).

ولم يكن الأمر قاصرا على ذلك، ومع أصحابك فقط، بل

1() رواه مسلم والطيالسي والبيهقي.

2() رواه ابن سعد وابن عساكر.

3() رواه احمد برجال الصحيح.

كنت تنطق بأمثال ذلـك أمـام المشـركين، وفي أشـد المواقـف حرجـا، ومن الأمثلـة على ذلـك إخبـارك لعمـك أبي طـالب بـأن الأرضة أكلت الصـحيفة الظالمـة الـتي كتبتهـا قـريش، فـانطلق يمشي مع جماعة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد، وهو حافل من قريش، فلما رأوهم أنكروا ذلـك، وظنـوا أنهم خرجـوا من شدة البلاء، فقال عمك أبو طالب: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فـأتوا بصـحيفتكم الـتي تعاهـدتم عليهـا، فلعلـه أن يكون بيننا وبينكم صلح.

وقد قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يـأتوا بهـا، فـأتوا بصـحيفتهم معجـبين بهـا لا يشـكون أن قومـك سيسلموك لهم، فوضعوها بينهم، فقال أبـو طـالب: إنمـا أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف، إن ابن أخي قـد أخـبرني أن اللـه تعالى برئ من هذه الصحيفة التي في أيـديكم، ومحـا منهـا كـل اسم هو له فيها وترك فيها غدركم، وقطيعتكم إيانـا، وتظـاهركم علينا بالظلم، فإن كان ما قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله، لا يسلم أبدا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كـان بـاطلا رفعنـاه إليكم، فقتلتم أو اسـتحييتم، قـالوا: قـد رضـينا بالـذي تقـول، ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما ذكرت لهم؛ فلما رأوا ذلك قالوا: والله إن كان هذا قط الا سحر من صـاحبكم! فقـال أبـو طـالب ومن معه: (إن الأولى بالكذب والسحر غيرنا، فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليـه من قطيعتنـا أقـرب إلى الجبت والسـحر، ولـولا أنكم اجتمعتم على السـحر لم تفسـد صـحيفتكم، وهي بأيـديكم طمس الله تعالى ما كان فيهـا من اسـم لـه ومـا كـان من بغي تركه، أفنحن السحرة أم أنتم؟)[1]

ومن الأمثلة على إخبارك قريشا ليلـة الإسـراء بصـفة بيت المقدس، مع أنـك لم تكن رأيتـه قبـل ليلـة الإسـراء، فقـد روى

[1] () رواه البيهقي وأبو نعيم وابن سعد وابن عساكر.

المحدثون أنك بعد أن أسري بك مر عليك أبو جهل، فجـاء حـتى جلس إليك، فقال لك كالمستهزئ: هـل كـان من شـيء؟ قلت: نعم، قال: ما هو؟ قلت: أسري بي الليلة، قـال: إلى أين؟ قلت: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينـا؟ قلت: نعم.. فلم ير أن يكذبك مخافة أن تجحده الحديث إن دعا قومه إليـك، فقال: أرأيت إن دعوت قومك تحـدثهم مـا حـدثتني؟ قلت: نعم، قال: يا معشـر بـني كعب بن لـؤي.. فانفضـت إليـك المجـالس، وجاءوا حـتى جلسـوا إليـك، فقـال: حـدث قومـك بمـا حـدثتني، فقلت: (إني أسري الليلـة بي)، قـالوا: إلى أين؟ قلت: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينـا؟ قلت: نعم.. فصـاروا بين مصـفق ومن بين واضـع يـده على رأسـه متعجبـا، وضـجوا وأعظموا ذلك.. فقالوا: يا محمد صـف لنـا بيت المقـدس، كيـف بنـاؤه وكيـف هيئتـه؟ وكيـف قربـه من الجبـل؟ وفي القـوم من سافر إليه.

فأخذت تنعت لهم بناءه وهيئتـه، كمـا كـان بالفعـل.. فقـال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.. ثم قالوا: يـا محمـد أخبرنـا عن عيرنا.. فقلت: (أتيت على عير بني فلان بالروحاء قد ضـلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحـالهم، فليس بهـا منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منـه، ثم انتهيت إلى عـير بـني فلان في التنعيم يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتـان سوداوان وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية).. وقد حصل كل ما أخبرتهم عنه، لكن ذلك لم يزدهم إلا جحودا وعتوا.

هـذه ــ سـيدي ــ قطـرة من بحـر استبصـارك وتوسـمك، والطاقات التي وهبك الله، والتي لا يمكن لعقولنـا البسـيطة أن تـدركها.. ولا أن تتخيلهـا.. وأنى لهـا ذلـك، ولا يعـرف النـبي إلا النبي..

فنسألك ــ سـيدي ــ ونتوسـل بـك إلى اللـه أن يرزقنـا من البصيرة ما نرى به عيوبنا وآفاتنا والفتن المحدقة بنا.. وأن يعيننا على مواجهتها ومقاومتها وصدها.. وأن يجعلك قائدنا وهادينا في ذلك.. فلا يمكننا أن نقتحم لجة الفتن من دونـك.. ولا يمكننـا أن نتحقق بالنجاة، ولا بالفوز من دون أن نركب سفينتك.

ونسألك ـ سيدي ـ ونتوسل بـك إلى اللـه أن يرينـا مراشـد أمورنا، حتى لا نقع في أي ضلالة، ولا أي فتنـة.. وأن يجعلنـا من المستبصـرين المتوسـمين الـذين لا يكتفـون برؤيـة الظـواهر، ويغفلــون عن البــواطن.. أو يكتفــون برؤيــة الحاضــر دون أن يستشرفوا المستقبل.. إنـك صـاحب الوسـيلة العظمى، والجـاه العظيم.

المبجل المكرم

سيدي يا رسول الله.. يا من تحققت فيك العبودية بأجمل صورها وأكملها، ولذلك نلت من فضل الله وتكريمه وتبجيله ما لم يحظ بمثله بشر، بل ما لم يحظ بمثله مخلوق.. يا من آتاك الله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود في الدنيا والآخرة.. فلا يذكر الله إلا وتذكر معه، ولا يطاع إلا بطاعتك، ولا ينال أحد رضوانه قبل أن ينال رضاك.. فأنت باب الهداية ومفتاحها، وعين الرحمة وسراجها.. ومن أراد الدخول على الحق بعيدا عنك لم يجد إلا الضلالة، ومن أراد أن يسير على السراط المستقيم بعيدا عن سنتك لم يجد إلا الهاوية.

لقد تأملت ـ سيدي ـ أصناف التكريمات التي كرمك بها ربك، فوجدت أنك حقيق بكل ذلك التكريم.. فأنت الذي صبرت على كل أنواع البلاء والسخرية والاحتقار في سبيل أن تبلغ دين ربك، من غير أن تطلب أي أجر، ولا أن تنتظر أي ثناء..

لقد كان حاديك إلى ذلك كله طاعتك لربك، وصدق عبوديتك، وحرصك على الخلق الذين كلفت بدعوتهم وهدايتهم.. ولذلك كنت تقابل كل أنواع السخرية والاستهزاء بكل أنواع الصبر والرضا.. فلا تنزعج، ولا تتضجر.

لقد ذكر الله تعالى بعض ذلك الأذى الذي كنت تتعرض له، فقال: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(الأنبياء: 36)، وقال:﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا ﴾(الفرقان: 41)

ولذلك كان من مقتضيات اسم الله [الشكور] أن تقابَل

السخرية بالثناء، ويقابَل الاستهزاء بتلـك المكانـة الرفيعـة الـتي بوأك الله إياها.. بل أمر المؤمنين جميعا أن يبوئوك إياها، فقـال ـ مخاطبا لك ــ: ﴿إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِداً وَمُبَشِّـراً وَنَـذِيراً لِتُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُـوَقِّرُوهُ وَتُسَـبِّحُوهُ بُكْـرَةً وَأَصِـيلاً﴾ (الفتح:8 - 9)

ونهى أن يقدم أحد رأيـه عليـك، أو يعقب على مـا تـذكره، فقـال: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تُقَـدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الحجرات:1)

ونهى أن يتجـاوز أحـد حـدودك، أو يتسـاهل في طاعتـك، فقـال: ﴿ تِلْـكَ حُـدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء:13)

واعتبر طاعتك سببا للفوز بالدرجات العالية، فقـال:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: 69)

واعتبر طاعتك مثل طاعته؛ فقال:﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَـدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ (النساء: 80)

واعتبر اتباعك السـبيل الوحيـد لإثبـات محبـة اللـه، فقـال: ﴿ قُــلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَــاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِــرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران:31)

ونهى أن ترفـع الأصـوات أمـام حضـرتك، فقـال: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَـرُوا لَـهُ بِــالْقَوْلِ كَجَهْــرِ بَعْضِــكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَــطَ أَعْمَــالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات:2)

ونهى أن تدعى كما يـدعى سـائر النـاس، أو يعتـبر دعـاؤك كدعائهم، فقال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَـدُعَاءِ بَعْضِـكُمْ بَعْضـاً قَـدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَـلَّلُونَ مِنْكُمْ لِـوَاذاً فَلْيَحْـذَرِ الَّذِينَ يُخَـالِفُونَ عَنْ أَمْـرِهِ أَنْ تُصِـيبَهُمْ فِتْنَـةٌ أَوْ يُصِـيبَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:63)

وأمـر فـوق ذلـك كلـه بتعظيمـك وتوقـيرك وبـرك، فقـال مخاطبا لك: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَـذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 8، 9]

ونهى عن كـل أشـكال الإذيـة لـك، وتوعـد من يفعـل ذلـك باللعنـة، فقـال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُـؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: 57]

وكـل هـذا ــ سـيدي ــ ليتحقـق الابتلاء بـك للخلـق، ليتمـيز الصادقين الذي يرتضون اصطفاء الله لك، ويسلمون له، والذين يستكبرون، ويفعلون مثلما فعل إبليس عندما أبى السجود لآدم، فنزلت عليه اللعنات.. ذلك أنه آمن بالله، ولكنه ـ لسوء طالعه ـ راح يناقش الله فيما لا مجال له فيه.. ولم يعلم أن الله: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَـارُ مَـا كَـانَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ سُـبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (القصص:68)

ولــو أنــه نظــر إلى هــذا الكــون الواســع بعين الحكمــة والبصيرة، لرأى كيف ميز الله بعض خلقه عن بعض وفق عدلــه وحكمتــه ورحمتــه وعلمــه بخلقــه.. فلــذلك جعــل منهم من يسـتحقون رئاسـة معينـة على سـائر البشـر، لأنهم في جسـم الإنسانية كالدماغ والقلب في جسم الإنسان.

ولو أنه نظر بعين العدالة الإلهية، لعلم أن هؤلاء المختارين

لم يختاروا جزافا، وإنما بناء على مقتضيات العدالة الإلهية الـتي وضـعتهم في كـير الاختبـار، فنجحـوا فيـه، كمـا قـال تعـالى عن إبراهيم عليه السـلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْـرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـاتٍ فَـأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124]

ولـذلك رد اللـه تعـالى على أولئـك المشـاغبين المجـادلين الـذين يتوهمـون أن تكـريم اللـه منـاف لعدالتـه، فقـال: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُـؤْتَى مِثْـلَ مَـا أُوتِيَ رُسُـلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: 124)

لقـد قـال الله ذلـك لمن أنكـروا أن يتفضـل اللـه عليـك ـ سيدي ـ كما تفضل على إخوانك من سائر الأنبياء والمرسلين.

لقد كـان أولئـك الغلاظ الجاحـدون، وهم في كـل الأزمنـة، ينظرون باحتقار إليك، لأنهم كانوا يتصـورون أن الرسـول الـذي يختاره اللـه ينبغي أن يكـون من تلـك الفئـة المسـتكبرة الغنيـة الوجيهة، كما قال تعـالى:﴿ وَقَـالُوا لَـوْلا نُـزِّلَ هَـذَا الْقُـرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: 31)، أو كما يتصور اليهود أن الله تعالى لابد أن يختار رسولا من بني إسرائيل، وكـأن بـني إسرائيل وحدهم خلق الله، وغيرهم خلق الشيطان.

لقــد رد اللــه على هــذا الاحتقــار، فقــال:﴿ أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضـاً سُـخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:32)

ولهذا كله نص القرآن الكـريم، وبنصـوص قطعيـة صـريحة على وجوب تكريمك، واعتبره علامـة الإيمـان والصـدق، واعتـبر خلافه علامة الشك والريب والكفر..

وليس في تكريم الخلق لك ـ سيدي ـ أي زيادة لـك، فـأنت الغني بربـك عن كـل شـيء.. وإنمـا هـو زيـادة لنـا.. فـالقلب لا يعشق إلا من يعظمه، ويـراه في قمـة قمم الكمـال، فـإن غض منه أو احتقره، لم يستطع أن يحبه.. وإن لم يحبه لم يستطع أن يستفيد منه.

ولذلك أمرنا الله تعالى بالصلاة والسلام عليك، حتى نتملئ بتعظيمك وذكرك كل حين.. فتكون صلاتنا لك هي معـراج قربنـا منك.. وقربنا منك هو معراج قربنا من الله.. قال الله تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَـهُ يُصَـلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا صَـلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

لقــد علمت ــ سـيدي ــ ومن خلال التجربــة والواقــع أن انشـغال القلب واللسـان بالصـلاة عليـك أكـبر مصـدر للسـعادة والراحــة والطمأنينــة.. وهي بمثابــة انفتــاح القلب على عــالم الملكوت.. أو بمثابة فتح النوافذ إلى تلك العوالم المقدسة التي يخفيها الدنس الذي نعيشه.. ولذلك كان تكـريم اللـه تعـالى لـك بالصلاة عليـك تكريمـا لنـا أيضـا.. فمن يصـلي عليـك، سـينال لا محالة صلاتك عليه، بل صلاة الله عليه.

فبالصلاة عليك نذكرك.. وبذكرك نتعرف عليك.. وبـالتعرف عليك نحبك.. وبحبك نصل إليك.. وبالوصول إليك ننال كـل خـير في الدنيا والآخرة.

إن المكروب منا يصلي عليك، فيجد من لذة الأنس بـك مـا يشغله عن كربه.

وإن صاحب الحاجـة منـا تنسـد في طريقـه الأبـواب، فـإذا صلى عليك فتح الله عليه مغاليقها.

لقــد عرفنــا هــذا بالتجربــة، وعرفنــاه من خلال أحاديثــك

الكثيرة التي تحثنا فيها على الصلاة عليك، لعلمك بأنها طريق من طرق الوصول.. ومن سار في الطريق وصل.

لقد أخبرتنا أن أول جزاء يناله من صلى عليك أن يصلي الله عليه، فقلت: (من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات)(1)

وقلت: (إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرًا، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرًا؟ قلت: بلى)(2)

بل ورد في حديث آخر ما هو أعظم من ذلك كله، فقد قلت تحكي عن الله تعالى: (من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه)(3)

هل هناك ـ سيدي ـ تكريم أعظم من هذا التكريم.. الله خالق كل شيء، ومالك كل شيء، وملك كل شيء يقول لنا هذا، ويربط صلاته وسلامه علينا بصلاتنا وسلامنا عليك.

ولم يكن ذلك هو الجزاء الوحيد لمن يتشرف بالصلاة عليك، فقد ورد في الحديث أن الملائكة لا تزال تصلي على من يصلي عليك، فقد قلت: (من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة

1() رواه أحمد.

2() رواه أحمد وابن حبان، وفي رواية أخرى رواها أحمد والنسائي عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس يرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر، قال:« أجل، أتاني آت من ربي عز وجل فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها»

3() رواه أحمد والحاكم..

تصلي عليه ما صلى علي، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر)[1]

وأخـبرت أن الـذين يصـلون عليـك هم أولى النـاس بـك، وبشفاعتك يوم القيامة، فقلت: (إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة)[2]

وقلت: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثم صـلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى اللـه عليـه بهـا عشـرا، ثم سلوا لي الوسـيلة فإنهـا منزلـة من الجنـة لا تنبغي إلا لعبـد من عباد الله وأرجو أن أكون أنـا هـو، فمن سـأل اللـه لي الوسـيلة حلت له الشفاعة)[3]

وقلت ـ تعلمنا كيفية الصلاة عليك ـ: (من قـال: اللهم صـل على محمــد وعلى آل محمــد كمــا صــليت على إبــراهيم وآل إبراهيم، وبـارك على محمـد وعلى آل محمـد كمـا بـاركت على إبراهيم وآل إبراهيم، وتـرحم على محمـد وعلى آل محمـد كمـا تـرحمت على إبـراهيم وآل إبـراهيم، شـهدت لـه يـوم القيامـة بالشهادة وشفعت له)[4]

وأخبرت عن الأجور الكثيرة بأنواعها المختلفة التي أعــدها الله لمن يصلون عليك، فقلت: (من صلى علي من أمـتي صـلاة مخلصًا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صـلوات، ورفعـه بهـا عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات، ومحا عنـه بهـا عشـر سيئات)[5]

1() رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه.

2() رواه الترمذي وابن حبان.

3() رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

4() رواه البخاري.

5() رواه النسائي والطبراني والبزار.

ولم يكن جزاء الصلاة عليك تلك الأجور الأخروية فقط، بل أخبرت أن الله تعالى يجازي المصلين عليك بأجور الدنيا أيضا.. وكيف لا يفعل ذلك.. والله رب الدنيا والآخرة.. فقد ورد في الحديث أن بعض أصحابك قال لك: كم أجعل لك من صلاتي؟ فقلت له: (ما شئت)، قال: الربع؟ قلت: (ما شئت، فإن زدت فهو خير لك)، قال: النصف؟ قلت: (ما شئت وإن زدت فهو خير لك)، قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قلت: (إذا يُكفي همك، ويغفر ذنبك)(1)

وفي حديث آخر قال لك بعضهم: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ فقلت له: (إذا يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمك من دنياك وآخرتك)(2)

ولهذا اعتبر الصالحون الصلاة عليك مفتاحا لإجابة الدعاء، وقد قال الإمام علي: (كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد ﷺ)(3)

ولهذا علمتنا ـ سيدي ـ كيف نمزج في دعائنا بين مطالبنا الشخصية وبين الصلاة عليك، ففي الحديث أنك سمعت رجلا يدعو في صلاته من غير أن يمجد الله تعالى أو يصلي عليك، فقلت: (عجل هذا)، ثم دعوته، وقلت له: (إذا صلى أحدكم، فليبدأ بتمجيد ربه سبحانه والثناء عليه، ثم يصلي علي، ثم يدعو بعد بما شاء)(4)

وحدث بعضهم عن نفسه قال: (كنت أصلي والنبي ﷺ،

1() رواه أحمد والترمذي والحاكم.

2() رواه أحمد.

3() رواه الطبراني موقوفا ورفعه بعضهم.

4() رواه أبو داود والترمذي أحمد والنسائي والحاكم، وفي رواية: فليبدأ بتحميد ربه عز وجل.

فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصـلاة على النـبي ﷺ ثم دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ: (سل تعطه، سل تعطه)(1)

فيا سيدي يا رسول الله.. يا صاحب الجاه العظيم، والمقام الرفيع، والمكانة الشريفة الرفيعة، أسألك وأتوسل بك إلى اللـه أن يجعلــني من المعظمين لــك بقلــوبهم وعقــولهم وأرواحهم وجميـع لطـائفهم، حـتى تكـون أنت سـراجي الـذي يضـيء لي، ومعراجي الذي أرقى به.

وأسألك ــ سـيدي ــ أن يصـير لسـاني مـدمنا على الصـلاة عليك، وقلبي مستشعرا لمحبتك والشـوق إليـك.. وحيـاتي كلهـا وفق هديك وسنتك، حتى ألقاك وأنت راض عـني.. فمن رضـيت عنه سعد في الدنيا والآخرة.

---

(1) رواه الترمذي.

المحبوب المعظم

سيدي يا رسول الله.. يا من جعل الله محبتك مدرسة للقلوب الطاهرة ترتقي بها إلى سلم الكمالات، وتنال بها أعلى الدرجات، وتتنزل عليها بها أعظم البركات.. فلا يمكن لقلب يريد أن يتطهر من أدرانه، ولا لنفس تريد أن ترتقي في سلم كمالاتها، ما لم تجعل حبك وتعظيمك معراجها ووسيلتها وسلمها.

لا أزال أذكر سيدي كل حين قولك لبعض أصحابك عندما ذكر لك حبه لك، وأنه يحبك أكثر من كل شيء إلا من نفسه.. لقد قلت له حينها: (لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك)[1]

لقد نصحته ـ سيدي ـ أعظم نصيحة.. فلا يمكن لأحد يحب نفسه أكثر منك أن ينال حظه من الكمال، لأن حبه لنفسه سيجعله سجينا لها.. وأما حبه لك، فسيرتقي به إلى أعلى درجات الكمال.

ولذلك أمرنا الله تعالى بحبك، وأن نجعله الأعلى والأوفى، فلا نقدم عليه أي حب آخر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:24)

وهكذا كنت تقول مخاطبا أصحابك: (لا يؤمن أحدكم حتى

1() رواه أحمد والبخاري.

أكون أحب إليه من والده وولده)[1]

لقد رحت سيدي إلى موازين العقول أبحث فيها عن سر أمر الله لنا بحبك، وسر تقديم حبك على حب غيرك؛ فوجدت أن ذلك الحب المقدس الذي نتوجه به إليك هو المفتاح الذي نصل به إلى جميع أبواب السعادة، ومن أقصر طرقها.

ذلك أن الحب يستدعي الذوبان والفناء في المحبوب.. فتنتقل بذلك صفاته إلى المحب، ومن غير معاناة.. لأن حرارة الحب وحدها تتولى ذلك.

فلهذا حين يتوله أي شخص بحبك ـ سيدي ـ فإن كل تلك الخصال الجميلة التي وصفك الله بها، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، تنتقل إليه بمقدار حبه لك.. فإن كان حبك قد طغى عليه، ففنى عن نفسه، فإنه يتحقق بتلك المشاكلة التي عبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير:7).. وحينها ينال أعظم سعادة، ذلك أن الله تعالى ـ بعدله ورحمته ـ يضم القرناء بعضهم إلى بعض.. كما حدثت عن ذلك بقولك: (يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله)[2]، بل كما نص على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]

ولذلك كانت المعية نصيب كل من أحبك.. فلا يكفي أن يطيعك المرء من غير محبة.. ذلك أنه لا يتحقق له كمال الاتباع إلا بها..

1() رواه البخاري.

2() انظر هذه النصوص في: الدر المنثور:8/429.

ولذلك كان أسعد الناس بك أكـثرهم حبـا لـك، ذلـك أنهم ـ كما تشرفوا بصحبتك لقلوبهم في الدنيا ـ فسيتشرفون بصحبتك في الآخرة.

وقد ورد في الحديث أن رجلا أتاك، فقـال: (لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك، فما أصبر عنك حتى أنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعـرفت أنـك إذا دخلت الجنـة رفعت مع النبيين وإن دخلتها لا أراك)، فأنزل اللـه تعـالى: ﴿ وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَالرَّسُـــولَ فَأُولَئِكَ مَـــعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: 69)(1)

وقد قلت سيدي في ذلك مبشرا كـل محبيـك: (من أحبـني كان معي في الجنة)(2)

وقلت لرجل سألك: (متى السـاعة؟): (مـا أعـددت لهـا؟)، فقال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكــني أحب الله ورسوله، فقلت له: (أنت مع من أحببت)(3)

ولذلك كان الصـادقون من أصـحابك ومن بعـدهم من أكـثر الناس محبـة لـك، وقـد روي أن امـرأة من الأنصـار قُتـل أبوهـا وأخوها وزوجها يـوم أحـد معـك، لكنهـا لم تأبـه لهم جميعـا، بـل كانت تسأل عنك، فلما قيل لها: هو بحمد الله تعالى كما تحبين، قالت: أرونيه.. فلما رأتك، قالت: (كل مصيبة بعدك جلل)(4)

1() رواه الطبراني، وابن مردويه.

2() رواه الاصبهاني في الترغيب.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه ابن إسحاق والبيهقي.

وهكذا فعل حبيبك زيد بن الدثنة الـذي أخرجـه المشـركون من الحرم ليقتلوه، فقال له عدوك اللدود أبـو سـفيان: أنشـدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا بمقامك تضرب عنقـه، وأنت في أهلك، فقال زيد: واللـه مـا أحب أن محمـدا الآن في مكانـه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيـه، وأنـا جـالس في أهلي، فقـال أبو سفيان: والله ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمــد محمدا (1).

وهكذا فعل ذلك الصحابي الذي قال لك: (يا رسـول اللّـه! إنـك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولــدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيـك فـأنظر إليـك، وإذا ذكرت موتي وموتـك عـرفت أنـك إذا دخلتّ الجنـة رفعتَ مـع النبييّن، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك)(2)

وقال لك آخر، وهو ثوبـان مـولاك، فقـد أتـاك، وقـد تغـير لونـه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقلت له: (يا ثوبان ما غــير لونك؟) فقال: (يا رسول الله ما بي ضـر ولا وجـع، غـير أني إذا لم أرك اشـتقت إليـك واستوحشـت وحشـة شـديدة حـتى ألقـاك، ثم ذكرت الآخرة وأخـاف ألا أراك هنـاك؛ لأني عـرفت أنـك ترفـع مـع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا)

وقد بشرت هؤلاء جميعا، بأنهم مع من أحبـوا.. وكـذلك بشـرت من بعدهم.

وقد ظل ـ سيدي ـ هذا الحب سـاريا في أمتـك من بعـدك، تتأدب به، وتترقى في مدارج الكمال بسببه.. حتى أن هنـاك من

1() رواه البيهقي.

2() رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه (صفة الجنة)

يضحي بكل شيء في سبيل أن يظفـر برؤيـة منـك.. وقـد قـال بعضهم يذكر شوقه إليك:

كيف لا تسكب ... وهي من قبل أن
كيف لاَ تذهل العقول ... أنفسُ العاشقين
يا رسول الإله إني ... لك والله شائق
يا رسول الإله في ... لك مني تحية
يا رسول الإله شوقي ... زائد والغرام فيك
يا رسول الإله إني ... ونزيل الكرام ليس

سـيدي.. يـا رسـول اللـه.. لسـنا نحن المسـلمين ممن تشرفوا باتباعك فقط من أحبوك وعظموك وعرفوا قدرك.. بـل هناك الكثير من العقلاء في العالم الذين امتلأوا إعجابا وتعظيمـا لك، ولو أنهم لم يؤمنوا أو لم يعلنوا إيمانهم، ذلك أنهم رأوا فيك كل صفات الكمال التي يحلمون أن يروها في الإنسان.

لقد ذكر [مايكل هارت] في كتابه (العظماء مائة وأعظمهم محمد ﷺ) سبب اختياره لك، لتكـون على قمـة عظمـاء العـالم، وعلى مدار التاريخ، فقال: (إن اختياري لمحمد ليقود قائمة أكثر أشخاص العالم تأثيراً في البشرية قد يدهش بعض القـراء، وقـد يعترض عليه البعض.. ولكنه كان (أي محمد) الرجل الوحيـد في التاريخ الذي حقـق نجاحـاً بـارزاً في كـل من المسـتوى الـديني والدنيوي)

وقال عنك: (كان محمـد الرجـل الوحيـد في التـاريخ الـذي نجح في مهمته إلى أقصى حد، سواء على المستوى الــديني أم على المستوي الزمني)(1)

1() (المائة الأوائل) مايكل هارت (33)

أما شاعر الألمان الأكبر [يوهان غوته]، فقد قال في ديوانه (الديوان الشرقي للشاعر الغربي) يخاطب أستاذه الروحي الشاعر حافظ شيرازي، معبرا عن أشواقه إليك: (أي حافظ! إن أغانيك لتبعث السكون… وإنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطمة، لتحملنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد بن عبد الله)(2)

وقال: (إننا أهل أوربة بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد، وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد)

وقال عنك الأديب الروسي [ليو تولستوي] والذي حرمته الكنيسة بسبب آرائه: (أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء.. ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وفتح لها طريق الرقي والمدينة)

وقال عنك الشاعر الفرنسي الشهير [الفونس دي لامارتين]: (أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟!.. ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟!.. إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي هذه كلها تدل على إيمان

2() الديوان الشرقي للشاعر الغربي، غوته ص(31)

كامل مكّنـه من إرسـاء أركـان العقيـدة. إن الرسـول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمـة على تقـديس الصـور هـو محمـد، لقـد هـدم الرسـول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق)(1)

وقال عنك الفيلسوف الإنجليزي [جـورج برناردشـو]: (لقـد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيته بعيداً عن مخاصـمة المسيح، بل يجب أن يدعى منقـذ الإنسـانية، وأوربـة بـدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيـد، وربمـا ذهبت إلى أبعـد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حـل مشـكلاتها بطريقـة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبــوءتي)(2)

وقال عنك ـ مبديا إعجابـه بشخصـك العظيم ــ: (إنّ رجـال الـدين في القـرون الوسـطى، ونتيجـةً للجهـل أو التعصّـب، قـد رسـموا لـدين محمـدٍ صـورةً قاتمـةً، لقـد كـانوا يعتبرونـه عـدوًّا للمسيحية، لكنّني اطَّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبـةً خارقةً، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسـيحية، بـل يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العـالم اليـوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السـلام والسـعادة الـتي يرنـو البشر إليها)

وقال: (لو تولى العالم الأوربي رجل مثل محمد لشفاه من علله كافـة، بـل يجب أن يـدعى منقـذ الإنسـانية، إني أعتقـد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تجمـع كـل الشـرائط اللازمة وتكون موافقة لكل مرافق الحياة، لقـد تنبـأت بـأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوربا غداً وقد بدا يكون مقبـولاً لـديها

1() السفر إلى الشرق، ص(277).

2() عن (موسوعة مقدمات المناهج والعلوم) أنور الجندي (8 / 211)

اليوم، ما أحـوج العـالم اليـوم إلى رجـل كمحمـد يحـل مشـاكل العالم)

وقال عنك المؤرخ الأمريكي [ويليام جيمس ديــورانت] في موسوعته [قصة الحضارة]: (إذا حكمنـا على العظمـة بمـا كـان للعظيم من أثر في النـاس، قلنـا إن محمـداً رسـول المسـلمين أعظم عظمـاء التـاريخ، فقـد كبح جمـاح التعصـب والخرافـات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القـديم دينـاً واضـحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم)

وقـال عنـك مـؤرخ العـرب والحضـارة الإسـلامية اللبنـاني المسـيحي [فيليب حتّي]: (لم يسـجل التـاريخ أن رجلاً واحــداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وبـاني أمـة، ومؤسـس دولـة.. هذه الثلاثة التي قـام بهـا محمـد، كـانت وحـدة متلاحمـة، وكـان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ)

وقـال عنـك عـالم اللاهـوت السويسـري [د. هـانز كـونج]: (محمـد نـبي حقيقي بمعـنى الكلمـة، ولا يمكننـا بعـد إنكـار أن محمداً هو المرشد القائد على طريق النجاة)(1)

وقـال عنـك المـؤرخ البريطـاني [أرنولـد توينـبي]: (الـذين يريدون أن يدرسوا السيرة النبوية العطـرة يجـدون أمـامهم من الأسفار مما لا يتوافر مثله للباحثين في حياة أي نـبي من أنبيـاء الله الكرام)

وقال عنك المستشرق الإيطالي [الكونت كاتيـاني]: (أليس الرسـول جـديراً بـأن تقـدَّم للعـالم سـيرته حـتى لا يطمسـها الحاقدون عليـه وعلى دعوتـه الـتي جـاء بهـا لينشـر في العـالم الحب والسـلام؟! وإن الوثـائق الحقيقيــة الــتي بين أيــدينا عن

1() عن (الإسلام نهر يبحث عن مجرى) الدكتور شوقي أبو خليل (15).

رسول الإسلام ندر أن نجـد مثلهـا، فتـاريخ عيسـى ومـا ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفي الغليل)

وقال عنك الطبيب والمؤرخ الفرنسي [غوسـتاف لوبـون]: (نعـرف مـا فيـه الكفايـة عن حيـاة محمـد، أمـا حيـاة المسـيح فمجهولـــة تقريبـــاً، وإنـــك لن تطمـــع أن تبحث عن حياتـــه في الأناجيل)

وذكـر الكـاتب والصـحفي والمستشـرق [كولونيـل رونالـد فيكتور كورتيناي] نفس المعنى حين قال: (لا نعرف إلا شـذرات عن حياة المسيح، أما في سيرة محمد فنعرف الشـيء الكثـير، ونجد التاريخ بدل الظلال والغموض)

وقـال عنـك المستشـرق والمهنـدس الإنكلـيزي [دونالـد روتليدج هيل]: (لقد أخرج محمد للوجود أمة، ومكن لعبادة اللـه في الأرض، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعيـة، وأحـل النظـام والتناسـق والطاعـة والعـزة في أقـوام لا تعـرف غـير الفوضى)

وقال عنك رجل الدولة والسياسي الألماني [بسمارك]: (يا محمد أنا متـأثر جـداً إذ لم أكن معاصـراً لـك! إن البشـرية رأت قدوة ممتازة مثلك مرة واحدة، وأنا أعظمك بكمال الاحترام)

وقـال عنـك المـؤرخ والشـاعر الإنجلـيزي [كريسـتوفر دارسون]: (إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيراً مفاجئاً بفعـل فـرد واحد ظهر في التاريخ هو محمد)

وقال عنك البـاحث الفرنسـي [كليمـان هـوارت]: (لم يكن محمد نبياً عادياً، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء، لأنـه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة

من بـني قومـه ... نـبي ليس عاديـاً من يقسـم أنـه (لـو سـرقت فاطمة ابنته لقطع يـدها)! ولـو أن المسـلمين اتخـذوا رسـولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً)

هذه سيدي قطـرات من بحـر كلمـات الـذين أعجبـوا بـك، وأحبوك، ولو لم يكونوا على دينك.. ومن ذا يملك أن يعرفك، ثم لا يمتلئ قلبـه حبـا لـك... وهـل هنـاك من لا يسـتطيع أن يحب الزهرة الجميلة التي تفوح بكل أنواع الأريج العطر؟.. وأين منك الزهـرة وأريجهـا وجمالهـا.. وهـو لا يسـاوي قطـرة من بحـر جمالك؟

لقد رأيت ــ سـيدي ــ كـل العقلاء مجمعين على تعظيمـك، حتى أولئك الذين ناصبوك العداء في فترة ما من حياتهم، وقبـل أن يعرفوك.. لكنهم بمجرد أن عرفـوك، راحـوا يعتـذرون إليـك، مثلما فعل الفيلسوف الفرنسي [فولتير] الـذي أعلن توبتـه عن مواقفـه منـك ومن دينـك.. لكن المغرضـين والحاقـدين تناسـوا أقواله بعد توبته، وراحوا ينشرون أقواله قبل توبته.

لقد ذكر في توبته سبب بغضه لك وأنه كان ضـحية لأفكـار سائدة خاطئة كـان ينشـرها الحاقـدون عنـك، فقـال: (قـد هـدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقـة، ولكن يبـدو أنـه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

وقـال في قاموسـه الفلسـفي: (أيهـا الأسـاقفة والرهبـان والقسيسـون إذا فُـرض عليكم قـانون يحـرم عليكم الطعـام والشراب طوال النهار في شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقـة.. إذا فُـرض عليكم إعطـاء 2،5 بالمائـة من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمـور ولعب الميسـر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثماني عشرة زوجة أحيانـاً، فجـاء

من يحـذف أربـع عشـرة من هـذا العـدد، هـل يمكنكم الادعـاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات؟!)

وقال: (لقد قـام الرسـول بـأعظم دور يمكن لإنســان أن يقوم به على الأرض.. إن أقل ما يقال عن محمد أنه قــد جـاء بكتاب وجاهـد، والإسـلام لم يتغـير قـط، أمـا أنتم ورجـال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)

سيدي يا رسول الله.. لسنا نحن البشر.. ولا الملائكـة.. ولا كـل أولئـك العقلاء من العـوالم الأخـرى.. وحـدهم من عرفـوا قدرك، وبجلوك وكرموك.. بل إن كل شيء فعل ذلك.. فقد بث الله محبتك في قلوب الكائنات.. حـتى تلـك الـتي نتـوهم أنـه لا عقول ولا قلوب لها.. وهل يعقل أن يخلق الله شيئا من دون أن يكون له عقل أو قلب؟.. لكن كبرياءنـا جعلنـا نتـوهم أن العقـل لن يكـون إلا في جهـاز عصـبي، والقلب لن يكـون إلا في جهـاز دوري.

لقد ورد في الروايات الكثيرة المتواترة الـتي لا يـؤمن بهـا إلا الصادقون في إيمانهم، أولئك الذين يعلمون أن قدرة اللــه لا يعجزهـا شـيء.. مـا يـدل على أن الأرض بحجارتهـا وأشـجارها وحيواناتها، كانت تظهر لك ـ سيدي ـ كل ألوان المـودة والحـنين والحب..

فقد أخبرت عن جبـل أحـد، وحبـك لـه، وحبـه لـك، فقلت: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[1]

ووصلنا بأسانيد كثيرة[2] أنك كنت تخطب إلى جـذع نخلـة،

---

[1]() رواه البخاري ومسلم.

[2]() روى القصة جمع من الصحابة، منهم أبي بن كعب رواه الشافعي وأحمد وابن ماجه والبغوي وابن عساكر،ومنهم أنس بن مالك رواه أحمد والترمذي وصححه وأبو يعلى والبزار وابن ماجه وأبو نعيم من طرق على شرط مسلم، ومنهم بريدة، رواه الدارمي،

فاتخذ لك منبر بدله، فلما فارقت الجذع، وغدوت إلى المنبر الذي صنع لك حن لك كما تحن الناقة، فنزلت إليه، فضممته إليك، فسكن، وقلت عنه: (لو لم أحتضنه، لحن إلى يوم القيامة) (1)

لقد عبر الشاعر عن ذلك الحنين الذي أبداه لك الجذع، فقال:

يحن الجذع من ... و يذرف دمعه حزناً

و يجهش بالبكاء ... لفقد حديثكم وكذا

فمالي لا يحن إليك ... و حلمي أن أقبل

و أن ألقاك في يوم ... و ينعم ناظري من

فداك قرابتي وجميع ... و أبذل مهجتي

تدوم سعادتي ونعيم ... إذا بذلت حياتي في

حبيب القلب عذرا لا ... فحبي لا يحق في

ذنوبي أقعدتني عن ... و أطمح أن أُقرب

لعل محبتي تسمو ... فتجبر ما تصدع من

وقد ورد ـ سيدي ـ من الروايات ما يدل على شهادة تلك الكائنات التي نتهمها بعدم العقل لك في الوقت الذي جحدك فيه الغافلون قساة القلوب، ففي الحديث عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر حتى إذا دفعنا إلى حائط بني النجار

وجابر بن عبد الله، رواه أحمد والبخاري والترمذي، والمطلب بن أبي وداعة، رواه الزبير بن بكار، وأبو سعيد الخدري، رواه عبد بن حميد وابن أبي شيبة، وأبو يعلى وأبو نعيم بسند على شرط مسلم، وعائشة رواه الطبراني والبيهقي، وأم سلمة رواه أبو نعيم والبيهقي بإسناد جيد.. كلها روي بألفاظ متقاربة المعنى وهو بذلك حديث متواتر المعنى.

(1) الدارمي (39) و (1563)، وابن ماجه (1415)، والطبراني (12841)، والبيهقي 2/558.

إذا فيه جمل لا يدخل أحد إلا شد عليه، فذكر ذلك لرسـول اللـه ﷺ فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير، فجاء واضعا مشفره إلى الأرض حـتى بـرك بين يديـه، فقـال النـبي ﷺ: (هـاتوا خطامـه)، ودفعه إلى صاحبه ثم التفت إلى الناس، فقال: (إنـه ليس شـئ بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسـول اللـه إلا عاصـي الانس والجن)(1)

وقـد روي بأسـانيد مختلفة(2)، أنـك مـررت على قـوم قـد اصطادوا ظبية فشدوها على عمود فشطاط فقالت: يـا رسـول اللـه أخـذت ولي خشـفان في البريـة، وقـد انعقـد اللبن في أخلافي، فلا هو يذبحني فأستريح، ولا يدعني، فأرجع إلى خشفي في البرية)(3)، فقلت لها: (إن تركتـك تـرجعين؟)، قـالت: (نعم، وإلا عذبني الله عذابا أليما)، فقلت: (أين صاحب هـذه؟)، فقـال القوم: نحن يا رسول الله، فقلت: (خلوا عنها حتى تأتي خشـفها ترضـعها وترجـع إليكم)، فقـالوا: من لنـا بـذلك؟ قلت: (أنـا)، فأطلقوها فذهبت فأرضعت ثم رجعت إليهم فأوثقوهـا، فمـررت بهم فقلت: (أين صاحب هذه؟)، قالوا: هوذا نحن يا رسول الله، فقلت: (تبيعونها؟)، فقالوا: هي لك يا رسول الله، فقلت: (خلـوا عنها)، وأطلقوها، فـذهبت، وهي تضـرب برجلهـا فرحـا وتقـول: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله)

سيدي.. لقد رأيت من قومي من يضـحك على مثـل هـذا.. ولست أدري ما الذي يضحكه، وهو يقـرأ قولـه تعـالى: ﴿وَحُشِـرَ لِسُـلَيْمَانَ جُنُـودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْـرِ فَهُمْ يُوزَعُـونَ (17)

1() رواه مسلم.

2() رواه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم.

3() وفي رواية أنس: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض سكك المدينة فمررنا بخبأ أعرابي وإذا بظبية مشدودة إلى الخباء، فقالت: يا رسول الله، إن هذا الاعرابي اصطادني.

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 17 - 19]؛ فهل كان سليمان عليه السلام أعلم منك بلغة هذه الكائنات.. وهو ليس سوى تلميذ من تلاميذك.. فأنت سيد المرسلين، وأشرف خلق الله أجمعين.

ليس ذلك فقط سيدي.. بل إن الروايات الكثيرة تذكر شهادة الحصى لك.. وليس ذلك بمستغرب، وقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]

لقد قال بعض أصحابك يحدث عن بعض ذلك: قدم ملوك حضرموت على رسول الله ﷺ وفيهم الاشعث بن قيس، فقالوا إنا قد خبأنا لك خبأ فما هو؟ قال: (سبحان الله إنما يفعل هذا الكاهن والكهانة في النار)، فقالوا: فكيف نعلم أنك رسول الله عز وجل، فأخذ رسول الله ﷺ كفا من حصى، فقال: (هذا يشهد أني رسول الله)، فسبح الحصى في يده، فقالوا: نشهد أنك رسول الله عز وجل(1).

وحدث آخر قال: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ فنسمع تسبيح الطعام، وهو يؤكل(2).

وحدث آخر قال: أتي رسول الله ﷺ بطعام ثريد، فقال: (إن هذا الطعام يسبح)، قالوا: يا رسول الله، وتفقه تسبيحه،

(1) رواه أبو نعيم والحكيم الترمذي.

(2) رواه البخاري ومسلم.

قال: (نعم)، ثم قال لرجل: (ادن هذه القصعة من هذا الرجــل)، فأدناها منه فقال: نعم، يا رسول الله، هذا الطعام يسبح فقــال: (ادنها من آخر) وأدناها منه فقال: هـذا الطعـام يسـبح ثم قـال: (ردها) فقال رجل: يا رسول الله، لو أمرت على القــوم جميعـا، فقـال: (لا إنهـا لـو سـكتت عنـد رجـل لقـالوا: من ذنب ردهـا)، فردها(1).

وقــد ورد في الروايــات والأحــاديث الكثــيرة أنهــا لم تكن تكتفي بالشهادة لك فقط، وإنما كـانت تحييـك وتبجلـك وتسـجد تكريما لك، فعن الإمام علي قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكــة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبـل ولا شـجر إلا قـال: السلام عليك، يا رسول الله(2).

وعن بــرة بنت أبي تجـراة قـالت: إن رسـول اللــه ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتا ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجــر ولا شجر إلا قال: السـلام عليـك يـا رسـول اللـه، وكـان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا(3).

وذكر جابر بن عبد الله جملا جاء إليك، فلما كان قريبا منك خر ساجدا، فقلت: (يا أيهـا النـاس، من صـاحب هـذا الجمـل؟)، فقـال فتيـة من الأنصـار: هـو لنـا يـا رسـول اللـه، فقلت: (فمـا شأنه؟)، قالو: سنونا عليه عشرين سنة، فلما كبرت سنه، أردنــا نحره، فقلت: (تبيعونه؟)، فقالوا: هو لك يـا رسـول اللـه فقلت: (أحسنوا إليه حتى يأتيه أجله)، فقالوا: يا رسول الله، نحن أحــق أن نسـجد لــك من البهــائم، فقلت: (لا ينبغي لبشــر أن يسـجد

1() رواه أبو الشيخ.

2() رواه الترمذي، وحسنه.

3() رواه ابن سعد.

لبشر ولو كان النساء لأزواجهن)(4)

هذا ـ سيدي ـ غيض من فيض مما منحك الله من تعظيم وتبجيل وتكريم ومحبة في قلوب الكائنات.. وكيف لا يكون لك ذلك، وقد قال الله تعالى في شأنك: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح:4).. فلا أحد في العالم يجحد أن اسمك هو أشهر الأسماء وأعظمها.. وأنه الوحيد الذي يردد كل يوم وفي أوقات متعددة في جميع أنحاء العالم.

فأسألك يا سيدي أن يردد قلبي اسمك كل حين.. حتى يصير فانيا فيك.. عاشقا لك.. مقبلا عليك بكليته.. مسلما لك في كل شؤونه.. حتى يلقاك طاهرا نقيا جديرا بصحبتك والمعية معك.

4() رواه أحمد والبيهقي واللفظ له، ورجاله ثقات.

المتبتل العابد

سيدي يا رسول الله.. يا من تحققت فيك العبودية بأجمل صورها، وأكمل معانيها، فصرت نموذجها الأمثل، وفهرس مفرداتها الأعظم.. فمن أراد أن يكون عابدا لله، فأنت أسوته وقدوته وأنموذجه.. وليس عليه سوى أن يتبع هديك، ويسير على سنتك، لتكتمل له كل حقائقها وقيمها ومقاماتها ومنازلها.

لقد رحت سيدي أبحث عن سر ذلك الثناء العظيم الذي أثنى الله به عليك، وسر ذلك الكمال الذي حظيت به، فوجدت أنه محصور في عبوديتك.. فقد كنت عبدا حقيقيا لله.. ولم تكن فيك شائبة من عبودية لغيره.. ولذلك صرت مجلى للحقائق القدسية تتنزل عليك، ليراها غيرك من خلالك.. وصرت دليلا صافيا على الحق.. فمن أراد أن يعرفه، فليس عليه سوى أن يعرفك، ومن أراد أن يعبده، فليس عليه سوى أن يتبعك.

لقد عبر الله تعالى عن تلك العبودية التي امتلأت بها كل لطائفك المقدسة، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162، 163]

فهاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى تلك العبودية التي امتلأت بها جوانحك، فصارت صلاتك ونسكك وحياتك ومماتك وكل تصرفاتك نابعة منها خاضعة لها.. لم تشرك في ذلك أحدا.. ولم ترتض بغير ربك بدلا.

ولذلك أطلق عليك ربك أشرف الألقاب.. لقب العبودية.. وفي أشرف المقامات والمحال، فقال ــ عند ذكرك في مقام تنزل القرآن الكريم ـ:﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:23)، وقال:﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان:1)، وقال:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ (الكهف:1)، وقال:﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد:9)

وذكر عبوديتك لله في مقام دعوتك إليه، وخضوعك المطلق له، فقال:﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ (الجن:19)

وذكر عبوديتك لله عند تكريمه لك برحلة الإسراء والمعراج، فقال:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء:1)

ولهذا، كنت ــ سيدي ــ تذكر للذين يطرونك ويمدحونك ويثنون عليك، بأن يذكروا هذا المقام الرفيع الذي هو أشرف المقامات، ولولاه لم يكن هناك مقام ولا منزلة ولا كرامة ولا رفعة، فقد ورد في الحديث عنك قولك: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله)[1]،

وقلت في حديث آخر مبينا فضل عبودية الله على كل شيء: (أتاني ملك إلى حجرة الكعبة، فقال: إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت كنت نبيا، ملكا وإن شئت نبيا عبدا، فقلت: نبيا عبدا)[2]

1() رواه البخاري.

2() رواه البيهقي.

لقد تجلت ـ سيدي ـ عبوديتـك للـه في كـل شـيء.. ابتـداء من حرصـك على الشـعائر التعبديـة الـتي كنت تؤديهـا بخشـوع عظيم.. بل بشوق عظيم.. وكنت تقضي معها معظم ليلك، بعــد ذلك النهار الطويل الممتلئ بالمشاق والمتاعب.

وقد كان ذلك منك ـ سيدي ـ منذ الأيـام الأولى من إرسـال الله لك.. حينها أمرك بأن تقوم أكثر الليل، وأن تكثر من ذكــره، وأن تتبتل إليه تبـتيلا، فقـال: ﴿يَـا أَيُّهَـا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْـلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُــرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِـئَةَ اللَّيْـلِ هِيَ أَشَـدُّ وَطْئًا وَأَقْـوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَـكَ فِي النَّهَـارِ سَـبْحًا طَـوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: 1 - 9]

وقد ظل ذلـك ديـدنك طيلـة حياتـك.. فويـل لأولئـك الـذين راحوا يتهمونـك بالاسـتغراق في الـدنيا، وهم يرونـك في نهـارك داعية ومجاهـدا وقائـدا.. وفي ليلـك متبتلا وقانتـا وعابـدا.. فهـل يمكن لمن يكون هذا حاله أن يكون له ادنى اهتمام بالدنيا؟

ليت أولئك الذين لا يعرفونك راحـوا يقـرؤون تلـك الأوامـر الإلهيـة الخاصـة بـك، والـتي تـأمرك بالقيـام والتهجـد للـه، في الوقت الذي أعفيت أمتك فيه من هـذا التكليف[1]، قـال تعـالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِـهِ نَافِلَـةً لَـكَ عَسَـى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّكَ مَقَامًـا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]

وليتهم قرأوا معها شهادة اللـه لـك بـذلك، حيث قـال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْـفَهُ وَثُلُثَـهُ وَطَائِفَـةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَـكَ وَاللَّهُ يُقَـدِّرُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُـوهُ

[1] () قال ابن كثير في [تفسيره (5/ـ 103)] واختلف في معنى قوله: ﴿نافلة لك﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجـوب ذلـك وحـدك، فجعلـوا قيـام الليل واجبا في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي، رحمه الله، واختاره ابن جرير.

فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل: 20]

وليتهم قرأوا معها تلك الشهادات الكثيرة التي شهد بها من عايشوك، ليعرفوا سر تفطر أقدامك، وأنت قائم وراكع وساجد لربك.

فقد حدث صاحبك حذيفة عن ليلة من ليالي تعبدك لربك، وكيف حاول أن يتأسى بك فيها، لكنه عجز عن ذلك، فقال: قام النبي ﷺ ليلة وهو يصلي في المسجد، فقمت أصلي وراءه يخيل إلي أنه لا يعلم، فاستفتح بسورة البقرة، فقلت: إذا جاء مائة آية ركع، فجاءها فلم يركع، فقلت: إذا جاء مائتي آية ركع فجاءها فلم يركع، فقلت: إذا ختمها ركع فختمها فلم يركع فلما ختم، قال: (اللهم لك الحمد)، ثم استفتح آل عمران فقلت: إذا ختمها ركع فختمها ولم يركع وقال: (اللهم لك الحمد)، ثم استفتح النساء، فقلت: إذا ختمها ركع، فختمها فلم يركع وقال: (اللهم لك الحمد) ثلاثا ثم استفتح بسورة المائدة، فقلت: إذا ختمها ركع، فختمها فركع فسمعته يقول: (سبحان ربي العظيم)، ويرجع شفتيه فأعلم أنه يقول غير ذلك، فلا أفهم غيره، ثم استفتح بسورة الأنعام، فتركته وذهبت(1).

وذكر موقفا آخر، فقال: أتيت رسول الله ﷺ ذات ليلة لأصلي بصلاته، فاستفتح الصلاة فقرأ قراءة ليست بالرفيعة ولا الخفيفة، قراءة حسنة يرتل فيها يسمعنا، قال: ثم ركع نحوا من سورة قال ثم رفع رأسه فقال: (سمع الله لمن حمده ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)، ثم قام نحوا من سورة، وسجد نحوا من ذلك حتى فرغ من الطول وعليه سواد من الليل(2).

(1) رواه عبد الرزاق.

(2) رواه ابن أبي شيبة.

وذكر موقفا آخر، فقال: لقد لقيت رسول الله ﷺ بعد العتمة، فقلت: يا رسول الله ائذن لي أن أتعبد بعبادتك فذهب وذهبت معه إلى البئر، فأخذت ثوبه فسترت عليه، ووليته ظهري، ثم أخذ ثوبي فستر علي حتى اغتسلت، ثم أتى المسجد فاستقبل القبلة، وأقامني عن يمينه، ثم قرأ الفاتحة، ثم استفتح سورة البقرة، ولا يمر بآية رحمة إلا سأل الله، ولا آية تخويف إلا استعاذ، ولا مثل إلا فكر حتى ختمها ثم كبر، فرفع، فسمعته يقول في ركوعه: (سبحان ربي العظيم) ويرد فيه شفتيه حتى أظن أنه يقول: (وبحمده)، فمكث في ركوعه قريبا من قيامه، ثم رفع رأسه ثم كبر فسجد فسمعته يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى) ويرد شفتيه، فأظن أنه يقول: (وبحمده)، فمكث في سجوده قريبا من قيامه، ثم نهض حين فرغ من سجدته فقرأ فاتحة الكتاب، ثم استفتح (آل عمران) لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا مثل إلا فكر، حتى ختمها، ثم فعل في الركوع والسجود كفعل الأول، ثم سمعت النداء بالفجر، قال حذيفة: فما تعبدت عبادة كانت علي أشد منها(3).

وذكر موقفا آخر، فقال: صليت مع رسول الله ﷺ من الليل فلما دخل في الصلاة قال: (الله أكبر، سبحان ذي الملك والجبروت والكبرياء والعظمة)، ثم قرأ (البقرة) قراءة ليست بالخفيضة ولا بالرفيعة، حسنة يرتل فيها ليسمعنا، ثم يركع، فكان ركوعه نحوا من قيامه، وكان يقول: (سبحان ربي العظيم) ثم يرفع رأسه فكان قيامه نحوا من ركوعه وهو يقول: (سمع الله لمن حمده)، ثم قال: (الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة)، فكان سجوده نحوا من قيامه، وكان يقول (سبحان ربي الأعلى) ثم رفع رأسه، وكان بين السجدتين نحوا من السجود وكان يقول: (رب اغفر لي، رب

3() رواه الحارث بن أسامة.

اغفر لي) حتى قرأ (البقرة) و(آل عمران) و(الأنعام)، و(النساء) و(المائـدة) و(الأنعـام) قـال شـعبة: لا أدري المائـدة ذكـر أو الأنعام[1].

وحدث صاحبك الوفي ابن مسعود عن موقـف من مواقـف تعبدك، فقال: (صليت مع رسول الله ﷺ ليلـة، فلم يـزل قائمـا، وأطـال حـتى هممت بـأمر سـوء)، قيـل لـه: مـا هممت؟ قـال: (هممت أن أقعد وأذره)[2]

وقال: صليت مع رسول الله ﷺ في رمضـان، فركـع فقـال في ركوعه: (سبحان ربي العظيم) مثل ما كان قائمـا، ثم جلس يقول: (رب اغفر لي رب اغفر لي) مثل ما كان قائمـا ثم سـجد فقال: (سبحان ربي الأعلي) مثل مـا كـان قائمـا، فمـا صـلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال إلى الغداة)[3]

وسئلت زوجتك الصـالحة أم سـلمة عن قراءتـك وصـلاتك، فقالت: (ما لكم ولصلاته وقراءته، كان يصلي العتمـة ثم يسـبح، ثم يصلي بعدها ما شاء الله من الليل ثم يرقد) وفي لفظ (كـان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ثم يصبح ثم نعتت قراءتـه، فـإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا)[4]

وعنها قالت: (كـان رسـول اللـه ﷺ يصـلي ثم ينـام قـد مـا صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح)[5]

1() رواه ابن مالك، وأبو الحسن بن الضحاك، وأبو نعيم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه النسائي.

4() رواه أحمد، والثلاثة، وأبو الحسن الضحاك.

5() رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي.

وعنها قالت: كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام وكان يقرأ (بالبقرة) و(آل عمران) و(النساء) فلا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله تعالى ورغب إليه(1).

وحدث ابن عمك ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة، فصلى رسول الله ﷺ العشاء، ثم جاء فصلى أربع ركعات، ثم نام ثم قام فقمت عن يساره فجعلني عن يمينه فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه، ثم خرج إلى الصلاة(2).

وحدث الوفي الصالح جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يتسوك من الليل مرتين، أو ثلاثا، كلما رقد فاستيقظ استاك وتوضأ، وصلى ركعتين أو ركعة(3).

وهكذا ــ سيدي ــ وردت الشهادات الكثيرة الدالة على تبتلك وتعبدك لله، وفي كل الأوقات والأحول حتى في تلك المواقف الصعبة التي اجتمع فيها أعداؤك على حربك.. لكنك لم تكن تبالي بهم.. بل كنت تهرع إلى الصلاة، لترتاح بها في جوار ربك، ولذلك كنت تقول لبلال: (يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)(4)

وحدث ابن عباس عنك أنك قلت: (قال لي جبريل: قد حبب إليك الصلاة فخذ منها ما شئت)(5)

1() رواه أحمد.

2() رواه البخاري.

3() رواه الطبراني.

4() أحمد (5/364، رقم 23137)، وأبو داود (4/296، رقم 4985)

5() رواه أحمد، والطبراني، برجال الصحيح.

ولم يكن ذلك ـ سيدي ـ وحده الميدان الذي برز فيه تعبدك لله.. فقد كنت عابـدا للـه في كـل أحوالـك، وكـان لسـانك دائم الـذكر لربـك، ولم تكن تفـتر لحظـة واحـدة عن ذكـره، ولا عن القيام بأي شيء يكلفك به.

حتى في تلك الأوقات التي يتصور من معك فيها أنك نائم.. لم تكن كذلك، وإنما كان قلبك مستيقظا حاضرا مـع ربـك، وقـد قلت في ذلك: (تنام عيناي، ولا ينام قلبي) [1]

وقلت لمن عجب من وصالك للصوم، وصـبرك عليـه: (إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني) [2]

وهكذا كانت حياتك كلها ـ سيدي ـ عبوديـة خالصـة لربـك.. ولذلك كنت أهلا لكل تلك التكريمات العظيمة التي كرمـك اللـه بهـا.. فويـل لأولئـك الـذين راحـوا يشـوهونك ويحرفونـك ويدنسونك.. ما أجهلهم بك، وما أعظم حقدهم عليك.

فأتوسل بك ـ سـيدي ــ إلى اللـه أن يجعلـني من العابـدين المتبتلين القانتين الذين امتلأت قلوبهم وأرواحهم وكل لطائفهم بكـل ألـوان العبوديـة.. حـتى ألقى اللـه وأنـا جـدير بلقائـك، وصحبتك.. فلا يصحبك ـ سـيدي ــ إلا من كـان أهلا لـذلك.. وقـد قلت لمن قال لك: (يا رسول اللّه أسألك مرافقتك في الجنـة): (أعني على نفسك بكثرة السجود) [3]

1() البخاري (138) و (859)، ومسلم (763) (186)

2() البخاري (1964)، ومسلم (1105)

3() رواه أبو داود والترمذي.

العفيف الزاهد

سيدي يا رسول الله.. أيها العفيف الزاهد.. الذي تزينت لـه الدنيا بكل محاسنها، وتعرضت له بجميع مباهجها.. فراح يعـرض عنها بكل كيانه، مقبلا على ربه، منشغلا بما طـوق بـه عنقـه من أصناف التكاليف.

لقد رحت ـ سيدي ـ أتأمـل حياتـك، وكيـف كنت تعيش في مكة التي كرمها الله بنشـأتك فيهـا، والمدينـة الـتي نورهـا اللـه بهجرتك إليهـا.. فوجـدت حياتـك وحـدها أكـبر دليـل على نبوتـك وعظمتـك واصـطفاء اللـه لـك.. فحياتـك ــ سـيدي ــ في فـترة الاضــطهاد والحصــار والمواجهــة لا تختلــف في أي شــيء عن حياتـك في فـترة التمكين والقيـادة.. ففي كليهمـا كنت الزاهـد العفيف الـذي يرضـى بـالعيش القليـل الـذي يربـأ عنـه الفقـراء أنفسهم.

أصدقك ـ سيدي ـ أني مع تقديسـي وتعظيمي لـك، تـألمت كثيرا لتلك الحياة التي كنت تعيشها، والـتي اختلـط فيهـا الجـوع مع التعب مع أنواع المواجهات التي كنت تقابلها جميعـا بصـبرك الجميل، ورضاك عن ربك الذي لا حدود له.

ولم يكن ذلك سبب ألمي الوحيد؛ فأنا أعلم أنك تعيش في عوالم الجمال والكمال التي تجعلـك تـرى الـدنيا كلهـا بصـورتها الحقيقيــة الممتلئــة بــالزيف والخديعــة.. لكــني أتــألم لأولئــك المجازفين بهجرانك، المصدقين لدعاوى الحاقدين عليك.

ولو أنهم ـ سيدي ـ نظـروا إلى حياتـك المليئـة بكـل ألـوان المشاق والمتاعب.. والـتي كنت تـأوي منهـا إلى بيتـك البسـيط الذي لا يختلف عن بيوت أفقر الفقراء والمساكين.. لو رأوا ذلك

لكفاهم في الدلالة على صدقك.

فهل يمكن لمدع وكاذب ومخادع أن يبذل حياته جميعا مضحيا، ثم لا ينال من الحياة إلا ذلك الشظف والمعاناة التي وصفها بعض أصحابك عندما دخل عليك، فرآك متكئا على رمال حصير قد أثر في جنبك؛ فرفع رأسه في البيت، فما رأى فيه شيئا يرد البصر، إلا ثلاثة بسط معلقة، وصبرة من شعير، فهملت عيناه، فقلت: ما لك؟ فقال: يا رسول الله أنت صفوة الله من خلقه، وكسرى وقيصر فيما هما فيه؟.. فقلت له بكل هدوء: (أفي شك أنت.. أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة؟)، فقال: (بلى، يا رسول الله، فأحمد الله عز وجل)، فقلت له: (لو شئت أن يسير الجبال الراسيات معي ذهبا لسارت)[1]

وحدث آخر، قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح عنه، فقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا فبسطت شيئا يقيك منه، تنام عليه، فقال: (ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فقال تحت شجرة ثم راح وتركها)[2]

لم يكن أولئك ـ سيدي ـ فقط من أخطأ في حقك.. بل هناك غيرهم كثير.. حتى أن هناك من راح يدعي أنك إذا عدت إلى الدنيا للبست بذلة عصرية، وامتلكت أغلى السيارات، وسكنت أرفه القصور.. ولم يلتفت هؤلاء المحجوبون بزخارف الدنيا أن كل ذلك، وفوقه أضعافا مضاعفة أتيح لك.. لكنك كنت ترفض ذلك..

1() رواه أحمد وأبو يعلى، وتمام الرازي، وابن عساكر وأبو داود الطيالسي، والترمذي، وصححه.. والجملة الأخير زادها أبو الحسن بن الضحاك.

2() رواه أحمد وأبو يعلى، وتمام الرازي، وابن عساكر وأبو داود الطيالسي، والترمذي.

ولولاه ـ سيدي ـ لما كنت سيد الزهاد وأسوتهم، فالذي به فاقة ضرورية قد لا يفطن لكونه زاهدا، بل قد يكون راغبا، والفاقة هي التي جعلته يبدو من الزهاد.. ولكنك سيدي لم تكن كذلك.. فقد أتيحت لك كل الخيارات.. لقد كان الغنى أمامك، وبين يديك.. بل كان الغنى أقرب إليك من الفقر.. والرفاه أقرب إليك من الشظف.. ولكنك ــ سيدي ــ آثرت حياة الزهاد على حياة المترفين.. ورضيت أن تكون كأبسط الناس، لتكون أسوة لجميع الناس، وحتى لا يأتي أحد من الناس، فيتصور أن النبوة وسيلة من وسائل الثروة، أو طريق من طرقها.

لقد حدثت ـ سيدي ــ عن هذا الخيار الذي أتاحه الله لك، فقلت: (لو شئت لسارت معي جبال الذهب) (1)

وفي حديث آخر، قلت: (عرض علي ربي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب، ولكني أجوع يوما، وأشبع يوما، فإذا شبعت حمدتك، وشكرتك، وإذا جعت تضرعت إليك، ودعوتك)(2)

وفي حديث آخر روي أنه قيل لك: يا رسول الله ﷺ إن شئت أعطيناك خزائن الدنيا، ومفاتيحها لم نعطها أحدا قبلك، ولا نعطيها أحدا بعدك، لا ينقصك ذلك عند الله شيئا، فقلت: (اجمعوها لي في الآخرة)، فأنزل الله تعالى عليك قوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾ (الفرقان:10)(3)

وفي حديث آخر عن أم سلمة قالت: نام رسول الله ﷺ على

1() رواه ابن عساكر.

2() رواه ابن سعد، والترمذي، وأبو الشيخ عن أبي هريرة وابن سعد وابن حبان عن أبي أمامة.

3() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (19/ 243)

وسادة حشوها ليف، فقـام وقـد أثـر بجلـده، فبكيت فقـال: (يـا أم سلمة ما يبكيك؟) قلت: ما أرى من أثر هـذه، فقـال: (لا تبكي، لـو أردت أن تسير معي هذه الجبال لسارت)(1)

وقد ظل هذا الخيار مفتوحا أمامك جميـع حياتـك، فقـد حـدث بعض أصـحابك عن الأيـام الأخـيرة لـك، فـذكر أنـك جلسـت على المنبر، فقلت: (إن عبدا خيره الله تعالى أن يؤتيه من زهـرة الـدنيا وما عنده، فاختار ما عنده)(2)

بل إنك ـ سيدي ـ كنت تدعو الله كل حين، وفي تلك الظروف الصعبة أن يرزقك الله القوت والكفاف من غير أن يتجاوزهما، فقد كنت تقول:(اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا)(3)

بل إنك ـ سيدي ـ كنت تسـأل اللـه حيـاة المسـكنة الـتي هي أقرب أنواع الحياة للعبوديـة، وكنت تقـول: (اللهم أحيـني مسـكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين)(4)

وكنت تقول: (اللهم توفني فقيرا، ولا توفني غنيـا، واحشـرني في زمرة المساكين، فـإن أشـقى الأشـقياء من اجتمـع عليـه فقـر الدنيا، وعذاب الآخرة)(5)

ولم تكن تكتفي بذلك ـ سيدي ـ بـل كنت تتهـرب من كـل مـا يمكن أن يملأ حياتك بـذخا وترفـا.. بـل من كـل مـا يملؤهـا هـدوءا ودعة.. فقد روي أن امرأة من الأنصار رأت فراشك عباءة خشـنة،

1() رواه أبو ذر الهروي.

2() رواه البخاري، وغيره.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه ابن المبارك والترمذي.

5() رواه ابن عدي.

فانطلقت، فبعثت إليك بفراش حشوه الصوف، فلما رأيته سألت عنه، فقيل لك: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت، فرأت فراشك، فذهبت، فبعثت إلي بهذا الفراش، فأمرتهم برده، وقلت: (والله لو شئت لأجرى الله معي الجبال ذهبا وفضة)(1)

ولذلك تواترت الروايات ومعها الشهود الكثيرون على تلك الحياة البسيطة التي كنت تعيشها، والتي دعاك الله إليها، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131]

بل أمرك بأن تخير أزواجك بين الرضا بها، وبين أن يعدن لحياتهن التي تعودن عليها، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 28، 29]

ومن تلك الشهادات ـ سيدي ـ شهادة زوجتك عائشة، والتي عبرت عنها مرات كثيرة، خاصة لأولئك الذي جرفتهم الدنيا بأهوائها، وغفلوا عن الوصية التي أوصيتهم بها، فقد كانت تقول لهم: (كان يأتي علينا الشهر، وما نوقد فيه نارا، إنما هوالتمر والماء، إلا أن نؤتى باللحم(2).

وقالت:(ما شبع آل محمد من خبز بر ثلاثة أيام متتابعات، حتى قبض ﷺ)

وقالت:(ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا إحداهما تمر)

1() رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور، وابن عساكر.

2() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.. والأقوال التي تلي قولها هذا روايات في الحديث، وقد اخترنا اعتبارها أحاديث قائمة بذاتها.

وقالت: توفي رسول الله ﷺ حين شبع الناس من الأسـودين، التمر والماء.

وقالت: ما شبعنا من الأسودين التمر والماء.

وقالت: والله لقـد مـات رسـول اللـه ﷺ ومـا شـبع من خـبز، وزيت في يوم واحد مرتين.

وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ غداء لعشـاء، ولا عشـاء لغـداء قط، ولا اتخذ من شـئ زوجين لا قميصـين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا من النعال ولا رئي فارغا قط في بيتـه، إمـا يخصـف نعلا لرجـل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة(1).

وقالت:(والذي بعث محمدا بالحق نبيا مـا رأى منخلا، ولا أكـل خبزا منخولا، منذ بعثه الله إلى أن قبض، قيل، كيف كنتم تصنعون؟ قالت: كنا نقول أف أف (2).

وقـالت: مـا كـان يبقى على مائـدة رسـول اللـه ﷺ من خـبز الشعير قليل ولا كثير (3).

وقالت: ما رفعت مائدة رسول الله ﷺ من بين يديـه، وعليهـا فضلة من طعام قط (4).

وقالت: ما شبع رسول اللـه ﷺ ثلاثـة أيـام تباعـا حـتى مضـى لسبيله (5).

1() رواه ابن عساكر.

2() رواه أحمد برجال ثقات غير سليمان بن رومان.

3() رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.

4() رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.

5() رواه البخاري ومسلم والبيهقي.

وكانت تقول لعـروة: يـا ابن أخـتي، إنـا لننظـر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقال لها: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسـودان: التمر والماء، إلا أنه قد كـان لرسـول اللـه ﷺ جـيران من الأنصـار، وكانت لهم منائح، وكانوا يرسلون إلى رسـول اللـه ﷺ من ألبانهـا، فيسقيناه.

وكانت تقول له:(وايم الله، يا ابن أختي إن كـان يمـر على آل محمد الشهر لم يوقد في بيت رسول اللـه ﷺ نـار، لا يكـون إلا أن حوالينـا أهـل دور من الأنصـار - جـزاهم اللـه خـيرا في الحـديث والقديم - فكل يوم يبعثـون إلى رسـول اللـه ﷺ بغزيـرة شـياههم، فينال رسول الله ﷺ من ذلك، ولقد توفي رسول اللـه ﷺ ومـا في رفى من طعام يأكله ذو كبد إلا قريبا من شطر شعير، فأكلت منـه حتى طال علي، لا تغني وكلته عني، فيا ليتـني لم آكلـه، وأيم اللـه، وكان ضجاعه من أدم حشوه ليف)

وقالت: لو أردت أن أخبركم بكل شبعة شبعها رسول الله ﷺ حتى مات، لفعلت(1).

وقالت: أهديت لنا ذات يوم يد شاة فوالله إني لأمسـكها على رسول الله ﷺ ويحزها، أو يمسـكها علي رسـول اللـه ﷺ وأحزهـا، قبل على غير مصباح؟ قالت: لو كان عندنا دهن مصباح لأكلناه، إن كان ليأتي على آل محمد الشهر ما يخبزون فيه خبزا، ولا يطبخـون فيه برمة (2).

وقالت: ما شبع آل محمد ثلاثـة أيـام من خـبز الـبر حـتى ذاق رسول الله ﷺ الموت، ومـا زالت الـدنيا علينـا عسـرة كـدرة حـتى

1() رواه ابن عساكر.

2() رواه ابن سعد وأحمد برجال الصحيح وابن عساكر وابن الجوزي.

مات رسول الله ﷺ، فلما مات أنصبت علينا صبا(1).

وقالت: ربما قال النبي ﷺ: (يا عائشة هلمي إلى غذاءك المبارك، وربما لم يكن إلا التمرتين)(2)

وقالت: ما اجتمع في بطن رسول الله ﷺ طعامان قط، إن أكل لحما لم يزد عليه، وإن أكل تمرا لم يزد عليه، وإن أكل خبزا لم يزد عليه (3).

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة يوما، فدعت بطعام فقالت لي: كل فلقل ما أشبع من طعام، فأشاء أن أبكي أن بكيت، قال: قلت: لم يا أم المؤمنين؟ قالت: أذكر الحال التي فارقها رسول الله ﷺ، ما شبع رسول الله ﷺ في يوم مرتين من خبز شعير حتى لحق بالله (4).

وهكذا تواترت شهادات غيرها، فقد ذكر أنس بن مالك أن فاطمة جاءتك بكسرة خبز فقلت لها: (ما هذه الكسرة؟) قالت: قرصة خبزتها، فلم تطب نفسي إلا أن آتيك بهذه الكسرة، فقلت: (أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام) (5)

وقال: مشيت إلى رسول الله ﷺ بخبز شعير وله هالة ولقد سمعته يقول: (ما أصبح لآل محمد، ولا أمسى في آل محمد إلا صاع، وإنهن يومئذ لتسعة أبيات) (6)

1() رواه ابن عساكر.

2() رواه ابن عدي.

3() رواه ابن سعد.

4() رواه ابن عساكر.

5() رواه أحمد، وابن سعد وأبو داود، والحارث بن أبي أسامة برجال ثقات.

6() رواه البخاري ومسلم.

وقال: إن النبي ﷺ لم يجتمع له غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف (1).

وقال: شهدت وليمة للنبي ﷺ ما فيها خبز ولا لحم (2).

وقال: أكل رسول الله ﷺ بشعا ولبس خشنا، فسئل أبو الحسن ما البشع؟ قال: غليظ الشعير، وما كان يسفه إلا بجرعة من ماء(3).

وقال: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفا مرققا بعينه، حتى لحق بربه، ولا شاة سميطا قط (4).

وغيرها من الشهادات الكثيرة التي لم يخالف فيها أحد من أصحابك، بل كلهم كانوا متفقين على ذلك الزهد الذي ملأ حياتك كلها، فجعلك المثل الأعلى له.

بل إنهم لم يكتفوا بذلك، وإنما نقلوا لنا صورا عن مبلغ ذلك الزهد؛ فذكروا أنك كنت تعصب في أحيان كثيرة الحجر على بطنك من الجوع (5).. فعن ابن عباس قال: احتفر رسول الله ﷺ الخندق وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع(6).

1() رواه ابن أبي شيبة، أحمد، وأبو يعلى، والترمذي في الشمائل، وابن سعد بإسناد صحيح.

2() رواه ابن سعد.

3() رواه أبو الحسن بن الضحاك.

4() رواه ابن سعد.

5() وقد كان ذلك من عادة العرب عند الجوع، فإذا خوى البطن لم يمكن معه القيام، فيعمل الشخص حينئذ إلى صفائح رقاق في طول الكف، أو أكثر، فيربطها على بطنه، ويشدها بعصابة فوقها، فتعتدل قامته بعض الاعتدال، وقد قال بعض من وقع له ذلك: كنت أظن أن الرجلين تحملان البطن، فإذا البطن هو الذي يحمل الرجلين.

6() رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند.

وعن جبير بن نفير قال: قال أبو البجير: أصاب رسول الله ﷺ يوما الجوع، فوضع على بطنه حجـرا، وقـال: (يـا رب نفس ناعمـة طاعمة، جائعة عارية يوم القيامة) (1)

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ يشد حبليه بالحجر من الغـرث (2).

وعن جابر قال: مكث رسول الله ﷺ وأصحابه، وهم يحفـرون الخندق ثلاثا لم يذوقوا طعاما، قال جابر: فحانت مـني التفاتـة فـإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجرا من الجوع (3).

وعن أنس قال: قال أبـو طلحـة: شـكونا إلى رسـول اللـه ﷺ الجوع، ورفعنا عن حجر حجر، فرفع النبي ﷺ عن حجرين(4).

وعن أبي البجير قال: أصاب النبي ﷺ جـوع يومـا، فعمـد إلى حجر فوضعه على بطنه (5).

وعن أنس قال: جئت رسول الله ﷺ يوما فوجدته جالسـا مـع أصحابه يحدثهم، وقد عصب على بطنـه بعصـابة، قـال أسـامة: أنـا أشد على حجر، فقلت لبعض أصـحابه: لم عصـب رسـول اللـه ﷺ بطنه؟ قالوا: من الجوع (6).

وعن حصين بن يزيد الكلبي قـال: ربمـا شـد رسـول اللـه ﷺ

1() رواه البيهقي وابن عساكر.

2() رواه ابن سعد.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه الترمذي بسند جيد قوي.

5() رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الزهد، وابن عساكر.

6() رواه مسلم والبيهقي.

على بطنه الحجر من الجوع [1].

لقد صور بعض الشعراء ذلك، فقال:

كأن عيال الناس طرا ... فكلهم مما لديه
يبيت على فقر، ولو ... له ذهبا محضا ربي
وما كانت الدنيا لديه ... فقد صرمت فيها
رأى هذه الدنيا سريعا ... فلم يرض شيئا
لعمرك ما الأعمار إلا ... ولكن آمال الرجال
أتته مفاتيح الكنوز ... وعافت يمين مسها
وكان يفيض المال بين ... كما فضت الترب
فما كان للمال ... وكم غر أرباب

ولذلك كنت ـ سيدي ـ لا تبالي بالطعام الذي تسد به جوعك، لا كأولئك الذين لا يأكلون إلا ما يشتهون.. وقد روي عنك أنك قلت: (ما أبالي ما رددت به عن الجوع) [2]

وحدث ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على أم هانئ بنت أبي طالب، وكان جائعا.. فقال رسول الله ﷺ: (هل عندك طعام آكل) فقالت: إن عندي لكسرة يابسة، وإني أستحي أن أقدمها، قال: (هلميها فكسرها في ماء)، فجاءته بملح، فقال: (ما من أدم؟) فقالت: ما عندي يا رسول الله إلا شئ من خل، فقال: (هلميه)، فلما جاءت صبه على طعامه، وأكل، ثم حمد الله تعالى، ثم قال: (نعم الأدم الخل يا أم هانئ لا يفتقر بيت فيه

1() رواه أبو نعيم وابن عساكر.

2() رواه ابن المبارك في الزهد عن الأوزاعي.

خل) (1)

وحدثت أم سعد قالت: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وأنـا عندها، فقال: هل من غداء؟ قالت: عنـدنا خـبز وتمـر وخـل، فقـال رسول الله ﷺ:(نعم الإدام الخل.. اللهم بارك في الخل، فإنـه كـان إدام الأنبياء قبلي، ولم يفتقر بيت فيه خل) (2)

هذه ـ سيدي ـ بعض الشهادات الدالـة على الحيـاة الـتي كنت تعيشـها، ولا يمكن فهمهـا، ولا تقـدير قيمتهـا إلا عنـد جمعهـا مـع خصالك جميعا.. تلك الخصال الممتلئة بـالقوة والإيجابيـة والفاعليـة والتـأثير.. فلم تكن كأولئـك الزهـاد المنطـوين على أنفسـهم، المنشغلين بحالهم، بل كنت تحمـل هم الأمـة جميعـا، بـل البشـرية جميعا.. لا تلك التي عاصرتها فقط، بل في كل العصور.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ وأتوسـل بـك إلى ربي أن يخرج حب الدنيا من قلبي، وأن يجعلني أعيش تلك العوالم الجميلة التي كنت تعيشها، والتي لا تساوي أمامها الدنيا بكل زخارفها شيئا.

وأسـألك ـ سـيدي ـ أن أكـون من أولئـك الـذين وفـوا لـك بعهودهم؛ فلم تغرهم زينة الحياة الدنيا، ولم يتثاقلوا لأهـوائهم، ولم يبتغوا عن صـحبتك بـديلا، حـتى ألقـاك وأنت راض عـني، إنـك أنت صاحب الوسيلة العظمى، والجاه العظيم.

1() رواه ابن المبارك في الزهد.

2() رواه ابن ماجة.

المقاوم المجاهد

سيدي يا رسول الله.. أيها المقـاوم المجاهـد.. الثـابت في كل المعارك.. المناضل على كـل الجبهـات.. الصـامد أمـام كـل التحديات.. الثـائر على كـل أنـواع التسـلط والاسـتبداد والبغي.. المقوّم لكل الانحرافات والضلالات والتيه.

لقد درست ـ سيدي ـ حياتك بكل تفاصيلها التي أوردها لنـا المحدثون والمؤرخون من المدارس المختلفـة، وقارنتهـا بحيـاة كل الأبطال والمقاومين الذين انبهر البشر بشجاعتهم وبطولتهم ومقاومتهم.. فلم أجـد سـيدي أحـدا يضـاهيك، بـل يـدانيك.. بـل وجدتهم جميعا تلاميـذ صـغارا أمـام بطولتـك وثباتـك وشـجاعتك وجهادك في كل المجالات.

لقــد رأيتهم سـيدي جميعـا يناضـلون في ميـدان واحــد.. ورأيتـك تناضـل في كـل الميـادين.. فـأنت لا تكتفي بمواجهـة الشرك والخرافة والدجل.. ولا بزرع القيم الأخلاقية والروحيـة.. ولا بالنشاط السياسي والعسكري.. وإنما كنت تمـارس النضـال في جميع مجالات الحياة.. وتعطي النموذج الأمثل فيهـا، لتكـون قدوة لكل مقاومة شريفة لا تكتفي بالجزئيات عن الكليـات، ولا بالأشياء عن الإنسان.

وقـد رأيتـك سـيدي فـوق ذلـك تثبت أمـام جميـع أنـواع التحديات.. ما يسر منها وما يضر.. فلم تلن ولم تساوم، ولم تبع دينك بشيء من الـدنيا.. بـل كنت تقـرأ عليهم في ذلـك الـوقت الذي كانوا يؤذونك فيه أعظم إذية، ويغرونك أعظم إغراء، قولـه تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُـدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَـا عَبَـدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾ [الكافرون: 1 - 6]

لقد كنت ـ سيدي ـ تقرؤها عليهم في الوقت الذي كنت فيه مع أصحابك في حاجة لأي سند يخفف عنكم ذلك الاضطهاد الجائر الذي كان يمارس عليكم.

في ذلك الحين ساومك المشركون على دينك، وعرضوا عليك أن يعطوك مالا، لتكون أغنى رجل بمكة، وعرضوا عليك أن يزوجوك أجمل نسائهم.. وقالوا لك بعدها: (هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء؛ فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح)، فقلت لهم: ما هي، فقالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة..

حينها لم تدر ما تقول لهم، لا ترددا، ولا ريبة، ولكن لعجبك من هذا الطرح الذي طرح عليك.. حينها نزلت عليك سورة الكافرون، لتتولى الإجابة عنك.. فهي السورة التي تعلن المفاصلة التامة بين الإيمان وقيمه الرفيعة، والكفر وقيمه الوضيعة.. فلا يمكن لمن أسلم وجهه لله أن يجمع بين تلك القيم المتنافرة، وإلا كان منافقا ومخادعا ودجالا.

في ذلك الحين أيضا، وبعدها، نزلت عليك الآيات الكثيرة تدعوك للمفاصلة التامة مع كل ما يعرضونه عليك من أصناف المساومات.. نزل عليك حينها قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 40، 41]

ونزل عليك معها قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 25، 26]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدعوك، وتدعو كل

المؤمــنين في كــل الأجيــال إلى الصــمود والمقاومــة وعــدم الاستســلام للمســاومات والإغــراءات والاضــطهادات.. وعــدم تغليب المصالح الوقتية على المبادئ الدائمة.

وقد كنت ـ سيدي ـ القرآن الناطق لتلك الآيات جميعا؛ فقد واجهت في حياتـك مـا لـو سـلط على الحديـد لـذاب، أو على الجبال لانـدكت.. فقـد أُلب أهلـك عليـك.. وأوذيت في أصـحابك وأقاربــك.. وحوصــرت اقتصــاديا.. واتّهمت بــالجنون والســحر.. وسـلط عليـك الصـبيان والمجـانين.. وعرضـت عليـك في ذلـك الوقت المليء بكل ألوان الأسى كل أنواع الإغراءات.. فواجهت ذلـك جميعـا، وبقـوة وصـلابة.. وكنت تقـول في تحـد لا يضـاهى مخاطبـا عمـك المجاهـد الصـابر المحتسـب: (يـا عم واللـه لـو وضعوا الشمس في يميـني والقمـر في شـمالي على أن أتـرك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)[1]

لقد ذكر القرآن الكريم بعض ما أوذيت به، ومنه رميهم لك بالجنون، فقال حاكيًا عنهم:﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر:6)، وقال تعالى:﴿ وَإِنْ يَكَـادُ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـارِهِمْ لَمَّا سَـمِعُوا الـذِّكْرَ وَيَقُولُـونَ إِنَّهُ لَمَجْنُـونٌ﴾ (القلم:51)

وكـان القـرآن الكـريم يثبتـك في تلـك المواقـف الصـعبة، ويخبرك أن هذا ما حصل للأنبياء عليهم السـلام من قبلـك، كمـا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (الذريات:52)، وقال:﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (القمر:9)

ومنها رميهم لك بالسحر، كمـا قـال تعـالى:﴿ أَكَـانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا

[1] سيرة ابن إسحاق، السير والمغازي (ص: 154)

أَنَّ لَهُمْ قَـدَمَ صِـدْقٍ عِنْـدَ رَبِّهِمْ قَـالَ الْكَـافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَـاحِرٌ مُبِينٌ (يونس:2)، وقال: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْـذِرٌ مِنْهُمْ وَقَـالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (صّ:4)

وكـان القـرآن الكـريم يثبتـك، ويخـبرك أن هـذا مـا حصـل للأنبياء عليهم السلام من قبلك، كما قال تعالى: قَـالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (لأعراف:109)، وقال: قَالَ مُوسَـى أَتَقُولُـونَ لِلْحَـقِّ لَمَّا جَـاءَكُمْ أَسِـحْرٌ هَـذَا وَلا يُفْلِحُ السَّـاحِرُونَ (يـونس:77)، وقـال: قَـالُوا إِنْ هَـذَانِ لَسَـاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَـاكُمْ مِنْ أَرْضِـكُمْ بِسِـحْرِهِمَا وَيَـذْهَبَا بِطَـرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (طـه:63)

ومنها رميهم لك بالشـعر، مـع علمهم بـأن القـرآن الكـريم ليس له أوزان الشعر ولا طريقته قال تعالى: بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَـةٍ كَمَـا أُرْسِـلَ الْأَوَّلُـونَ (الانبياء:5)، وقال: وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَـاعِرٍ مَجْنُـونٍ (الصـافات:36)، وقـال: أَمْ يَقُولُـونَ شَـاعِرٌ نَتَـرَبَّصُ بِـهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (الطـور:30)، وقـال: وَمَـا هُـوَ بِقَـوْلِ شَـاعِرٍ قَلِيلاً مَـا تُؤْمِنُونَ (الحاقة:41)

ومنها رميهم لك بالكهانة، كما قال تعالى: فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (الطور:29)، وقـال: وَلا بِقَـوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (الحاقة:42)

ومنها احتقارهم لك، كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الزخرف: 31)

وغيرها من الآيات الكريمة التي رسم فيها القـرآن الكـريم بعض الصور لما كان المشركون وغيرهم يؤذونـك بـه.. ولم تكن تقابل ذلك إلا بالصبر والرضى والثبات والمقاومة الباسلة.

ائذن لي سيدي أن أشنف آذان قلـبي ومـرآة خيـالي بتلـك المشاهد العظيمة التي وقفتها.. والـتي كلمـا قرأتهـا أو تـذكرتها شعرت بالنشـاط يسـري في عـروقي، ويـدفعني لمواجهـة كـل العالم من أجلك.. فتلك المشاهد ـ سيدي ــ هي زادي وزاد كـل حر يريد أن يخرج من البوتقة التي فرضها عليه قومه.

دعني ـ سيدي ـ أذكر ذلك الموقف الشـديد القاسـي الـذي مـر عليـك في أول دعوتـك، والـذي تـولى كـبره بعض أقاربـك المقـربين، ذلـك العم القاسـي أبـو لهب، الـذي نـزلت في حقـه سورة كاملة تبين الخسارة الـتي وقـع فيهـا حين باعـك بأهوائـه وأموال قريش..

فقد روي بأسانيد مختلفة [1] أنك لما أنزل الله عليك قوله: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْـرَبِينَ﴾(الشـعراء:214) قمت على الصـفا، فعلوت أعلاها حجرا، ثم ناديت: يا صـباحاه، فقـالوا: من هـذا؟.. وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسـل رسـولا لينظـر مـا الذي يحصل.

حينها جاء عمك أبـو لهب ومعـه وجهـاء قـريش، فـاجتمعوا إليـك؛ فقلت لهم: (إن أخـبرتكم أن خيلا تخـرج من سـفح هـذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟)

وطبعـا لم يجـدوا إلا أن يصـدقوا، فقـد كنت تـدعى بينهم الصادق الأمين، ولم يجربوا عليك كذبا قـط، فلـذلك قـالوا: (مـا جربنا عليك كذبا)

حين أقروا لك بذلك، وأقمت عليهم الحجة بكونـك صـادقا، قلت لهم: (يا معشر قريش، أنقذوا أنفسـكم من النـار، فـإني لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من

---
[1]() رواه البخاري ومسلم والبلاذري وغيرهم.

النار، فـإني لا أغـني عنكم من اللـه شـيئا، يـا بـني عبـد شـمس أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من اللـه شـيئا، يـا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغــني عنكم من الله شيئا، يا عباس عم رسول الله ﷺ أنقذ نفسك من النار، فإني لا أغـني عنـك من اللـه شـيئا، يـا صـفية عمـة محمـد، ويـا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار، فإني لا أملــك لكمـا من الله شيئا، غير أن لكما رحمـا سـأبلها ببلالهـا، إني لكم نـذير بين يدي عذاب شديد)(1)

في هذا الموقـف، وبعـد هـذه الكلمـات المـؤثرة الناصـحة واجهك عمك أبو لهب بكل قسوة قائلا: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟

لم يقـف أبـو لهب ذلـك الموقـف فقـط.. بـل ظـل خلفـك يتعقبك، وفي كل مكان تذهب إليه لينفر الناس عنك؛ فقد حدث بعض المعاصرين لذلك، فقال: رأيت النـبي ﷺ في الجاهليـة في سوق ذي المجاز، وهو يقول: (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، والناس مجتمعـون عليـه، ووراءه رجـل وضـيء الوجـه أحولُ ذو غديرتين، يقول: إنـه صـابئ كـاذب.. يتبعـه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب(2).

وقال آخر: إني لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول اللــه ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيء، ذو جُمَّة يَقِفُ رسول اللـه ﷺ على القبيلـة فيقـول: (يـا بـني فلان، إني رسـول اللـه إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شـيئا، وأن تصـدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذَ عن الله ما بعثني به)، وإذا فرغ من مقالتــه قال الآخر من خلفه: يـا بـني فلان، هـذا يريـد منكم أن تسـلُخوا

1() دلائل النبوة للبيهقي (2/ 177)

2() رواه أحمد.

اللات والعـزى، وحلفـاءكم من الجن من بـني مالـك بن أُقَيْش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسـمعوا لـه ولا تتبعـوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب[1].

وذكر آخر أنك لما دعوت قومك إلى الإيمان، قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقا، فإني أفتدي نفسي يـوم القيامـة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾(المسد:2)

ومثل أبي لهب زوجته المارقة أم جميـل بنت ألـد أعـدائك، وأختهم[2] تلـك الـتي سـماها اللـه تعـالى ﴿حَمَّالَـةَ الْحَطَبِ ﴾ [المسـد: 4]، فقد كـانت عونًـا لزوجهـا على كفـره وجحـوده وعنـاده، وقـد كـانت تضـع الشـوك في طريقك[3].. وكـانت لهـا قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عـداوة محمـد، فأعقبهـا اللـه بها حبلا في جيدها من مسد النار.

عنـدما تـأملت ــ سـيدي ــ هـذه المواقـف، وحـاولت أن أعيشها، وجدت مدى الآلام التي كنت تحملها، وأنت ترى عمـك، وهـو يكـذبك، وينفـر النـاس عنـك.. ووجـدت معهـا ذلـك التـأثير الخطير الذي يقـوم بـه ذلـك العم الحقـير.. فالنـاس في العـادة يسـتمعون لآراء الأقـارب بعضـهم في بعض، ويبنـون عليهـا مواقفهم، ولذلك كان موقف عمـك ليس مؤذيـا لـك فقـط، بـل كـان مؤذيـا لـدعوتك أيضـا.. لأن المغفلين سـيقولون حين يسمعوه: لو كان فيما جاء به خير لاتبعه عمه، وهو أقرب الناس إليه.

1() رواه أحمد والطبراني.

2() اسمها أروى بنتُ حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان.

3() رواه العوفي عن ابن عباس، وعطية الجدلي، والضحاك، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

لكن الله تعالى بكرمه ولطفه شـاء أن يمنـع هـذه الحجـة، ويرفع عنك بعض ذلك الإيذاء العظيم الذي وقفه عمك أبــو لهب بعمك الآخر الطيب المؤمن الصالح أبي طالب.. ذلك الذي رباك على عينك، وشاهد إكرام الله لك في صغرك.. فلـذلك آمن بـك قبل بعثتك، وكان أول المؤمنين بك بعدها.

لقد جاء أئمة الشرك حينهـا إلى عمـك أبي طـالب بعـد أن رأوا مواقفه في صالحك، فقالوا: يا أبا طـالب إن ابن أخيـك قـد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه.

وكان أبـو طـالب هينـا لينـا، لـذلك ردهم بسلاسـة، ليكفـوا عنك؛ فقد كان يدرك أن المواجهة الشـديدة مـع أولئـك الأجلاف الغلاظ لن تجدي شيئا، بل قد تكون مضرة بك وبدعوتك.

وبعـد أن فعـل ذلـك ــ سـيدي ــ لم تلن، ولم تتوقـف عن دعوتك، خشية على عمـك الـذي بـذل كـل شـيء في سـبيلك.. وإنما مضيت في دعوتك، كما أمرك الله تعالى، لا تبالي بكل مـا يحول بينك وبينها.

بعـد أن رأى رؤوس الشـرك مـا أنت عليـه من ثبـات، وأن كلامهم مع عمك لم يـؤثر فيـك.. جـاءوا إلى عمـك مـرة أخـرى فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنا وإن لـك شـرفا ومنزلـة فينـا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حـتى تكفـه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

في ذلك الموقف الشديد، وبعد أن سمعت مـا قـالوا، جئت لعمـك الصـالح، لا لتعـده بـالتراجع حرصـا عليـه، وإنمـا قلت لـه

كلمتك العظيمة التي أصـبحت شـعارا لكـل المقـاومين: (يـا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)

ثم رحت تبكي ألما لعمك الذي لم يـرحم المشـركون كـبر سنه، فلما رآك كذلك قـال: اذهب يـا ابن أخي فقـل مـا أحببت، فوالله لا أسلمك لشئ أبدا، ثم راح ينشد:

والله لن يصلوا إليك ... حتى أوسد في

فامضي لأمرك ما ... وابشر وقر بذاك

ودعوتني وزعمت أنك ... فلقد صدقت وكنت

لقد رحت سيدي أتخيل هذه المشهد.. فوجدتـه في منتهى الألم ذلك أن أبا طالب كان بمثابة أبيـك، فقـد تـربيت في بيتـه، وكفلك في صـغره بعـد مـوت جـدك.. ولـو أنـه لم يكن لـك من الثبات والصدق ما كان لك لم تكن لتترك عمك يعاني كـل ذلـك العناء؟

ليس ذلك فقط.. فلم تيأس قريش من تأليب أهلك عليك، بـل راحت تمارس كل أنواع المساومة، وأشرسها وأحقرها.. ومنها تلك المساومة التي تـدل على مـدى انحطـاط القيم الـتي كـان يتبناهـا أعداؤك؛ فقد جـاءوا بعمـارة بن الوليـد بن المغـيرة، وهـو ابن لألـد أعدائك، وقالوا لعمك: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليـد أنهـد فـتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لــك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خـالف ديننـا ودين آبائـك وفـرق جماعة من قومك وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

حينها قـال عمـك لهم: واللـه لـبئس مـا تسـومونني! أتعطـوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا، أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها؟

حينها أعلنوا الحرب الشرسة على كل من اتبعك، عسى أن يثنيك ذلك عن دعوتك.. لكنك ـ مع ألمك الشديد لما حصل لهم ـ لم تكن تتنازل عن الحق، وقد روي أن بعض أصحابك من المعذبين جاءك في ذلك الحين، وقال لك: (ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟)، فقلت له: (إن كان من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأس أحدهم، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه[1].

لقد ذكرتهم سيدي بما كان يحصل للأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من المستضعفين، والذي كان القرآن الكريم يقص عليهم قصصهم ليثبتهم، ويثبتك معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120]

ولم تكن تملك ـ سيدي ـ في تلك المواجهة الشرسة إلا أن تدعو لأصحابك، من دون أن تبدي لأعدائك أي لين مقابل مبادئك.. وقد روي أنك مررت على عمار بن ياسر وأبيه وأمه سمية وأخيه عبد الله، وهم يُعذبون، فلم تملك إلا أن قلت لهم: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2]

هذا كل ما كنت تملك تجاههم سيدي، فلم تعدهم بأي مناصب ولا بأي دنيا، حتى لا يصحبك إلا الصادقون المخلصون.. ولذلك لم يكن للمستضعفين في ذلك الوقت من أنيس غير القرآن الكريم، وحقائق القرآن الكريم التي كانت أعظم مثبت لهم.

1() رواه البخاري ومحمد بن عمر الأسلمي والبيهقي.

2() رواه البلاذري والحاكم.

وكيـف لا يفعلـون ذلـك، والقـرآن الكـريم يقص عليهم قصـص البطولة والمقاومة التي مارسها أتباع الأنبيـاء من قبلهم، كمـا قـال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْـدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُــودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَــا قُعُــودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَــا يَفْعَلُــونَ بِـالْمُؤْمِنِينَ شُـهُودٌ (7) وَمَـا نَقَمُـوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُـوا الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُـوا فَلَهُمْ عَــذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَــذَابُ الْحَرِيــقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُــوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْكَبِـيرُ (11) ﴾ [البروج: 4 - 12]

ولما اشتد الأذى بأصـحابك أمـرتهم بـالهجرة إلى الحبشـة، ولم تدعهم قريش يهـاجرون بـدينهم، بـل تعقبتهم تحـاول استئصـالهم، لكن اللـــه تعــالى أبطـــل كيـــدهم، وصـــارت الحبشـــة مـــأوى المستضعفين.. لكنـك لم تهـاجر، بـل بقيت تمـارس دعوتـك، وفي ظل تلك الأجواء القاسية.

ولم يكتف أعـداؤك بـذلك، بـل راحـوا يمارسـون حصـارهم الاقتصادي عليك، وعلى قرابتك، وأصحابك، فقد كانوا إذا قدمت العير مكة، ويأتى أحد قرابتك أو أصـحابك إلى السـوق ليشـترى شيئا من الطعام يقتاته لأهله، يقوم المشركون بمنعه، ويقولـون للتجـار: (يـا معشـر التجـار غـالوا على أصـحاب محمـد حـتى لا يدركوا شيئاً معكم)، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضــعافا حتى لا يستطيع شراءها.

وهكذا مارس أعداؤك في مكة المكرمة كل أساليب الحقد والمواجهة لك ولدعوتك، لكنك كنت ثابتـا كالجبـال الرواسـي، لا تزعزعك الريـاح، قـال تعـالى: ﴿ وَإِنْ كَـادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ

تَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) ﴾ [الإسراء: 73 - 77]

وعندما ذهبت إلى المدينة المنورة، لم يكف أعداؤك عنك، بل زاد عددهم، وزادت معها أساليب مكرهم، وخاصة بعد أن انضم إليهم اليهود، الذين استعملوا كل ما كانوا يستعملونه مع الأنبياء عليهم السلام في مواجهتك.

فقد كانوا يسيئون الأدب معك، ويسخرون منك كما كان يسخر المشركون، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)﴾ [النساء: 44- 46]

وكان من حيلهم البشعة، أنهم كانوا يؤمنون في الصباح، ثم يكفرون آخره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: 72، 73]

وهي مكيدة عظيمة أرادوها ليلْبسُوا بها على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، ليقولوا: إنما رَدّهم إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

﴾، قال ابن عباس: (قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فَصَلّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا) [1]

ولم يكتف أعداؤك بكل ذلك، بل راحوا يفرضون عليك كل أنواع الحروب؛ فلم تكن تخرج من حرب معهم حتى تدخل في حرب أخرى.. إلى أن نصرك الله عليهم نصره المؤزر من غير أن تلين، أو تستسلم، أو تكف عن المواجهة.

هذه ـ سيدي ـ بعض مشاهد مقاومتك وبطولتك وجهادك.. وهي كافية للعقلاء ليعرفوا صدقك وإخلاصك.. فلا يُميز الصادقون إلا بثباتهم في المواقف المختلفة.. أما أولئك المتزعزعون المائلون مع كل هوى، الذين يعبدون الله على حرف، فإنهم أبعد الناس عن الصدق والإخلاص.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله تعالى أن أكون من الصادقين معك، ومع دينك، ومع هديك، الثابتين الذين لم يغيروا، ولم يبدلوا، ولم يبيعوا دينهم بشيء من الدنيا.. أولئك الذين وصفهم الله تعالى، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23]

وأسألك ـ سيدي ــ أن تمدني بمددك الذي كنت تمد به أصحابك، حتى تكون لي القدرة على المواجهة والمقاومة والثبات.. واجعلني أتمتع برؤيتك، كما كانوا يتمتعون، وبسماع كلماتك كما كانوا يستمعون، فقد كانت كلماتك ورؤيتك سيدي أعظم مصدر لثباتهم وجهادهم ومقاومتهم.. إنك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

1() تفسير ابن كثير (2/ 59)

التقي النقي

سيدي يا رسول الله.. أيها التقي النقي الطاهر.. يـا من لم تخدش مرآة قلبه بأي خطأ أو خطيئة، قبل النبـوة وبعـدها، وفي صغره وكبره.. وفي كـل شـؤونه.. فصـار لـذلك مـرآة للحقـائق والقيم التي لم تشوه، ولم تغير، ولم تحرف.

وصرت بذلك ـ سيدي ـ أنموذجا لكل من يريد السلوك إلى الله، والتحقق بالإنسانية الرفيعة، والسمو إلى الـدرجات العليـا، كما قال تعالى في حقك: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِـرَ وَذَكَـرَ اللَّهَ كَثِـيرًا ﴾ [الأحزاب: 21]

ولولا ذلك ـ سيدي ـ ما أمرنا الله بالتأسـي بـك، ولا السـير خلفـك.. وهـل يمكن لمن يهم بالخطيئـة أو يقـوم بهـا أن يكـون مرشدا للتائهين، أو دليلا للمتحيرين؟

ولذلك كنت أتقى الأتقياء وأطهر الطـاهرين، وكـل مـا روي عنك خلاف ذلك، فهو من دس المغرضين الحاقدين الحاسدين.. أو من رواية المغفلين المخدوعين الذين اهتموا بكثرة الحـديث، ولم يهتموا بمعانيه، فدس الشيطان في حديثهم ما يسيء إليك، وإلى الهدي العظيم الذي جئت به.

وقد كان من ذلـك الـدس تلـك التشـويهات العظيمـة الـتي أرادوا بهـا أن يرفعـوا بعض غـيرك، فوضـعوك، شـعروا أو لم يشعروا..

ومن الأمثلـة على ذلـك الـدس الخطـير الـذي أرادوا بـه تشويهك، ورفع غيرك تلك الرواية التي يروونهـا، ويعظمونهـا، لا لأنها تعظمك وتقدسك، وإنما لأنها تعظم وتقدس زيـد بن عمـرو

بن نفيل عم عمـر بن الخطـاب، الـذي اعتـبروه أكـثر ورعـا عن الشرك وأسبابه منك.

فقد رووا أنك لقيت زيد بن عمـرو بن نفيـل بأسـفل بلـدح، قبل أن ينزل عليك الوحي، فقدمت إليه سفرة فيها لحم، فـأبى أن يأكل منها، وقال: (إني لا آكل مما تذبحون على أنصـابكم ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه)(1)

وراحوا لا يكتفون بـذلك، بـل يضـيفون إليـه اعتبـار زيـد بن عمرو هو الذي كان يدعو إلى التوحيد قبـل أن تـدعو إليـه، فقـد رووا أنه كان يعيب على قريش ذبائحها، ويقـول: (الشـاة خلقهـا الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض الكلأ، ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله؟!) (2)

وبذلك أصبح زيد بن عمـرو ــ عنـدهم ــ أكـثر عقلا وحكمـة وورعا منك سيدي.. وهم يذكرون ذلك من دون حياء، ويعتبرونـه من منـاقب زيـد، ولم ينظـروا أبـدا إلى أنهم بـذلك يشـوهونك، ويعتبرونك أقل عقلا وعلما وحكمة من غيرك.

وهكذا أوردوا الروايات الكثيرة الـتي تشـوهك، وغفلـوا عن تلك التي تتوافـق مـع مـا ذكـره القـرآن الكـريم في حقـك، بـل راحوا يضعفونها، ويردونها، في نفس الـوقت الـذي يقـوون تلـك الأحاديث التي رضي عنها المدلسون البغاة الذين حذرت منهم.

ولهذا، فإن الـذين قبلـوا تلـك الروايـة الـتي تعتـبرك جـاهلا

1() رواه البخـاري (3826)، والـبيهقي في الـدلائل2/121، والطـبراني في الكبـير (13169)، والبيهقي في السنن 9/249-250، قال شعيب الأرنـؤوط: (وفي روايـة فضـيل بن سليمان: فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها. وهذا من أوهـام فضـيل بن سـليمان، والصـواب مـا في روايـة وهيب بن خالـد وغـيره عن موسـى بن عقبـة من أن رسول الله ﷺ هو الذي قدم إلى زيد بن عمرو بن نفيل سفرة فيها لحم، فأبى الأخـير أن يأكل منها)[مسند أحمد ط الرسالة (9/ 270)

2() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

بالشرك، يرفضون تلك الرواية التي تخبر عن توحيدك وإيمانك، وأنت في صباك الباكر، ومنها ما روي في رحلتك الأولى إلى الشام، وأنت صبي صغير، حينها مرت القافلة ببحيرا الراهب، الذي طلب لقاءك، بعد أن رأى بعض العلامات الدالة على وجودك في الركب، جعل يلحظك لحظاً شديداً، حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، قام بحيرا إليك، فقال لك ـ مختبرا ـ: يا غلام أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه.

هو لم يقل ذلك إلا ليختبرك، فهو لم يكن يؤمن باللات والعزى، وإنما ذكرهما لأنه رأى قومك يحلفون بهما، فقلت له: (لا تسلني باللات والعزى شيئاً، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما)(1)

وهكذا ـ سيدي ـ كنت في حياتك جميعا متورعا عن كل ما لا يتناسب مع مكانتك الرفيعة التي هيأها الله لك.. وقد روى المحدثون أنك ـ سيدي ـ مع تلك الفاقة العظيمة التي مررت بها طيلة فترة رسالتك، لم تمد يدك إلى طعام لا تعرف مصدره.. وقد حدث أنس قال: كان رسول الله ﷺ ليصيب التمرة، فيقول: (لولا أخشى أنها من الصدقة لأكلتها)(2)

وحدث آخر أنك وجدت تمرة تحت جنبك من الليل فأكلتها، فلم تنم تلك الليلة، فقالت بعض نسائك: يا رسول الله أرقت البارحة، فقلت: (إني وجدت تمرة فأكلتها، وكان عندي تمر من تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه)(3)

ولم تكن متورعا عن ذلك فقط، بل كنت تتورع أن تخزن

1() سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي (ص: 75)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أحمد برجال ثقات.

شيئا من المال أو الطعام في نفس الوقت الـذي قـد يوجـد من هو بحاجـة إليه(1)، ففي الحـديث عن بعض صـحبك قـال: (كـان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد)(2)

وحدث آخر قال: نظر رسول اللـه ﷺ إلى أحـد فقـال: (مـا يسرني أنه ذهب لآل محمد، أنفقه في سـبيل اللـه، أمـوت يـوم أموت وعندي منه ديناران، إلا دينارين أعدهما للدين إن كان) (3)

وحدث آخر قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ فقال يوما: (ما عنـدك شـيء تطعمنـا؟) قلت: نعم يـا رسـول اللـه، فضـل من الطعام الـذي كـان أمس، قـال: (ألم أنهـك أن تـدع طعـام يـوم لغد؟)(4)

هذه بعض شواهد ورعك سيدي عن الحلال الذي أباحه الله لك؛ فكيف يتجرؤون على مـا يرمونـك بـه من الفضـائع الـتي لا يجيزونها لأنفسهم..

ولم يكن ذلك وحـده ــ سـيدي ــ شـاهدا على ورعـك، بـل كانت حياتك كلها حياة تقوى وورع وطهارة، فلم تكن لتمتد يدك لما حرم الله أو كرهه.. وكيف تفعـل ذلـك وأنت عبـده المطهـر

---

(1) أما ما روي من أنه كان يدخر قوت سنة، فقد أجاب عنـه الحافـظ البجلي بقولـه: سألت نعيم بن حماد قلت: جاء عن رسول الله ﷺ أنه لم يشبع في يوم من خـبز مـرتين، وجاء عنه أنه كان يعد لأهله قوت سنة، فكيف هذا؟ قال: كان يعد لأهله قوت سنة، فتنزل النازلة، فيقسمه، فيبقى بلا شيء.

ومما يؤيد هذا ما رواه أحمد، وأبو يعلى برجال ثقـات عن أنس قـال: أهـديت لرسـول الله ﷺ ثلاثة طوائر فأطعم خادمه طائرا، فلما كان من الغد أتته به، فقال لها رسول اللـه ﷺ: (ألم أنهك أن ترفعي شيئا لغد؟ فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد)

(2) رواه البخاري.

(3) رواه أحمد وأبو يعلى بسند جيد.

(4) رواه ابن أبي شيبة في المصنف.

المنقى الذي هو أعرف الخلـق باللـه، وأكـثرهم تقـوى لـه، كمـا عبرت عن ذلك بقولك: (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)[1]

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول اللـه ــ وأتوسـل بـك إلى ربي أن يملأ قلبي بحبك والتعلـق بـك، حـتى يتـنزل علي من بركـات حبك ما يطهر قلبي من كل الأدران الـتي تجذبـه للـدنيا، وتبعـده عنك.. فمن اقترب منك ـ سـيدي ــ نـال التقـوى، وصـار طـاهرا نقيا.. ومن ابتعد عنـك تنجس قلبـه.. ومن تنجس قلبـه لم يـزدد منك إلا بعدا.. ومن ابتعـد عنـك ابتعـد عن ربـه.. ومن ابتعـد عن ربه غرق في المعاصي.. حتى لو بدا في ظاهره تقيا صالحا.

(1) رواه البخاري.

المتواضع الأبي

سيدي يا رسول الله.. أيها المتواضع الـذي جعلتـه عبوديتـه لله قريبا من كل المستضعفين المظلومين المحتقـرين.. فكـان سندهم الذي به يفرحون، ومنه يقـتربون، فيسـتغنون بـالاقتراب منه من كل أولئك الذين يستكبرون عليهم، ويذلونهم.

سيدي يا رسول الله.. يا من اخترت العبوديـة على الملـك، والمسكنة على الـترف، ورضـيت بـأن تكـون كالعبيـد والفقـراء والمساكين، تأكـل كـأكلهم، وتلبس كلبسـهم، وتـأوي إلى بيت لا يختلـف عن بيـوتهم.. وتعيش مثلهم، لا بـل دونهم، تجـوع يومـا وتشبع يوما.. فإذا شبعت شكرت، وإذا جعت صبرت.

مـاذا عسـاي أذكـر من تواضـعك، وأنت الـذي رضـيت بـأن تضحي بالكثير من المكاسب المرتبطة بدعوتك في سبيل أولئك العبيد والفقراء والمستضعفين الذين التفوا بك، فحال التفــافهم بك أولئك المستكبرين من الجلوس معك، أو الاستماع إليك.

سيدي.. ائذن لي أن أذكر بعض مشاهد تواضـعك، لأرد بهـا على أولئك الذين لم يعرفوك، فراحوا يرسمون صـورا مشـوهة عنك، هي أقرب إلى صور أبي سـفيان وأبي جهـل منهـا إليـك.. أولئك الذين اتبعوا دين البغاة والمحـرفين، وتركـوا الـدين الـذي أوصيتهم به، دين عترتك الطاهرة، وأصحابك المنتجبين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، وعاشوا حياة التواضع والمسكنة التي أمرتهم بها إلى آخر أيام حياتهم.

لقد حدث بعضهم عنك يصـفك، فقـال: (كـانت في رسـول الله ﷺ خصـال ليسـت في الجبـارين، كـان لا يـدعوه أحمـر، ولا أسود، إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بها

إلى فيـه، وإنـه ليخشـى أن تكـون من الصـدقة، وكـان يـركب الحمار عريا، ليس عليه شيء)[1]

وحدث آخر قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي مع أصحابه إذ أخذ رجل منهم، فستره بثوب فلمـا رأى مـا عليـه، رفـع رأسـه، فإذا هو علاه قبلي سـتر، فقـال: (مـه)، فأخـذ الثـوب، فوضـعه، وقال:﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ (الكهف: 110)[2]

وحـدث آخـر، قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ، ومن قبلـه من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يمشـون على العصـا، يتوكئـون عليهـا، تواضعا لله عز وجل[3].

وحـدث آخـر، قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ يـركب الحمـار، ويردف بعده، ويجيب دعوة المملوك[4].

وحدث آخر، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقـل اللغـو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين يقضي لهما حاجتهما[5].

وحدث آخر، قال: كان رسـول اللـه ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك [6].

وحدث آخر، قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويعـود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك، وكان يـوم بـني

1() رواه ابن سعد.

2() رواه ابن أبي شيبة وعلي بن عبد القدير البغوي.

3() رواه ابن الأعرابي.

4() رواه ابن سعد.

5() رواه الدارمي.

6() رواه أبو الشيخ عن ابن عباس، وابن سعد عن أنس.

قريظـة على حمـار مخطـوم بحبـل من ليـف، على إكـاف من ليف(1).

وحدث آخر، قال: والله ما كان رسول اللـه ﷺ تغلـق دونـه الأبواب، ولا يقـوم دونـه الحجـاب، ولا يغـدى عليـه بالجفـان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كـان بـارزا، من أراد أن يلقى نـبى اللـه ﷺ لقيه، كـان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليـظ، ويـركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده(2).

وذكر آخر أنك كلمت رجلا فأرعد، فقلت له مطمئنا: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديدة)(3)

وذكر آخـر أنـك أهـديت إليـك شـاة فجثـوت على ركبتيـك، فأكلت، فقال أعرابي: يا رسول اللـه مـا هـذه الجلسـة؟ فقلت: (إن الله عزوجل جعلني عبدا كريما، ولم يجعلني جبارا عنيدا)(4)

واتفـق الجميـع على أنـك كنت تسـلم على كـل من لقيتـه صغيرا كان أو كبيرا، تعرفه أو لا تعرفه، فعن أنس أنـه مـر على صبيان، فسلم عليهم وقال: (كان النبي ﷺ يفعلـه)(5)، وعن هنـد بن أبي هالة قال: (كان رسول الله ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام)(6)

واتفقوا على أنك كنت تسير مع أي أحد تعرفه أو لا تعرفه،

1() رواه الترمذي.

2() رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر - وقال هذا حديث مرسل - وقد جاء معناه في الأحاديث المسندة.

3() رواه ابن ماجه.

4() رواه ابن ماجه.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه الترمذي وصححه والبيهقي.

فعن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النــبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت(1).

واتفقـوا على أنـك كنت تـركب الحمـار كمـا يركبـه سـائر العوام، فعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويعود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك، وكان يـوم بـني قريظـة على حمـار مخطـوم بحبـل من ليـف، على إكـاف من ليف(2).

بل اتفقوا على أنك كنت تردف خلفك.. وقـد ذكـر العلمـاء أسماء من ردفتهم، وهم كثيرون جدا، فقد حدث أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر، وغزا أردف كل يـوم رجلا من أصـحابه (3).

واتفقوا على أنك كنت تلبس لباسا بسـيطا كسـائر النـاس، ففي الحديث: خرج رسول الله ﷺ وقـد عقـد عبـاءة بين كتفيـه فلقيه أعـرابي، فقـال: لم لبسـت هـذا يـا رسـول اللـه؟ فقـال: (ويحك، إنما لبست هذا لأقمع به الكبر)(4)

واتفقوا على أنـك كنت تجيب كـل من دعـاك، ولأي شـيء دعاك، حتى لو كان حقـيرا، فعن ابن عبـاس قـال: كـان رسـول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقـل الشـاة، ويجيب دعوة المملوك، ويقول: (لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي كراع لقبلت)(5)

(1) رواه البخاري.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى.

(4) رواه ابن عدي.

(5) رواه أبو الشيخ، وابن سعد.

وقد بلغ الأمر ببعض أصحابك المشفقين عليك، لِما رأوه من تواضعك أن يطلبوا منك أن تتخذ محلا خاصا بك، بحيث لا تؤذيك مخالطتهم، فأبيت ذلك بشدة، وقلت له: (لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبى وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)(1)

ولم تكن تكتفي بكل ذلك ــ سيدي ــ مع دلالته على تواضعك، وإنما كنت تضم إليه مشاركتك لهم في كل أعمالهم، حتى الشديدة منها، بل كنت تستأثر بها من دونهم..

فمن مشاركتك لهم مشاركتهم في بناء المسجد بعد هجرتك إلى المدينة المنورة بالرغم من العناء الكبير الذي لاقيته في هجرتك؛ فعن الحسن قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة قال: ابنوا لنا مسجدا، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: عرش كعرش موسى، ابنوا لنا بلبن، فجعلوا يبنون ورسول الله ﷺ يعاطيهم اللبن على ما دونه ثوب، وهو يقول:

اللهم إن العيش   فاغفر للانصار

فمر عمار بن ياسر فجعل النبي ﷺ ينفض التراب عن رأسه، ويقول: ويحك يا ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية(2).

وحدث يعقوب بن يزيد قال: كان رسول الله ﷺ يتبع غبار المسجد بجريدة(3).

وفي غزوة الخندق.. بعد أن أحاطت الأحزاب بالمدينة المنورة.. وفي ذلك الموقف الشديد الذي تزلزلت له القلوب..

1() رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

2() رواه ابن عساكر.

3() رواه ابن أبي شيبة.

والــذي يكتفي فيــه القــادة بــالجلوس في غــرفهم المكيفــة للتخطيط وإلقاء الأوامر.. كنت ـ سيدي ـ مع أصحابك تشــاركهم في كل صغيرة وكبيرة..

وقد حدثت أم سلمة عن موقف من مواقفك يوم الخنــدق، فقالت: ما نسيت يوم الخندق، وهــو يعـاطيهم اللبن، وقـد اغـبر شعره، تعني النبي ﷺ (1).

وحدث البراء قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يحمـل الـتراب على ظهره، حتى حال التراب بيني وبينه وإني لانظر إلى بيـاض بطنه(2).

بل كنت ـ سيدي ـ في ذلك الموقـف الشـديد تتكفـل بكـل عمـل شـاق يتوقفـون عنـده، فقـد ذكـر جـابر بن عبـد اللـه أن المسلمين عـرض لهم في بعض الخنـدق كديـة عظيمـة شـديدة بيضاء مدورة، لا تأخذ فيها المعاول، فكسرت حديـدهم، وشـقت عليهم، فشكوا ذلك إليك، فقمت إليها، وبطنـك معصـوب بحجـر من الجوع، لأنك لم تأكل منذ ثلاثة أيـام، فـدعوت بإنـاء من مـاء فتفلت فيه، ثم دعوت بما شاء الله أن تدعو به، ثم نضــحت من ذلـك المـاء عليهـا، فعـادت كـالكثيب المهيـل مـا تـرد فأسـا ولا مسحاة(3).

ولم تكن ـــ سـيدي ـــ في ذلــك الموقــف الشــديد تكتفي بالعمل فقط.. بل كنت تسليهم وترتجز بما يرتجــزون، وتضــحك كما يضحكون، وقد حـدث بعضـهم قـال: ارتجـز المسـلمون في الخندق برجل يقال له (جعيل) أو جعالة بن سـراقة، وكـان رجلا

(1) رواه أحمد برجال الصحيح وأبو يعلى.

(2) رواه محمد بن عمر.

(3) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

دميما صالحا، وكان يعمل في الخندق، فغير رسول الله ﷺ اسمه يومئذ فسماه عمرا، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا   وكان للبائس يوما ظهرا

وجعل رسول الله ﷺ لا يقول شيئا من ذلك، إلا إذا قالوا: عمرا، وإذا قالوا: ظهرا، قال: ظهرا)

وحدث البراء قال: رأيت رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى وارى التراب بياض بطنه، وكان كثيف الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات لابن رواحة:

والله لولا ما [illegible]   ولا تصدقنا ولا [illegible]
فأنزلن سكينة [illegible]   وثبت الاقدام [illegible]
والمشركون قد [illegible]   إذا أرادوا فتنة [illegible]

ورفع بها صوته: أبينا أبينا)(1)

وكنت ـ سيدي ـ في ذلك الموقف الشديد الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10ـ 11]، تدعو لهم، وتشجعهم بكل ما أطقت أن تشجعهم به، وقد حدث سهل بن سعد قال: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر في الخندق، وننقل التراب على أكتادنا في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك، فلما رأى ما هم فيه من النصب والجوع قال:(اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للانصار والمهاجرة)، فقالوا مجيبين له:

1() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ولم تكن تكتفي بكــل ذلــك ــ ســيدي ـــ.. لم تكن تكتفي بمجرد المشاركة والمواساة والخلطة المجردة.. بـل كنت فـوق ذلك كله، ومع ذلك كله، تبادر لأي خدمة سواء شوركت فيهـا أم لم تشارك، وسواء كانت في بيتك أو خارجه، لا تسأل على ذلـك أجرا ولا شكرا.

وقد حدث أنس عن بعض مواقفك في ذلـك، فقـال: ذهبت بعبد الله بن أبي طلحـة إلى النـبي ﷺ يـوم ولـد، والنـبي ﷺ في عباءة يهنأ بعيرا له(1).

ووصفت عائشة ما كنت تصنع في بيتك، فقالت:(كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه، ويخصف نعله، ويعمل ما تعمل الرجـال في بيـوتهم، ويكـون في مهنـة أهلـه، يعـني خدمـة أهلـه، فـإذا سـمع المـؤذن خـرج إلى الصلاة)(2)

وعنها قالت: كان رسول اللــه ﷺ يعمــل عمــل أهــل الــبيت وأكثر ما يعمل للخياطة(3).

وكنت خـارج بيتـك تقـوم بكـل مـا يحتاجـه المسـلمون، لا تستكبر عن أي عمل، وخاصة إن ارتبـط بوظيفتـك الـتي كلفـك الله بها، وهي تعليم الناس، وقد حدث أبو رفاعة تميم بن أسـيدٍ قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهـو يخطب، فقلت: يـا رسـول الله، رجلٌ غريبٌ جاء يسأل عن دينه لا يـدري مـا دينـه؟ فأقبـل علي رسـول اللــه ﷺ، وتـرك خطبتــه حــتى انتهى إلي، فــأتي

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه ابن سعد.

بكرسيٍ، فقعد عليه، وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها(1).

وكنت ــ سيدي ــ لا تترك هذه الوظيفة حتى في حال انشغالك بحاجاتك الأساسية، وقد حدث بعضهم أنك كنت إذا أكلت طعاماً لعقت أصابعك الثلاث، ثم قلت معلما لهم: (إذا سقطت لقمة أحدكم، فليمط عنها الأذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان وأمر أن تسلت القصعة. قال: فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة)(2)

هذه ـ سيدي ــ بعض مشاهد تواضعك، ولا يمكن معرفة قيمتها إلا لمن عرف ما آتاك الله من فضله ومقاماته الرفيعة التي لا يمكن لغيرك أن يعرفها، أو يدركها، أو يصل إليها..

ولا يمكن معرفة قيمتها إلا لمن عرف ما آتاك الله من عزة الإيمان، وإباء المقاومة؛ فلم تكن ــ سيدي ــ كأولئك المتواضعين الذين يستسلمون لكل شيء.. بل كنت متواضعا للمؤمنين، تخفض جناح الذل والرحمة لهم، في نفس الوقت الذي كنت فيه شديدا أبيا على كل من يريد أن يساومك على دينك، أو على الحقائق التي جئت بها.

فأسألك ـ سيدي ــ وأتوسل بك إلى الله أن يجعلني من أولئك الذين وصفهم، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

الصَّــلَاةَ وَيُؤْتُــونَ الزَّكَــاةَ وَهُمْ رَاكِعُــونَ (55) وَمَنْ يَتَــوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِـزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَـالِبُونَ ﴾ [المائـدة: 54 - 56]

أولئـك الـذين لم يرتضـوا أن ينتمـوا لأي حـزب غـير حـزب الله.. ولم يرتضوا قائدا غيرك.. ولا وليـا غـير ذلـك الـذي أمـرت بموالاتـه.. ذلـك الـذي يجمـع بين الذلـة للمؤمـنين والعـزة على الكافرين.

المؤدب الحيي

سيدي يا رسول الله.. يا من أدبـك ربـك، فأحسـن تأديبـك، وهذبك فأحسن تهذيبك، فلم يكن لك معلم غــير ربــك، ولم تكن لك مدرسة غير مدرسته.. لـذلك كنت الأمي الـذي لم يتعلم من بشر، وإنما تعلم من رب البشر، فصار لذلك سيد البشر.

لقــد قــرأت القــرآن الكــريم، فوجدتــه يخاطبــك ويعاتبــك ويعلمك، ليكون كل ذلك تأديبا وتهذيبا لنا.. لـنرقى إلى سـموات القيم العالية والأدب الرفيع الذي بوأك الله إياه.

لقد قـرأت قولـه تعـالى وهـو يخاطبـك: ﴿أَلَمْ يَجِـدْكَ يَتِيمًـا فَآوَى ﴾ [الضحى: 6]، والتي عقب عليها قوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: 9]، فعلمت أن الله تعالى ما أراد بجعلك يتيمـا إلا تأديبا لك لتشعر بالمستضعفين واليتامى، لأنـك ستصـير الأب والسند الروحي لهم.

ولهـذا امتلأت أحاديثـك ووصـاياك بالحنـان عليهم والرأفـة بهم، فلا نجــد من اهتم بهم مثلــك، ولا من أوصــى بهم مثلمــا أوصـيت بهم، فقـد كنت تقـول مخاطبـا أصـحابك، والأمـة من بعدك: (خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشـر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه)[1]

وكنت تقـول مخـبرا عن فضـل المسـح على رأس اليـتيم عطفا وحنانا ورحمة:(من مسـح على رأس يـتيم لم يمسـحه إلا لله كانت له في كل شعرة مرت عليها يده حسنات)[2]

1() ابن ماجه.

2() أحمد وغيره.

وكنت تعتبر الساعي عليهم كالمجاهد والقائم، فتقول: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله تعالى، وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر)(1)

وكنت تخبر عن أنواع الجزاء العظيم الذي يناله المهتمون باليتامى، والراعون لمصالحهم، فتقول:(ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم الشيطان)(2)، وتقول: (من ضم يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عز وجل غفرت له ذنوبه البتة إلا أن يعمل عملا لا يغفر، ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غفرت له ذنوبه)(3)، وتقول: (والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له في الكلام ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله)(4)، وتقول: (من قبض يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة ألبتة إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له)(5)، وتقول:(أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امرأة تبادرني، فأقول ما لك ومن أنت؟ تقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي)(6)

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي كانت ثمرة لتأديب الله لك، ودعوتك إلى حفظ اليتيم وعدم قهره والإحسان له..

____

1() الشيخان.

2() الحارث، والطبراني في الأوسط عن أبي موسى وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وهناك حديث آخر قريب منه هو « ما من مائدة أعظم بركة من مائدة جلس عليها يتيم » رواه لديلمي عن أنس.

3() ابن سعد، والطبراني في الكبير.

4() الطبراني بسند رواته ثقات إلا واحدا ومع ذلك ليس بالمتروك.

5() الترمذي وصححه.

6() أبو يعلى بسند حسن.

وهكذا ـ سيدي ـ كان القرآن الكريم يؤدبـك، ويهـذبك بكـل كلمة من كلماته، أو حرف من حروفه..

ولهذا صارت سنتك وهديك هي القرآن الناطق الـذي مثـل الحقائق والقيم القرآنية أحسن تمثيل.

وقد ذكر تلميذك الأكبر الإمام علي، ذلـك الـذي كـان أكـثر الناس صحبة لك، ومعرفة بك تعاهد الله لك بالتـأديب والتربيـة، فقال: (ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريـق المكـارم، ومحاسـن أخلاق العـالم ليله ونهاره) (1)

وكـان يـذكر كـل حين لأولئـك المبـدلين والمغـيرين عظيم صـفاتك وحسـن أدبـك، وكيـف كنت الأسـوة الحسـنة في كـل المجالات، فقال يصف شـجاعتك: (كنـا إذا احمـر البـأس اتقينـا برسول الله، ﷺ، فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه) (2)

وعندما طلب منه أن يصفك بدقة، قال: (كان نـبيّ اللّـه ﷺ أبيض اللّـون، مشـربا حمـرة، أدعج العين، سـبط الشـعر كثّ اللّحية، ذا وفرة، دقيق المسربة، كأنّ عنقه إبريق فضّـة، يجـري في تراقيه الذهب، له شعر من لبّته إلى سـرّته، كقضـيب خيـط إلى السـرّة، و ليس في بطنـه و لا صـدره شـعر غـيره. شـئن الكفّين و القـدمين، شـئن الكعـبين، إذا مشـى كأنّمـا يتقلـع من الصخر، إذا أقبل كأنّما ينحدر من صبب، إذا التفت التفت جميعـا بأجمعه كلّه، ليس بالقصير المتردد، ولا بالطويل الممغط، وكان في الوجه تدوير، إذا كان في النـاس غمـرهم، كأنّمـا عرقـه في وجهه اللؤلـؤ، عرقـه أطيب من ريح المسـك، ليس بالعـاجز و لا

1() نهج البلاغة، ج ٢، خطبة ١٩٢، ص ١٥٧.

2() نهج البلاغة، ج ٤، خطبة ٩، ص ٦١.

باللئيم. أكرم الناس عشرة، و ألينهم عريكة، و أجودهم كفّا، من خالطه بمعرفة أحبّه، من رآه بديهة هابه، عزّه بين عينيه، يقــول ناعته: لم أر قبله و لا بعده مثله، ﷺ)[1]

وهكذا كان يصف تواضـعك، ويقـول: (ولقـد كـان ﷺ يأكـل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصـف بيـده نعلـه، ويرقـع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفـه، ويكـون السـتر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول: (يـا فلانـة ــ لإحـدى أزواجه ـ غيبيه عني، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها) [2]

وكان يصف موقفـك من الـدنيا، فيقـول: (قـد حقـر الـدنيا وصغرها، وأهون بها وهونهـا، وعلم أن اللـه زواهـا عنـه اختيـارا، وبسطها لغيره احتقارا، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمـات ذكرهـا عن نفســه، وأحب أن تغيب زينتهــا عن عينــه، لكيلا يتخــذ منهــا رياشا، أو يرجو فيهـا مقامـا. بلـغ عن ربـه معـذرا، ونصـح لأمتـه منذرا، ودعا إلى الجنة مبشرا، وخوف من النار محذرا) [3]

ويقــول في خطبــة أخــرى: (أهضــم أهــل الــدنيا كشــحا، وأخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الـدنيا فـأبى أن يقبلهـا، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقر شـيئا فحقــره، وصغر شـيئا فصـغره. ولـو لم يكن فينـا إلا حبنـا مـا أبغض اللـه ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شـقاقا للــه، ومحادة عن أمر الله... فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمـات ذكرهـا من نفســه، وأحب أن تغيب زينتهــا عن عينــه، لكيلا يتخــذ منهــا

1() حلية الأبرار في أحوال محمد و آله الأطهار، ج1، ص: 164.

2() نهج البلاغة، ج ٢، خطبة ١٦٠، ص ٥٩.

3() نهج البلاغة، ج ١، خطبة ١٠٩، ص ٢١٠.

رياشا، ولا يعتقـدها قـرارا، ولا يرجـو فيهـا مقامـا، فأخرجهـا من النفس، وأشخصـها عن القلب، وغيبهـا عن البصـر. وكـذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده) [1]

ولهذا كان يدعو إلى اعتبارك الأسـوة والقـدوة، ويـرد على أولئك الذين وضعوا الكثير من البدائل التي استبدلوك بها، حـتى اعتبر بعضهم كل قومـك وصـحبك صـالحين لأن يكونـوا قـدوة.. ومن أقوالهم في ذلك في بعض وصـاياه: (تـأس بنبيـك الأطيب الأطهر ﷺ فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعــزى. وأحب العبـاد إلى اللـه المتأسـي بنبيـه، والمقتص لأثـره. قضـم الـدنيا قضما، ولم يعرها طرفا، أهضم أهل الدنيا كشحا، وأخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الـدنيا فـأبى أن يقبلهـا، وعلم أن اللـه سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقـر شـيئا فحقـره، وصـغر شـيئا فصــغره. ولــو لم يكن فينــا إلا حبنــا مــا أبغض اللــه ورســوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شقاقا لله ومحادة عن أمر الله) [2]

وغيرهـا من الأحـاديث الكثـيرة الـتي وصـف فيهـا أخلاقـك وآدابك العظيمة التي أمرنا الله تعالى بالتأسي بها..

لكن المغرضين والحاقدين ـ سيدي ـ راحوا يشوهون جمال صفاتك، وعظيم أدبـك، حـتى ينفـر العقلاء منـك، وتكـون أسـوة للانحراف لا للصلاح، وللصلف لا للأدب..

فائذن لي سيدي أن أذكر لك بعض ما ذكروا حـول حيائـك، تلك الصـفة الـتي كنت مثالهـا الأعلى، وأسـوتها الحسـنة، وكنت تعظمــه، وتعتــبره من أمهــات الأخلاق، لكنهم حرصــا على من

1() نهج البلاغة، ج ٢، خطبة ١٦٠، ص ٥٨.

2() نهج البلاغة، ص ٥٨ ـ ٦٠.

يعظمونـه من الصـحابة راحـوا يـنزعون الحيـاء منـك، ويضـعونه لغيرك.

لقـد رووا ــ كـاذبين ومدلسـين ــ أنـك كنت مضـطجعا في بيتك، كاشفا عن فخـذيك، فاسـتأذن أبـو بكـر فـأذنت لـه، وأنت على تلك الحال، ثم اسـتأذن عمـر، فـأذنت لـه، وأنت على تلـك الحال، ثم استأذن عثمان، فرحت تسوي ثيابك، وتسـتر فخـذك، فعندما سئلت عن ذلك، ذكرت أنـك اسـتحييت منـه، وقلت: (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)(1)

لقد تلقف المدلسـون والمشـوهون لـك هـذا الحـديث كمـا يتلقفـون القـرآن الكـريم، يـأبون أن يتكلم فيـه أحـد، مـع أنهم يوردون الأحاديث الكثـيرة الـتي تثبت أن الفخـذ عـورة(2).. وأن كشفها حرام.. ومع ذلك يرضـون أن تـرتكب الحـرام في سـبيل أن ينال عثمان تلك المنقبة.

فإن جادلهم أحد في شـأنك، وراح يـذب عنـك تلـك التهمـة العظيمـة الـتي اتهمـوك بهـا، قـالوا: ولكن الحـديث في صـحيح مسلم.. وهم لا يعلمون أن صحيح مسلم وصحيح البخـاري وكـل كتب الـدنيا فـداء لشـعرة من شـعراتك.. فأيهمـا أعظم أن يـرد حديث قـد يتـوهم راويـه أو يخطئ كاتبـه، أو أن تمس كرامتـك، ويمس أعظم ميزة فيك، وهي أخلاقك العاليـة الـتي لا يضـاهيها أي كـان صـحابيا كـان أو نبيـا أو حـتى ملاكـا مقربـا.. فكيـف تتصـورون أن صـحابيا ــ لا يـرون عصـمته ــ يكـون أعظم خلقـا منك؟

1() رواه مسلم.

2() ومنها ما روي عن محمد بن عبد الله بن جحش أن النبي ﷺ مر على معمر بفنـاء المسجد محتبيا كاشفا عن طرف فخذه فقال له النـبي ﷺ: (خمـر فخـذك يـا معمـر فـإن الفخذ عورة)، رواه أحمد ورواه الطبراني في الكبير، ورجال أحمد ثقات.

وليت الأمر توقـف على هـذا.. بـل إنهم ــ سـيدي ــ راحـوا يصـورونك في مشـاهد لا يرضـونها لأنفسـهم، ولا لمن يجلـونهم من الناس، حرصا على إثبات المناقب لمن يرغبون في تحسين صورهم، ولو على حسابك، ومن الأمثلة على ذلـك مـا رووه عن عائشة، وأنها قالت: كان رسـول اللـه ﷺ جالسـا فسـمعنا لغطـا وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ فإذا حبشية تزفن والصبيان حولها، فقال: (يا عائشة تعالي فانظري)، فجئت فوضعت لحـيي على منكب رسول الله ﷺ، فجعلت أنظـر إليهـا مـا بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: (أما شبعت، أما شبعت؟). قـالت: فجعلت أقول لا لأنظر منزلتي عنده إذ طلع عمر، قالت: فارفض النـاس عنها: قـالت: فقـال رسـول اللـه ﷺ: (إني لأنظـر إلى شـياطين الإنس والجن قد فروا من عمر)، قالت: فرجعت(3).

هل رأيت سيدي تلك الصورة المشوهة التي صوروك بهـا.. لقد ذكروا أنه كانت هناك جارية.. وأنها عاقلة بالغة.. بدا لهـا أن ترقص كما يرقص الحبشة في الشـارع.. وأمـام النـاس.. وكـان الصـبية يلتفـون حولهـا، وهي بتلـك الحالـة.. وأنـك لمحتهـا، فأسرعت إلى عائشة، وطلبت منها أن تحضر مجلس الـرقص.. وعندما حضرت وضعت عائشة ـ بحسـب الحـديث ــ ذقنهـا على منكبك.. وأمام الناس.. وبعد مدة طلع عمر فـانفض النـاس عن الجارية خوفا منه.. مع أنـك كنت معهم.. ومـع ذلـك لم يشـعروا بشيء..

وليت الأمر توقـف عنـد هـذا.. بـل إنهم ذكـروا أنـك عنـدما رأيت الناس يفرون لحضور عمر قلت معظمـا لـه ومثنيـا عليـه: (إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر)

وهذا عجب عجاب.. وتصور المشهد وحده كاف لضرب كل

3() رواه الترمذي.

القيم التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، التي تمثلك ـ سيدي ـ أحسن تمثيل.

ولم يكتفوا بهذا سيدي في تشويهك، بل راحوا يروون الروايات الكثيرة التي تجعلك فاحشا ومتفحشا، لا تختلف عن قومك الأجلاف الغلاظ الذين لم ينالوا حظهم من التأديب الذي أدبك به ربك[1].

فأسألك ـ سيدي ــ وأتوسل بك إلى الله أن يجعلني من الذابين عنك، الرادين لتلك التشويهات.. فلا يمكن للأمة أن تعرفك، أو تحسن علاقتها بك، وهي تعتقد في تلك الروايات المريضة التي وضعها مرضى القلوب ليشوهوك، ويحولوا بين العقلاء وبينك.

وأسألك سيدي أن أكون من المتأدبين على يديك، الراعين للحقوق والأخلاق التي أمرت برعايتها، حتى أكون أقرب الناس إليك في الدنيا والآخرة، فلا فوز إلا لمن كان قريبا منك.

1() ذكرنا الكثير من الأمثلة على ذلك، ورددنا عليها في كتاب [رسول الله ﷺ والقلوب المريضة]، وذكرنا فيه القاعدة التي نتبناها في الموقف من أمثال تلك الأحاديث.

الذاكر النجي

سيدي يا رسول الله.. أيها الـذاكر الـذي لا يغفـل.. والعابـد الذي لا يفتر.. والخاشع الـذي لا يتيـه قلبـه في أوديـة الأمـاني.. والنجي[1] المناجي الذي لا يكف عن الحديث إلى ربه، والحضور بين يديه.

لقد رحت ـ سيدي ـ إلى مـا ورد في سـنتك المطهـرة من الأدعية المحفوظة عنك، أرتلها، وأقارنها بكل مـا ورد في تـراث العالم من أدعية؛ فوجدت أن زمام التواصل مع الله كلـه بيـدك، وأن كل من يريد أن يتعلم كيف يناجي ربه يحتاج إلى التعلم في مدرستك.. فأنت أستاذ الذكر والـدعاء، وشـيخ مريـدي الحضـرة الإلهية ودار البقاء.. ومن لم يتعلم على يديك تلـك الفنـون ظـل جاهلا في التعامل مع ربه، مسيئا للأدب معه.

فـإذا ضـممت إلى ذلـك ـ سـيدي ـ مـا ورد عن عترتـك الطـاهرة الـتي ورثتهـا علومـك وأحوالـك وآدابـك، ثم أوصـيت باتباعها، وركوب سفينة نجاتها، وجـدت من الأدعيـة والمناجيـات والأذكار، التي لم تكن سوى أثر من آثـارك، وقبس من أنـوارك، مـا لا يمكن عـده ولا حصـره.. وبـذلك تكـون هـذه الأمـة هي المتفردة بكل الوسائل المؤدية إلى الحضور مع اللـه، ولا يوجـد في الأمم من يضاهيها فيه أو يدانيها.

ولذلك كان هذا الجانب وحـده كافيـا للعقلاء والبـاحثين عن الله، ليستدلوا به على نبوتك، واستمرارها، فأول أهـداف النبـوة وأعظمها الدلالة على الله، والتواصل معه، والـذكر والمناجيـات هي الحبال الموصولة من الله لعباده لتحقيق ذلك..

1() المراد بالنَّجي: المُناجِي، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: 80]، أي يناجي بعضهم بعضا.

ولذلك كنت ــ سيدي ــ من أعظم الناصحين لنا بذكر الله ودعائه واللجوء كل حين إليه، بل إنك اعتبرت حياتنا متوقفة على الذكر.. لا على ما نتنفسه من هواء، أو نشربه من ماء.. فالماء والهواء يغذيان الطين، ويمدانها بالحياة، أما ذكر الله، فهو غذاء الروح ومددها، ولا حياة لمن لم تحيا روحه.. لقد قلت معبرا عن ذلك: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت) (1)

ولهذا كنت تستعمل كل أساليب الترغيب والترهيب لتحض القلوب والألسن على كثرة ذكر الله، فتقول لها ـ مرغبا في جوائز الله المعدة للذاكرين ــ: (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده) (2)

وتقول لأصحابك أثناء مروركم في طريق مكة على جبل جمدان: (سيروا هذا جمدان، سبق المفردون)، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قلت: (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) (3)

وترغب الفقراء إلى الله، الذين لا يريدون من الله إلا الله، بأن الله يذكرهم حالما يذكرونه، وكيفما يذكرونه، وتقول في ذلك: (قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)(4)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه البخاري ومسلم.

وهكذا كنت ترشد من يريد من الأشياء عصارتها، ومن الطرق أخصرها، إلى ذكر الله.. فقد جاءك رجل، فقال: يا رسول اللـه! إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشـبث بـه، فقلت له: (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله)(1)

وهكذا كنت ترشد من يريد أن يظفـر بـالخير بجميـع أصـنافه، وبالصلاح بجميع أنواعه، وبالحسنات بجميع أشـكالها إلى ذكـر اللـه، فتقول له: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعهـا في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والـورق، وخـير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضـربوا أعنـاقكم؟ قـالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى)(2)

ولم تكتف بذلك ــ سـيدي ــ بـل إنـك وضـعت لنـا الكثـير من الأذكار التي تعمق جميع جوانب الإيمان، وبأجمـل صـياغة وأرقهـا.. فمن داوم عليهـا وصـل إلى اللـه، وبأقصـر الطـرق، وأيسـرها، وأضمنها.

ومن الأمثلة على ذلك ـ سيدي ـ تلك الصيغ التي علمتنـا فيهـا كيف نسبح ربنا وننزهـه ونقدسـه، في نفس الـوقت الـذي نحمـده ونعظمه ونمجده ونذكر كمالاته.. وهي صيغ كثيرة كافية لملأ القلب بكل هذه المعاني الإيمانية.

ومنها مـا ذكـرت لصـاحبك أبي ذر، حين قلت لـه: (ألا أخـبرك بـــأحب الكلام إلى اللـــه؟)، ثم قلت: (إن أحب الكلام إلى اللـــه: سبحان الله وبحمده)(3)

وقلت: (كلمتـــان خفيفتـــان على اللســـان، ثقيلتـــان في

1() رواه الترمذي وابن ماجه..

2() رواه الترمذي وابن ماجه.

3() رواه مسلم.

الميزان، حبيبتان إلى الـرحمن: سـبحان اللـه وبحمـده، سـبحان الله العظيم)(1)

وقلت: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)(2)

وكنت تقـول مرغبـا فيهـا: (يصـبح على كـل سـلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميـدة صـدقة، وكـل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة)(3)

وروي أن ناسـا من أصـحابك الفقـراء شـكوا إليـك عـدم قدرتهم إلى الصدقة، فقالوا: يـا رسـول اللـه ذهب أهـل الـدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصـومون كمـا نصـوم، ويتصـدقون بفضول أموالهم، ولا نتصدق، فقلت لهم: (أوليس قد جعـل اللـه لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكـل تكبـيرة صـدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة)(4)

وروي أن أعرابيا جاءك، فقال: علمني كلاما أقوله؟ فقلت: قل: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكـبر كبـيرا، والحمـد لله كثيرا، سبحان اللـه رب العـالمين، لا حـول ولا قـوة إلا باللـه العزيز الحكيم)، قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ فقلت: قل: (اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني)(5)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه مسلم.

5() رواه مسلم.

وهكذا كنت تذكر لهم الكثير من صيغ الذكر، وترغبهم فيهـا بكـل أصـناف الـترغيب، ومن ذلـك قولـك: (لقيت إبـراهيم ليلـة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتـك مـني السـلام، وأخـبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة المـاء، وأنهـا قيعـان، وأن غراسـها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)(1)

وكنت تقول لهم: (ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قـوة إلا باللـه، إلا كفـرت عنـه خطايـاه، ولو كانت مثل زبد البحر)(2)

وكنت تقول: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لـه الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يـوم مائـة مـرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسـنة، ومحيت عنـه مائـة سـيئة، وكـانت لـه حـرزا من الشـيطان يومـه ذلـك حـتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمـل أكـثر من ذلك)(3)

وغيرهـا من الأذكـار الكثـيرة الـتي لا يـزال طـالبو اللـه ومريـدوه في كـل العـالم، وفي كـل الأزمنـة يـترددون عليهـا، ويرددونها، ليترقوا بها إلى منازل القرب التحققية والتخلقية.

ولم تكتف بذلك ـ سـيدي ــ بـل إنـك وضـعت لنـا منظومـة كاملة من الأذكار والأدعية، ولكل المناسـبات، حـتى نرتبـط مـع الله في جميع أحوالنا، مثلما كنت مرتبطا به في جميع أحوالك.

ومن الأمثلة عنها تلك الأذكار التي علمتنا فيها كيـف نطبـق تلك الأوامر الإلهية التي تدعونا إلى الذكر صباحا ومساء، كقولـه

1() رواه الترمذي.

2() رواه أحمد والترمذي.

3() رواه البخاري ومسلم.

تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الانسان: 25)، وقولـه: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (الروم:17)

ومن الأمثلة عنها ما ورد في قولك: (ما من عبد يقــول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شــيء في الأرض ولا في الســماء وهــو الســميع العليم، ثلاث مرات، لم يضره شيء)(1)

ومنها هذا الدعاء الجميل الجـامع الـذي تقـول فيـه: (اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت، خلقتـني وأنـا عبـدك، وأنـا على عهـدك ووعدك ما استطعت، أعـوذ بـك من شـر مـا صـنعت، أبـوء لـك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، والـذي سـميته]سـيد الاسـتغفار[، وذكـرت الجـزاء الـذي أناطه الله به، فقلت: (من قالها من النهار موقنا بهـا فمـات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهـل الجنـة، ومن قالهـا من الليـل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة)(2)

ومنها هـذا الـدعاء الخاشـع: (أمسـينا وأمسـى الملـك للـه، والحمد لله، لا إله إلا اللـه وحـده لا شـريك لـه، لـه الملـك ولـه الحمد وهو على كل شيء قـدير، رب أسـألك خـير مـا في هـذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشـر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكـبر، رب أعـوذ بـك من عذاب في النار، وعذاب في القبر) (3)

وغيرها من الأذكار والأدعية الكثيرة التي خصصت بها ذينك الوقتين المباركين.

1() رواه الترمذي.

2() رواه البخاري.

3() مع تبديل الصيغة بقوله: (: أصبحنا وأصبح الملك لله) رواه مسلم.

وهكذا تركت لنا ـ سيدي ـ ثروة كبـيرة من الـذكر والـدعاء ترتبط بكل الجوانب.. منها القصير ومنها الطويـل حـتى تـراعي الظروف المختلفة لأصناف الناس، فمن الأدعية المـأثورة عنـك في السفر ما حدث به بعضهم عنك، قال: كـان رسـول اللـه ﷺ إذا أراد أن يخــرج في الســفر قــال: (اللهم أنت الصــاحب في السـفر، والخليفـة في الأهـل، اللهم إني أعـوذ بـك الضـبنة في السـفر، اللهم إني أعـوذ بـك من وعث السـفر، كآبـة المنقلب، اللهم اقبض لنا الأرض، وهون علينا السفر)(1)

وحدث آخر قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى سفر قـال: (اللهم بلغ بلاغا يبلغ خيرا، ومغفرة منك ورضوانا، بيدك الخـير، إنـك على كل شئ قدير، اللهم أنت الصاحب في السـفر، والخليفـة في الأهل، اللهم هون علينا السـفر، واطـو لنـا الأرض، اللهم إني أعـوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب)(2)

وحدث آخر قال: لم يرد رسـول اللـه ﷺ سـفرا قـط إلا قـال حين ينهض من جلوسه: (اللهم بك انتشرت، وإليـك تـوجهت، وبـك اعتصمت، اللهم أنت رجائي، اللهم اكفـني مـا أهمـني، ومـا لا أهتم لـه، ومـا أنت أعلم بـه مـني، وزودني التقـوى، واغفـر لي ذنـبي، ووجهني للخير حيث ما توجهت)(3)

ومن الأدعية المأثورة عنك عند الدخول إلى السوق قولك: (باسم الله اللهم إني أسـألك خـير هـذه السـوق وخـير مـا فيهـا وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة)(4)

1() رواه مسدد وابن أبي شيبة وأحمد، والطبراني، والبزار.

2() رواه أبو يعلى برجال ثقات.

3() رواه أبو يعلى.

ومن الأدعية المأثورة عنك عند الدخول إلى الـبيت قولـك: (اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخـرج باسـم اللـه ولجنـا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا.. الحمد لله الذي كفاني وآواني والحمد لله الذي أطعمني وسقاني والحمد لله الذي من علي أسألك أن تجيرني من النار)(1)، ثم تسلم على أهلك.

ومن الأدعية والأذكار المأثورة عنك عند الطعام ما ورد في قولك: (إذا أكل أحدكم فليذكر اسم اللـه تعـالى في أولـه، فـإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: بسـم اللـه أولـه وآخره)(2)

وقولك: (من أكل أو شرب فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقـدم من ذنبه)(3)

وقولك عند الانتهاء من الطعام: (الحمد للـه الـذي أطعمنـا وسـقانا وجعلنـا مسـلمين)(4)، وقولـك: (اللهم أطعمت وسـقيت وأغنيت وأقنيت وهديت واجتبيت فلك الحمـد على مـا أعطيت)(5)، وقولك: (الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيـه غـير مكفي ولا مـودع ولا مستغني عنه ربنا)(6)

4() رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم.

1() ذكره النووي في الأذكار.

2() رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

3() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

4() رواه أبو داود والترمذي.

5() رواه النسائي.

6() رواه البخاري.

ومن الأدعيـة والأذكـار المـأثورة عنـك عنـد النـوم قولـك: (اللهم، فـاطر السـموات والأرض، عـالم الغيب والشـهادة، رب كل شئ، وإله كل شئ، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا ﷺ عبدك ورسـولك، والملائكـة يشـهدون، اللهم أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي إثمـا أو أجره على مسلم)(1)

وقولك: (باسـم اللـه وضـعت جنـبي، اللهم اغفـر لي ذنـبي وأخسئ شيطاني، وفك رهاني واجعلني في الندى الأعلى)(2)

وقولـــك: (اللهم إني أعـــوذ بوجهـــك الكـــريم، وبكلماتـــك التامـات، من كـل دابـة أنت آخـذ بناصـيتها، اللهم أنت تكشـف المغـرم والمـأثم، اللهم لا ينهـزم جنـدك، ولا يخلـف وعـدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك اللهم وبحمدك)(3)

وقولك: (اللهم أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضـاك من سخطك، وأعوذ بك منـك، اللهم لا أسـتطيع ثنـاء عليـك ولـو حرصت، لكن أنت كما أثنيت على نفسك)(4)

وقولـــك: (اللهم رب الســـموات الســـبع، ورب العـــرش العظيم، إله أو رب كل شئ، منزل التوراة والإنجيـل والفرقـان، فـالق الحب والنـوى، أعـوذ بـك من شـر كـل شـئ أنت آخـذ بناصيته، اللهم أنت الأول، فليس قبلك شئ، وأنت الآخر، فليس بعدك شئ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس

(1) رواه الطبراني.

(2) رواه أبو داود.

(3) رواه أبو داود.

(4) رواه الطبراني.

دونك شئ، اقض عنا الدين واغننا من الفقر)[1]

وقولـــك: (اللهم رب الســـموات الســـبع، ورب العـــرش العظيم، ربنا ورب كل شئ، منزل التـوراة والإنجيـل والفرقـان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شـر كـل شـئ، أنت آخـذ بناصـيته، أنت الأول فليس قبلـك شـئ، وأنت الآخـر فليس بعـدك شـئ، وأنت الظـاهر ليس فوقـك شـئ، اقض عنـا الدين، واغننا من الفقر)[2]

ومن الأدعيـة والأذكـار المـأثورة عنـك عنـد قيامـك للتهجـد قولـــك: (اللهم رب جبرائيـــل وميكائيـــل وإســـرافيل، فـــاطر الســـماوات والأرض، عـــالم الغيب والشـــهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحـق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[3]

وقولــك بعــدها: (اللهم لــك الحمــد، أنت قيم الســماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمـد، لـك ملـك السـماوات والأرض ومن فيهن، ولــك الحمــد، أنت نــور الســماوات والأرض، ولــك الحمد، أنت ملـك السـماوات والأرض، ولـك الحمـد أنت الحـق، ووعدك الحق، ولقاؤك حـق، وقولـك حـق، والجنـة حـق، والنـار حـق، والنـبيون حـق، ومحمـد حـق، والسـاعة حـق، اللهم لـك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصـمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت)[4]

1() رواه ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن مردويه، والبيهقي.

2() رواه ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن مردويه، والبيهقي.

3() رواه مسلم.

4() رواه البخاري.

وقولــك بعــدها: (لا إلــه إلا أنت ســبحانك، اللهم أســتغفرك لذنوبي، وأسـألك رحمتـك، اللهم زدني علمـا ولا تـزع قلـبي بعـد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)(5)

وغيرهــا من الأذكــار والأدعيــة الكثــيرة الــتي ألفت فيهــا المصنفات الطويلة.. بالإضافة إلى تعليمك لنا كيف نستعيذ بالله من كل ما يمكن أن يؤذينا.. حتى نصحب الله في كـل أحوالنـا.. وحتى لا تؤثر فينا الظروف المختلفـة، لنبتعـد عن ربنـا، ونتعلـق بما سواه، أو نرى نفعنا عند غيره.

فقد علمتنا كيف نسـتعيذ باللـه من الكسـل، وسـوء القضـاء ودَرْك الشقاء، وشماتة الأعداء، وجَهْد البلاء، والعجز والهرم والمأثم والمغرم، وشر ما خلـق اللـه، وضَـلْع الـدَّين وغَلَبـة الرجـال، وشـر الغنى والفقر والقلة والذِّلَّة، وزوال النعمة وتحويل العافية، وفُجـاءة النِّقمة وجميع سخط الله، والشِّقاق والنفاق وسوء الأخلاق، والجوع والخيانـة، وعلمـاً لا ينفـع وقلبـاً لا يخشـع ونفسـاً لا تشـبع ودعـاءً لا يُسمع، وشر السمع وشر البصر وشـر اللسـان وشـر القلب وشـر المنيِّ، والهدم والتردِّي والغرق والحرق، وتخبُّطَ الشيطان والمـوت في سبيل الله مدبراً، والمـوت لـديغاً، والـبرص والجنـون والجُـذام وسئ الأسقام، ومنكراتِ الأخلاق والأهواء والأعمال.

كما علمتنا ـ سيدي ـ كيف ندعو الله، ولكل حاجاتنا، ومنها هذا الدعاء الرقيق: (اللهم إني أسألك خير المسألة وخير الدعاء، وخـير النجاح، وخير العمل، وخير الثـواب، وخـير الحيـاة، وخـير الممـات، وثبتني وثقل موازيني وأحق إيماني، وارفع درجتي، وتقبـل صـلاتي، واغفــر خطيئــتي، وأســألك الــدرجات العلا من الجن.. اللهم إني أسألك فواتح الخير، وخواتمه، وجوامعه، وأولـه، وآخـره، وظـاهره، وباطنـه والـدرجات العلا من الجنـة.. اللهم إني أسـألك خلاصـا من

5() رواه أبو داود.

النار سالما، وأدخلني الجنة آمنا، اللهم إني أسألك أن تبارك لي في نفسي، وفي سمعي، وفي بصـري، وفي روحي، وفي خلقي، وفي خليقـتي، وأهلي، ومحيـاي، وفي ممـاتي.. اللهم تقبـل حسـناتي، وأسألك الدرجات العلا من الجنة آمين)(1)

ومنهـا: (اللهم متعـني بسـمعي، وبصـري، واجعلهمـا الـوارث مني، وعافني في ديني، واحشرني على ما أحييتني وانصـرني على من ظلمني، حتى تريني منه ثأري، اللهم إني أسـلمت ديـني إليـك، وخليت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهـري إليـك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت برسولك الذي أرسلت، وكتابـك الذي أنزلت)(2)

ومنهـا: (اللهم اجعلـني أخشـاك حـتى كـأني أراك أبـدا حـتى ألقـاك، وأسـعدني بتقـواك، ولا تشـقني بمعصـيتك، وخـر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك حـتى لا أحب تعجيـل مـا أخـرت، ولا تـأخير مـا عجلت، واجعـل غنـائي في نفسـي، وامتعـني بسـمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على من ظلمني، وأرني فيه ثأري، وأقر بذلك عيني)(3)

ومنها: (اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، حـتى أعلم أنـه لا يصيبني إلا ما كتب لي، ورضا من المعيشة بما قسمت لي)(4)

ومنها: (اللهم بارك لي في ديني الذي هو عصمة أمـري، وفي آخرتي الـتي إليهـا مصـيري وفي دنيـاي الـتي فيهـا بلاغي، واجعـل

1() رواه الطبراني برجال ثقات.

2() رواه الطبراني.

3() رواه الطبراني والبزار.

4() رواه الطبراني.

حياتي زيادة في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر)(1)

ومنها: (اللهم اجعلني شكورا، واجعلـني صـبورا واجعلـني في عيني صغيرا، وفي عين الناس كبيرا) (2)

ومنها: (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمــري، ومـا أنت أعلم بـه مـني، اللهم اغفـر لي جـدي وهـزلي، وخطـئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسـررت ومـا أعلنت، ومـا أنت أعلم بـه مـني، أنت المقـدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شئ قدير)(3)

ومنها: (اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد ونق قلــبي من الخطايـا كمـا نقيت الثـوب الأبيض من الـدنس، وباعـد بيـني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب)(4)

ومنها: (اللهم طهرني بالثلج والبرد والمـاء البـارد، اللهم طهـر قلبي من الخطايـا كمـا طهـرت الثـوب الأبيض من الـدنس، وباعـد بيـني وبين ذنـوبي كمـا باعـدت بين المشـرق والمغـرب اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ونفس لا تشبع ودعـاء لا يسـمع، وعلم لا ينفع، اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع اللهم إني أسألك عيشة نقية، وميتة سوية، ومردا غير مخز ولا فاضح)(5)

ومنها: (اللهم إني ضعيف فقـو في رضـاك ضـعفي، وخـذ إلى الخير بناصيتي، واجعـل الإسـلام منتهى رضـائي، اللهم إني ضـعيف

1() رواه البزار برجال ثقات.

2() رواه البزار برجال ثقات.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه أبو يعلى، ورواه مسلم والترمذي والنسائي مختصرا.

فقوني، وإني ذليل فأعزني، وإني فأغنني، اللهم بلغني من رحمتـك ما أرجو من رحمتك، واجعل لي ودا عند الذين آمنوا وعهدا عنـدك) (1)

ومنها: (اللهم إني أسـألك الطيبـات، وتـرك المنكـرات، وحب المسـاكين، وأن تتـوب علي، وإن أردت بعبـادك فتنـة أن تقبضـني إليك غير مفتون)(2)

ومنها: ((اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلـق أحيـني مـا علمت الحياة خـيرا لي، وتوفـني إذا علمت الوفـاة خـيرا لي، اللهم أسـألك خشـيتك في الغيب والشـهادة وكلمـة الإخلاص في الرضـا والغضب وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمـا لا ينفـذ، وقرة عين لا تنقطـع وأسـألك الرضـى بالقضـاء، وبـرد العيش بعـد الموت، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ بــك من ضراء مضرة، وفتنة مضلة، اللهم زينا بزينـة الإيمـان واجعلنـا هـداة مهديين)(3)

ومنها: (اللهم أصلح لي في ديني الـذي هـو عصـمة أمـري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحيـاة لي زيـادة في كـل خـير، واجعـل المـوت راحة لي من كل شر)(4)

ومنهــا: (اللهم ارزقــني حبــك، وحب من يحبــك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما

1() رواه ابن الضحاك.

2() رواه البزار بسند حسن.

3() رواه النسائي وابن ماجه، والحاكم.

4() رواه مسلم.

تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله قـوة لي فيمـا تحب)(1)

ومنهـا: (اللهم انفعـني بمـا علمتـني، وعلمـني مـا ينفعـني، وارزقني علما تنفعني به)(2)

ومنها: (اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الـدنيا وعـذاب الآخـرة)(3)، (ومن كـان ذلـك دعـاءه مـات قبـل أن يصيبه البلاء)(4)

ومنهـا: (اللهم احفظـني بالإسـلام قائمـا، واحفظـني بالإسـلام قاعدا، واحفظني بالإسـلام راقـدا، لا تشـمت بي عـدوا ولا حاسـدا، اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك وأعوذ بك من كـل شـر خزائنه بيدك أنت آخذ بناصيته)(5)

ومنهـا: (اللهم اجعلـني أعظم شـكرك، وأكـثر ذكـرك، وأتبـع نصيحتك، وأحفـظ وصـيتك.. اللهم أقلـني عـثرتي، واسـتر عـورتي، واكفني، وأعـني على من ظلمـني، وأرني ثـأري.. للهم إنـك لسـت بإله استحدثناه، ولا برب ابتدعناه ولا كـان لنـا قبلـك إلـه نلجـأ إليـه ونذرك، ولا أعانك على خلقنا أحد، فنشك فيك ــ أو نشـركه فيـك ـ تباركت وتعاليت إنك أنت التواب الرحيم)(6)

ومنها: (اللهم لا تسلط علي عـدوا أبـدا، ولا تشـمت بي عـدوا

1() رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

2() رواه الحاكم، والنسائي.

3() رواه ابن حبان، والحاكم.

4() زيادة للطبراني.

5() رواه الحاكم، عن ابن مسعود وابن حبان.

6() رواه ابن الضحاك، وأحمد.

أبـدا، ولا تـنزع مـني صـالحا اكتسـبته أبـدا، وإذا أردت فتنـة قـوم، فتوفني إليك غير مفتـون، وأرني الحـق حقـا أتبعـه، وأرني المنكـر منكرا أجتنبه، ولا تجعل شيئا من ذلك علي اشتباها فأتبع هواي بغير هدى منك، وأتبع هواي محبتك ورضـا نفسـك، واهـدني لمـا اختلـف فيه من الحب بإذنك)[1]

ومنها: (لبّيك اللهمّ لبّيك وسعديك، والخير في يـديك ومنـك وبك وإليك، اللهمّ ما قلت من قـول أو نـذرت من نـذر أو حلفت من حلف فمشيئتك بين يديـه، مـا شـئت كـان، ومـا لم تشـأ لم يكن، ولا حول ولا قوّة إلّا بك، إنّك على كـلّ شـيء قـدير، اللهمّ وما صلّيت من صلاة فعلى من صلّيت، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت، إنّـك أنت وليّي في الـدّنيا والآخـرة، توفّـني مسـلما وألحقـني بالصّـالحين، أسـألك اللهمّ الرّضـا بعـد القضـاء، وبـرد العيش بعد الممات ولذّة نظر إلى وجهك، وشوقا إلى لقائك من غير ضرّاء مضـرّة ولا فتنـة مضـلّة، أعـوذ بـك اللهمّ أن أظلم أو أظلم، أو أعتدي أو يعتدى عليّ، أو أكتسـب خطيئـة محبطـة، أو ذنبـا لا يغفـر، اللّهمّ فـاطر السّـماوات والأرض عـالم الغيب والشّهادة ذا الجلال والإكرام، فإنّي أعهـد إليـك في هـذه الحيـاة الدّنيا وأشـهدك وكفى بـك شـهيدا، أنّي أشـهد أن لا إلـه إلّا أنت وحدك لا شريك لك، لك الملك ولك الحمد وأنت على كلّ شيء قدير، وأشهد أنّ محمّدا عبدك ورسولك، وأشهد أنّ وعدك حـقّ، والجنّـة حـقّ، والسّـاعة آتيـة لا ريب فيهـا، وأنت تبعث من في القبـور، وأشـهد أنّـك إن تكلـني إلى نفسـي؛ تكلـني إلى ضـيعة وعورة وذنب وخطيئة، وإنّي لا أثق إلّا برحمتك فـاغفر لي ذنـبي كلّـه إنّـه لا يغفـر الـذّنوب إلّا أنت، وتب عليّ إنّـك أنت التّـوّاب

1() رواه ابن الضحاك.

الرّحيم)(2)

وغيرها من الأدعية الكثيرة الـتي لا يـزال محبيـك ومتبعيـك يرددونها، فيشعرون بالقرب من الله، ومنك، ويتقون بها من كل ذلـك الـدجل والخرافـة الـذي حـاول المحرفـون أن يغـيروا بهـا دينك.. لكن الله شاء أن يحفظه بكتابـه، وبتلـك الآثـار العظيمـة المروية عنك، وعن أهل بيتك.

فأسـألك ــ سـيدي ــ وأتوسـل بـك إلى اللـه أن أكـون من الذاكرين الله كثيرا، أولئك الذين لا تفـتر ألسـنتهم وقلـوبهم عن ذكر ربهم.

وأسألك ـ سيدي ـ أن ينيلني اللـه من الأحـوال والفضـائل ما وعد به الذاكرين، حـتى يكـون ذكـري مرقـاة أرقى بـه إليـه، ومعراجا أرحل به من عـالم نفسـي الأمـارة بالسـوء، إلى عـالم النفس المطمئنة بذكر الله، الراضة عن اللـه، المرضـية بفضـل الله.

2() رواه أحمد والطبراني.

العفو الحليم

سيدي يا رسول الله.. يا من أدبه ربه فأحسن تأديبه، ورباه فأحسن تربيته.. وكان من تأديبه له قوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89]

لقد رحت أقرأ هذه الكلمات المقدسة في سفر حياتك؛ فوجدتها منطبعة بحروفها في كل لحظة من لحظاتها.. أو موقف من مواقفها.. حتى تلك المواقف الشديدة التي تهتز لها القلوب.. ويأبى الطبع إلا أن يغلب صاحبه فيها.. لكنك ــ يا سيدي يا رسول الله ـ كنت تملك زمام نفسك، وتواجهها بما أدبك ربك من الصفح الجميل.

لا أزال أرى بعيني ذلك الأعرابي الذي راح يدنس المسجد.. فهم به الأصحاب لينهروه.. لكنك نهرتهم بكل لطف.. وقلت لهم بكل هدوء: (دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء فإنّما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين) (1)

ولا أزال أرى بعيني ثمامة بن أثال، ذلك الذي حاربك، فلما تمكنت منه، وأصبح أسيرا لديك، خرجت إليه، وقلت له: (ما عندك يا ثمامة؟) فقال: (عندي خير يا محمّد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت).. فأطلقته من غير أن تطالب بفدية ولا مال.. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثمّ دخل المسجد، وقال مخاطبا لك، بعد أن أسرت قلبك بصفحك وجميل أخلاقك: (أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أنّ محمّدا رسول اللّه. يا محمّد، واللّه ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح

1() البخاري- الفتح 10 (6128) ومسلم (284)

وجهك أحبّ الوجوه إليّ. واللّـه مـا كـان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدّين إليّ. واللّه ما كان من بلــد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ) [1]

ولا أزال أرى ذلك الـذي سـل سـيفه عليـك، ليقتلـك، فلمـا تمكنت منه بفضل الله عفوت عنه، وتركتـه يعـود إلى أهلـه من غير أن تفـرض عليـه أن يصـحبك، أو أن تكرهـه على الإسـلام.. لقد حدث حديثه جابر بن عبد الله، فقال: غزونا مع رسول اللــه ﷺ قبل نجد، فلمّـا قفـل رسـول اللـه ﷺ قفـل معـه، فـأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرّق النّاس يستظلّون بالشّجر. فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّق بهـا سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابيّ فقال: (إنّ هذا اخترط عليّ سيفي وأنـا نـائم، فاسـتيقظت وهـو في يده صلتا، فقال: من يمنعك منّي؟ فقلت: (الله) (ثلاثا)، ولم يعاقبه وجلس) [2]

ولا أزال أرى أولئـــك اليهـــود والمنـــافقين الـــذين كـــانوا يسخرون منك كل حين، فلم تكن تبـادلهم إلا بصـفحك الجميـل، وقـد روي عن عائشـة أنهـا قـالت: دخـل رهـط من اليهـود على رسول الله ﷺ فقالوا: (السّام عليكم)، فهمتها، فقلت: (وعليكم السّام واللّعنة)، فقال رسول الله ﷺ: (مهلا يـا عائشـة، إنّ اللـه يحبّ الرّفق في الأمر كلّه)، فقلت: يا رسول اللـه، أو لم تسـمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: (قد قلت: وعليكم) [3]

ولا أزال أرى ذلـك الموقـف الـذي اختـبرك فيـه بعضـهم، ليتقين من نبوتك.. وقد حدث عنه عبـد اللـه بن سـلام قـال: إن

1() مسلم (1764)

2() البخاري- الفتح 6 (2910) ومسلم (843)

3() البخاري- الفتح 10 (6024) ومسلم (2163)

الله تبارك وتعـالى لمـا أراد هـدى زيـد بن سـعنة، قـال زيـد بن سعنة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقــد عرفتهـا في وجـه محمـد ﷺ حين نظـرت إليـه، إلا اثنـتين لم أخبرهمـا منـه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليــه إلا حلمـا، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، قال: فخرج رسول اللـه ﷺ من الحجـرات، ومعـه علي بن أبي طـالب، فأتـاه رجـل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، قريـة بـني فلان قـد أسـلموا ودخلـوا في الإسـلام، وكنت أخـبرتهم أنهم إن أسـلموا أتاهم الرزق رغـدا، وقـد أصـابهم شـدة وقحـط من الغيث، وأنـا أخشى، يا رسول الله، أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلــوا فيــه طمعــا، فــإن رأيت أن ترســل إليهم من يغيثهم بــه فعلت، قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل جانبه، أراه عمر، فقال: مـا بقي منه شيء يا رسول الله، قال زيـد بن سـعنة: فـدنوت إليـه فقلت له: يا محمد، هل لك أن تبيعـني تمـرا معلومـا من حائـط بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقـال: لا يـا يهـودي، ولكن أبيعـك تمرا معلوما إلى أجـل كـذا وكـذا، ولا أسـمي حائـط بـني فلان، قلت: نعم، فبايعني ﷺ، فأطلقت همياني، فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمـر معلـوم إلى أجـل كـذا وكـذا، قـال: فأعطاهـا الرجل وقال: اعجل عليهم وأغثهم بها، قال زيد بن سعنة: فلمــا كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خـرج رسـول اللـه ﷺ في جنـازة، فلمـا صـلى على الجنـازة دنـا من جـدار فجلس إليـه، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجــه غليـظ، ثم قلت: ألا تقضيني يا محمـد حقي؟ فواللـه مـا علمتكم بـني عبـد المطلب بمطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، قال: ونظـرت إلى عمـر وعيناه تدوران في وجهه كالفلـك المسـتدير، ثم رمـاني ببصـره وقال: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعـل بـه ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي هذا عنقك، ورسول الله ﷺ ينظـر إلى عمـر في سـكون وتـؤدة،

ثم قال: إنا كنـا أحـوج إلى غـير هـذا منـك يـا عمـر، أن تـأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب بـه يـا عمـر فاقضـه حقه، وزده عشرين صاعا من غيره مكـان مـا رعتـه، قـال زيـد: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صـاعا من تمـر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ قال: أمـرني رسـول اللـه ﷺ أن أزيـدك مكان ما رعتك، فقلت: أتعرفـني يـا عمـر؟ قـال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: نعم، الحبر، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ مـا قلت، وتفعـل بـه مـا فعلت؟ فقلت: يا عمر كل علامات النبـوة قـد عرفتهـا في وجـه رسـول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أختبرهما منه: يسبق حلمه جهلـه، ولا يزيـده شـدة الجهـل عليـه إلا حلمـا، فقـد اختبرتهمـا، فأشـهدك يـا عمـر أني قـد رضـيت باللـه ربـا، وبالإسـلام دينـا، وبمحمـد ﷺ نبيـا، وأشـهدك أن شـطر مـالي فـإني أكثرهـا مـالا صدقة على أمة محمد ﷺ.. وشـهد مـع رسـول اللـه ﷺ مشـاهد كثيرة، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر) (1)

ولا أزال أذكر أولئك العتاة الغلاظ من قومك الذين حاربوك لأكـثر من عشـرين سـنة، لكنـك بمجـرد أن تمكنت منهم، قلت لهم: (مـاذا تظنّـون أنّي فاعـل بكم؟)، فقـالوا (خـيرا، أخ كـريم وابن أخ كـريم)، فقلت لهم: (لا تـثريب عليكم يغفـر اللـه لكم.. اذهبوا فأنتم الطّلقاء)(2)

وحكى ابن مسعود حالك، فقال: (كـأنّي أنظـر إلى رسـول الله ﷺ يحكي نبيّا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسـح الـدّم عن وجهه ويقول: (ربّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون)(3)

1() رواه الطبرانى (5/222 رقم 5147) قال الهيثمى (8/240): رجاله ثقات. والحاكم (3/700، رقم 6547) وقال: صحيح الإسناد.

2() رواه ابن سعد 2/ 141- 142.

3() البخاري- الفتح 6 (3477)، مسلم (1792)

بعد أن عرفت كل هذا وغيره مما يعجز اللسان عن وصفه، عرفت عظم الكيد الذي كادك به المحرفون المدلسون الذين راحوا يتهمونك بأنك قلت: (اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه، وليس لذلك أهلا، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة)(1)

ولم يكن قصدهم من هذا الحديث الذي كذبوه عليك إلا تبرئة أولئك الطلقاء من أصحاب الملك العضوض الذين حذرت منهم، ونبهت الأمة إلى خطرهم.. وبدل أن يأخذوا أحاديثك عنهم مأخذ الجد، ويعملوا بها، راحوا يتهمونك بأنك لم تقلها إلا في حالة غضب.. وأنك في تلك الحال لم تكن واعيا لما تقول.

ولو أن أولئك الذين قبلوا هذا الحديث، واتهموك بأنك تسب وتلعن من لا يستحق السباب واللعنة، عرفوك، وعرفوا صفحك الجميل، وخلقك الرفيع، وأنك أكبر من أن تصيبك نزوات الغضب التي تصيب من استحوذت عليهم نفوسهم وشياطينهم.. لعلموا أنه يستحيل عليك أن تقول ذلك.

وكيف تقوله، وأنت نفسك قد حدثتهم.. وهم رووا عنك قولك لبعض أصحابك عندما قال لك: (يا رسول الله، أكتب ما أسمع منك؟)، فقلت له: (نعم)، فقال: (في الرضا والسخط؟)، فقلت: (نعم، فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقا) (2)

بل إنهم لو عرضوا ذلك الحديث على القرآن الكريم، وسمعوا منه قوله تعالى في حقك: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)﴾ [النجم: 2 - 4] لعلموا أنك أرفع من أن يصيبك ذلك الضعف

(1) مسلم (4/ 2008، رقم 2601)، وأحمد (2/ 493، رقم 10408)

(2) رواه الحاكم 1/105، وابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص 89.

الذي يصيب غيرك، فيتكلم في حال غضبه بما لا يرضي الله.

الجواد الكريم

سيدي يا رسول الله.. أيها الجواد الكريم الذي لا يضاهيه أحد في جوده، ولا في كرمه.. وأنى له ذلك، وجودك شمل الأزمنة، ومدد فضلك تعالى أن تحصره الأمكنة.. فنحن لا نزال نعيش في فيض كرمك ومددك.. فكل من أقبل عليك أقبلت عليه بأنواع الإكرام والتفضل.

وكيف لا تفعل ذلك سيدي، وقد قال الله تعالى عن أولئك الجاحدين الذين لم يعرفوا قيمتك: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 74]؟

وما لك لا تكون كذلك سيدي، وأنت عبد الله الذي تجلى عليه الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فتخلق بها، وتحققت فيه، فصار مرآة لها، وقبسا من نورها، وقد قلت معبرا عن ذلك: (ألا أخبركم عن الأجود؟ الله الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل تعلم علما فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاهد في سبيل الله حتى يقتل)(1)

وما لك لا تكون كذلك سيدي، وأنت الذي كنت تعطي من سألك، وتبدأ من لم يسألك، ولا تحتفظ في بيتك بدينار واحد.. وعندما دخلت على بلال الذي وكلته بكل مال يحصل لديك، فوجدت عنده صبرة من تمر، قلت له: (ما هذا يا بلال؟) فقال: تمر أدخره، فقلت: (ويحك يا بلال، أو ما تخاف أن يكون له بخار في النار؟ أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا) (2)

ولذلك كنت تنفق كل ما يصل إليك من المال في كل

---

(1) رواه بقي بن مخلد وأبو يعلى..

(2) رواه البيهقي، والبزار، والطبراني، وأبو يعلى.

مواضع الخير، ولا تحتفظ لنفسك بشـيء، وقـد روي أنـك دخلت على أم سـلمة، فرأتـك كئيبـا حزينـا، فسـألتك عن سـبب ذلـك، فقلت لها: (من أجـل الـدنانير السـبعة الـتي أتتنـا بـالأمس، ولم نقسمها)(1)

وحدثت عائشة قـالت ــ مخاطبـة شخصـين جـاءا يسـألانها عنك ـ: لو رأيتما رسـول اللـه ﷺ في مـرض لـه، وكـانت عنـدي ستة دراهم أو سبعة، فأمرني أن أفرقها، فشـغلني وجعـه حـتى عافـاه اللـه، ثم سـألني عنهـا، فقـال: (مـا فعلت، أكنت فـرقت الستة الدنانير أو السبعة؟) فقلت: لا، واللـه، لقـد كـان شـغلني وجعك.. فدعا بها، فوضعها في كفه، فقال: (ما ظن نبي الله لـو لقي الله وهذه عنده؟)(2)

وحدث بلال قال: دخل رسـول اللـه ﷺ، وعنـدي شـيء من تمر، فقال: (ما هذا؟) فقلت: ادخرنا لشتائنا، فقال: (أمـا تخـاف أن ترى له بخارا في جهنم؟)(3)

وحـدث أبـو ذر قـال: كنت أمشـي مـع رسـول اللـه ﷺ في صرة المدينة فاسـتقبلنا أحـدا، فقـال: يـا أبـا ذر، قلت: لبيـك يـا رسول الله، قال: (ما يسرني أن عندي مثـل أحـد ذهبـا، تمضـي على ثلاثة، وعندي منه دينار، إلا شيئا أرصده لدين، إلا أن أقــول في عباد الله هكذا، وهكذا)(4)

وحدث ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر، ويأكل، فقال لي:

1() رواه ابن حبان والبيهقي.

2() رواه ابن سعد والبيهقي.

3() رواه الطبراني والبزار.

4() رواه البخاري.

(يا ابن عمر ما لـك لا تأكـل؟) قلت: يـا رسـول اللـه لا أشـتهيه، قال: (لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة لم أذق طعاما، ولم أجده، ولو شـئت لـدعوت ربي فأعطـاني مثـل ملـك كسـرى وقيصـر، فكيف بـك يـا ابن عمـر إذا بقيت في قـوم يحبـون رزق سـنتهم ويضعفون؟ قال: فو الله ما برحنا، ولا زمنا حتى نزلت: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت:60)، فقال رسول الله ﷺ: (لم يـأمرني بكـنز الـدنيا، ولا اتباع الشهوات، فمن كـنز دنيـاه يريـد بهـا حيـاة باقيـة، فـإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز دينارا، ولا درهما، ولا أخبئ رزقـا لغد) [1]

وهكذا كنت ـ سيدي ـ لا تحتفظ بشيء من المال لنفســك، بل كنت تقدمـه جميعـا في سـبيل اللـه، ولا تحتفـظ لنفسـك إلا بمقدار حاجتها المحدودة جدا، وقد روي أنكم ذبحتم شاة، فرآها بعض الفقراء، فرحت تأمر أهلك بتقـديمها لهم، ثم سـألتهم: مـا بقي منها؟، فقالوا: ما بقي منها إلا كتفها، فقلت: (بقي كلُّها غير كتفها) [2]

وقــد كــان ذلــك الخلــق العظيم ســببا في إســلام من لم تبهــرهم المعجــزات الواضــحات.. لكنهم عنــدما رأوا يــديك المرسلتين بالعطـاء، مـع حاجتـك الشـديدة، عرفـوا أنـك لسـت طالب دنيا، وأنه لا يمكن لكاذب أن يحمل أوصافك.

لقد ذكر الإمـام علي ذلـك قـال: (كـان رسـول اللـه ﷺ إذا سئل عن شيء، فأراد أن يفعلـه قـال: (نعم) وإن أراد ألا يفعلـه سكت، وكان لا يقول لشيء لا) [3]

1() رواه أبو بكر الحميدي.

2() رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

وذكره أنس، فقال: (ما سئل رسول اللـه ﷺ على الإسـلام شيئا إلا أعطاه) (1)

ثم ذكر نموذجا لذلك، فقال: (فسأله رجل غنمـا بين جبلين فأعطاه إياها، فـأتى قومـه فقـال: يـا قـوم أسـلموا، فواللـه إن محمدا ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر) (2)

وقـال: (وإن كـان الرجـل ليجيء إلى رسـول اللـه ﷺ ومـا يريد بذلك إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكـون دينـه أحب إليـه من الدنيا وما بينها) (3)

وحدث سهل بن سـعد قـال: (كـان رسـول اللـه ﷺ حييـا لا يسأل شيئا إلا أعطى)(4)

وذكر أن امرأة جاءت لـك بـبردة منسـوجة فيهـا حاشـيتها، وقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها فخذها، فأخذتها، وأنت في أشـد الحاجة إليها، ثم خرجت بها أمام أصحابك، فرآها أعرابي، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، فقلت: (نعم)، ثم رجعت إلى بيتك، فطويتها، وأعطيتها له(5).

وحدث هارون بن أبان قـال: قـدم للنـبي ﷺ سـبعون ألـف

3() رواه الخرائطي، والطبراني، و المراد من عدم قوله: (لا) ما يفهم منها عدم الإعطاء مع القدرة عليه، أما إذا كانت من باب الاعتـذار، فلا حـرج في ذلك، وقد قالها ﷺ، ففي القرآن الكريم حكاية عن النبي ﷺ: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِـدُ مَـا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة:92)

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه الدارمي.

5() رواه البخاري، وابن ماجه، وابن سعد، والطبراني، والإسماعيلي والنسائي

درهم، وهــو أكــثر مــال أتي بــه قــط، فوضــع على حصــير من المسجد، ثم قام بنفسه، فما رد سائلا، حتى فرغ منه[1].

وقــال: أتي رســول اللــه ﷺ بمــال من البحــرين، فقــال: انظروا، يعني صبوه في المسـجد، وكـان أكـثر مـال أتى بـه ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ من المسجد، ولم يلتفت إليه، فلما قضــى الصلاة جاء فجلس إليه، فمـا كـان يـرى أحـدا إلا أعطى إلى أن جاء العباس، فقال: يا رسول الله أعطني، فإني فاديت نفســي، وفاديت عقيلا، فقـال: (خـذ) فحثـا في ثوبـه، ثم ذهب يقلـه فلم يستطع، فقال: يا رسول الله مر بعضـهم يرفعـه إلي قـال: (لا)، قال: فارفعه أنت، قال: (لا أستطيع)، ثم نثر منه، ثم ذهب يقلــه فلم يستطع، فقال: يا رسول الله: مر بعضهم يرفعه علي، قال: (لا)، قال: فارفعه أنت، قال: (لا) ثم نـثر منـه فاحتملـه، فألقـاه على كاهله، فانطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعـه بصـره حـتى خفي علينا، عجبا منه، فما قام رسول الله ﷺ، وثم منهــا درهم)[2]

ولم تكن تكتفي بكل ذلك ــ سـيدي ــ بـل كنت تعطي كـل من سألك، ولو علمت أنه لم يفعـل ذلـك عن حاجـة، وإنمـا لمـا اشـتهر من جـودك وكرمـك، وقـد حـدث أبـو سـعيد قـال: دخـل رجلان على رســول اللــه ﷺ يســألانه عن ثمن بعــير فأعانهمــا بــدينارين، فخرجـا من عنـده، فلقيـا عمـر، فأثنيـا خـيرا، وقـالا معروفا، وشكرا ما صنع رسول الله ﷺ بهمـا، فـدخل عمـر على النـبي ﷺ فـأخبره بمـا قـالا، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (لكن فلانـا أعطيتــه مــا بين العشــرة والمائــة فلم يقــل ذلــك، إن أحــدهم يسألني، فينطلق بمسألته يتأبطها، وما هي إلا نار)، فقال عمــر: يـا رسـول اللـه، فلم تعطهم مـا هـو نـار؟ فقـال: (يـأبون إلا أن

[1] () رواه الدارمي.

[2] () رواه البخاري

يسألوني ويأبي الله لي البخل) (1)

وذكــر في حــديث آخــر أن ناســا من الأنصــار ســألوك، فأعطيتهم، ثم سألوك، فأعطيتهم، ثم قلت: (ما يكون عندي من خير، فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفـه اللـه، ومن يسـتغن يغنه الله، ومن يتصبر يصـبره اللـه، ومـا أعطي أحـد عطـاء هـو خير، وأوسع من الصبر) (2)

وحدث جبـير بن مطعم أنـه بينمـا كـان معـك مقبلا من حـنين علقت بك الأعراب يسألونك، حتى اضطروك إلى سـمرة فخطفت رداءك، فـوقفت، وقلت لهم: (أعطـوني ردائي، فلـو كـان لي عـدد هذه العضاة نعما لقسمته عليكم لا بخيلا، ولا كذابا، ولا جبانا) (3)

وحدث أنس أنك عام حنين سألك الناس، فأعطيتهم من البقر والغنم والإبل، حتى لم يبق من ذلـك شـئ فقلت: (مـاذا تريـدون؟ أتريدون أن تبخلوني؟ فوالله ما أنـا ببخيـل، ولا جبـان، ولا كـذوب)، فجذبوا ثوبك حتى بدت رقبتك(4).

وحدث سهل بن سعد قال: حكيت لرسول الله ﷺ حلة أنمــار صـوف أسـود، فجعـل حاشـيتها بيضـاء، وقـام فيهـا إلى أصـحابه، فضرب بيـده إلى فخـذه فقـال: (ألا تـرون إلى هـذه مـا أحسـنها!) فقال أعرابي: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، وكان رسـول اللــه ﷺ لا يســأل شــيئا أبــدا فيقــول: لا، فقــال: (نعم)، فأعطــاه الجبة(5).

1() رواه ابن أبي الدنيا وغيره.

2() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

3() رواه البخاري.

4() رواه ابن الأعرابي.

5() رواه الطبري.

ولم يقف كرمك ـ سيدي ــ بهـذا الحـد، بـل كنت في حـال عدم قدرتك على العطاء تتكلف كل السبل لترضـي من سـألك، حتى لا يذهب إلا راضيا، وقـد حـدث عمـر قـال: جـاء رجـل إلى النبي ﷺ فقال: ما عندي شـئ أعطيـك، ولكن اسـتقرض، حـتى يأتينا شئ فنعطيك، فقال عمر: ما كلفك اللـه هـذا، أعطيت مـا عندك، فإذا لم يكن عندك فلا تكلف، فكره رسول الله ﷺ ذلـك، حتى عرف في وجهه، فقال الرجل: يا رسول اللـه، بـأبي وأمي أنت، فأعــط، ولا تخش من ذي العــرش إقلالا، فتبســم وجــه رسول الله ﷺ وقال: (بهذا أمرت) (6)

هـذه سـيدي بعض مشـاهد جـودك وكرمـك، وهي كافيـة للمستبصرين المؤمنين بـك، الـذين يعلمـون أنـك المثـل الأعلى في كل شيء.. فأسألك سـيدي، وأتوسـل بـك إلى اللـه أن يملأ القلب بالمعارف التي تجعلـني جـوادا كريمـا، لا أقبض يـدي عن معروف، ولا أبخل بهـا عن إحسـان، حـتى أكـون أهلا لصـحبتك، ومعيتك في الدنيا والآخرة، إنك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

____

6() رواه الترمذي والخرائطي.

الصادق الأمين

سيدي يا رسول الله.. أيها الصادق الذي شهد له كل شيء بالصدق.. الأمين الذي أقر له كل شيء بالأمانة.. حتى صار لقبه في العالمين: الصادق الأمين.

وكيـف لا تكـون كـذلك سـيدي، وأنت الـذي حُّملت أعظم رسالة، وكُلّفت بأضخم مهمة، وأنيطت بك أثقل أمانــة.. فأديتهـا بكل دقة ورعاية وإتقان، وبجميع تفاصيلها، ظاهرا وباطنـا، حـتى لقيت الله تعالى، وقد أديت كل ما عليك من تكاليف..

وقد شهد اللـه لـك بـذلك، فقـال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَـذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَــذَّبَ بِالصِّــدْقِ إِذْ جَــاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْــوًى لِلْكَــافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَــاءَ بِالصِّــدْقِ وَصَــدَّقَ بِــهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: 32، 33]

وقد أثبتت الأيام صدق كل ما ذكرته، فلا استطاع العلم ولا التطــور ولا التقــدم التقــني ولا العقــول البشــرية الكثــيرة، ولا المؤسسات العلمية الضخمة، أن تكذب حرفـا واحـدا ممـا جئت به، بل كلها أقرت لك بالصدق، وأنك بلغت كل ما كُلفت بــه من غير زيادة ولا نقصان.

وأثبتت الأيام معها عظيم نصحك لأمتـك الـتي خالفتـك في كثير من وصاياك؛ فنزل بها ما نـزل بـالأمم قبلهـا من البعـد عن كتابها وهديك، فآل حالها إلى الضعف والاسـتبداد والتفـرق، ولـو أنها اتبعت وصاياك، ونفذت تعاليمك كمـا بلغتهـا، لكـانت أفضـل الأمم، وأقواها، وأطهرها، وفي جميع العصور.

ولم تكن الأيام فقط هي التي شهدت لك بذلك ــ سـيدي ـ بل إن قومك أنفسهم، أولئك الذين نصبوا لك العداء، كانوا أكـثر

الناس تصديقا لكم، لكن الكبر والظلم والعتو حال بينهم وبين اتباعك، كما قال الله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33]

وقد روي في سبب نزولها أن أبا جهل لقيك؛ فقال: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به (1).

وحدث بعضهم قال: لقي النبي ﷺ أبا جهل فصافحه، قال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟! فقال: والله إني أعلم إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟

وروي أنه جاء يستمع لقراءتك من الليل، هو وأبو سفيان، والأخْنَس بن شِرِيْق، ولا يشعر واحدٌ منهم بالآخر، فاستمعوها إلى الصباح، فلما هَجَم الصبح تَفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظَنًا أن صاحبيه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أجمعوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حَنْظَلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته

1() رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: مــاذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، حملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينـا، حـتى إذا تَجاثينـا على الـرُّكَب، وكنا كَفَرَسي رِهَان، قـالوا: منـا نـبي يأتيـه الـوحي من السـماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، قـال: فقـام عنه الأخنس وتركه[1].

وروي أنه لما كان يـوم بـدر قـال الأخنس بن شَـرِيق لبـني زهرة: يا بني زهرة، إن محمدًا ابن أختكم، فأنتم أحــق من كـف عنه، فإنه إن كان نبيًا لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أختـه قفـوا هاهنـا حـتى ألقى أبـا الحكم، فـإن غُلِبَ محمـد رجعتم سـالمين، وإن غَلَب محمـد فـإن قـومكم لم يصنعوا بكم شيئا.. فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يـا أبـا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هـو أم كـاذب؟ فإنـه ليس هاهنـا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا؛ فقال أبو جهل: ويحك! واللـه إن محمدًا لصـادق، ومـا كـذب محمـد قـط، ولكن إذا ذهبت بنـو قُصيّ باللواء والسقاية والحجـاب والنبـوة، فمـاذا يكـون لسـائر قريش؟)[2]

وحدث آخر قال: إن أول يوم عـرفت فيـه رسـول اللـه ﷺ أني كنت أمشـي أنـا وأبـو جهـل في بعض أزقـة مكـة إذ لقينـا رسول الله ﷺ، فقـال رسـول اللـه ﷺ لأبي جهـل: يـا أبـا الحكم هلمَّ إلى اللـه ورسـوله، أدعـوك إلى اللـه. فقـال أبـو جهـل: يـا محمد هل أنت منتهٍ عن سبَ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشـهد أنـك قد بلَّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلَّغت، فوالله لـو أني أعلم أن مـا تقول حق لاتبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبـل عليَّ فقـال:

1() رواه ابن إسحق وغيره.

2() رواه ابن جرير.

والله إني لأعلم أن ما يقول حـق ولكن يمنعـني شـيء: أن بـني قصي قالوا: فينـا الحجابـة، قلنـا: نعم، ثم قـالوا: فينـا السـقاية، قلنـا: نعم، ثم قـالوا: فينـا النـدوة، فقلنـا: نعم، ثم قـالوا: فينـا اللواء، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الـركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل(1).

بل إنهم ـ سيدي ـ شهدوا لك بذلك، ومن أول يوم دعـوتهم فيه إلى دينك، فكل المؤرخين متفقون على أنه لما نـزل عليـك قولـه تعـالى: ﴿وَأَنْـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الْأَقْـرَبِينَ ﴾ [الشـعراء: 214] صعدت على الصفا، فجعلت تنـادي: يـا بـني فهـر يـا بـني عـدي لبطون قريش حتى اجتمعوا، فقلت لهم: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قـالوا: نعم مـا جربنا عليك إلا صـدقاً، فقلت: فـإني نـذير لكم بين يـدي عـذاب شديد، قال أبو لهب حينها: تبّا لك يا محمد ألهذا جمعتنا فـنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد:1)(2)

ومن الأعـداء الـذين شـهدوا لـك بالصـدق رغم عـداوتهم الشديدة النضر بن الحارث الذي خاطب قومه قائلا: (يـا معشـر قريش إنه والله قد نـزل بكم أمـر مـا ابتليتم بمثلـه، ولقـد كـان محمـد فيكم غلامـاً حـدثاً، أرضـاكم عقلاً، وأصـدقكم حـديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحراً! لا والله ما هو بساحر، لقـد رأينـا السـحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكـاهن، قـد رأينـا الكهنة وحالهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر! لا والله مـا هـو بشاعر، لقد رأينا الشـعر، وسـمعنا أصـنافه كلهـا هزجـه ورجـزه وقريضـه، وقلتم: مجنـون! لا واللـه مـا هـو بمجنـون، لقـد رأينـا

1() رواه البيهقي، وابن أبي شيبة بنحوه.

2() رواه البخاري ومسلم.

الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه)، ثم قال لهم: (يا معشر قريش، انظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم)(1)

هذا كلام النضر بن الحارث الذى كان شيطاناً من شياطين قريش، ومثله قال سائر أعدائك كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وغيرهما.

ولم تكن هذه الشهادة خاصة بحياتك ـ سيدي ـ بعد البعثة، بل إنه قبل البعثة اشتهرت باسم الصادق الأمين، وقد ذكر شريكك في التجارة السائب المخزومي كيف كنت تتعامل معه، فقال ــ بعد أن لقيك يوم الفتح ــ:(مرحبا بأخي وشريكي لا تداري ولا تماري)، وقال:(كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك لا تداري ولا تماري) (2)

ولما قامت قريش ببناء الكعبة قبل بعثتك تنازعوا في رفع الحجر الأسود إلى مكانه، واتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم الباب، فكنت أول داخل؛ ففرحوا جميعا، وقالوا: جاء الأمين، جاء محمد.. وقد كانوا يلقبونك بلقب الأمين؛ لما يعلمونه من أمانتك.

وهكذا عندما ذهبت إلى المدينة المنورة، علم أحبار اليهود صدقك، لكن كبرهم حال بينهم وبينك، ولهذا فإن أول من أسلم كان من كبار أحبارهم بشهادتهم، ومنهم عبد الله بن سلام الذي قال: (لما قدم النبي ﷺ المدينة كنت ممن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فسمعته يقول: (أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل

1() سيرة ابن هشام (1/ 270)

2() رواه أحمد.

والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)(3)

وهكذا ـ سيدي ــ لا تـزال الأيـام والتجـارب تكشـف صـدق كلماتك ونصائحك ووصاياك.. لكن من النفوس ما هو لين طيب، يقبـل مـا جئت بـه، ويُقبـل عليـك.. ومنهـا مـا هـو قـاس غليـظ كالحجارة يأبى أن يسلّم لك، ولو أنه موقن بصدقك..

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله أن أكـون من ذلـك الصنف الذي يسلم لك، ويصدقك، ويصدق كل ما جئت به، بلغـه عقله أو لم يبلغه.. فأنت عقل العقول، وأنت نـور الأنـوار.. ومن لم يسلّم لك عاش في ظلال نفسه الأمّارة بالسوء، يستقي من أهوائها، ويجتني من غيها ودسائسها مـا يحـول بينـه وبين الحــق وأهله.

وأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله أن أكون من أولئك الصادقين الذين صدقوا في صحبتك، قولا وفعلا، وإرادة وعزمـا، ومـاتوا على ذلـك، فتحقـق فيهم قولـه تعـالى: ﴿مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّـادِقِينَ بِصِـدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَـافِقِينَ إِنْ شَـاءَ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ غَفُـورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 23، 24]

3() رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

الملهم الخبير

سـيدي يـا رسـول اللـه.. أيهـا الملهم المسـدد.. المعلّم المؤيد.. يا من علمك ربك ورباك، وفهمك ووعاك.. وأعطاك من كل أنواع الإدراك.. فصـار الكـل تلاميـذك، وصـرت أنت إمـامهم وخبيرهم وقائدهم وحكيمهم.

وكيف لا تكون كـذلك ــ سـيدي ــ و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَـلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: 124].. فما كـان لمن يتـولى ذلـك المنصـب الرفيـع الـذي توليتـه، والـذي صـرت بسـببه الواسـطة بين اللـه وعبـاده.. إلا أن يكـون لـك من قـوة العلم والإدراك والفهم والحكمـة، مـا يجعلـك مسـددا تضـع كـل الأمـور في مواضـعها الصحيحة: إما بإرشاد مباشر من اللـه تعـالى وذلـك هـو الإلهـام والوحي.. أو بالصفاء والقدسية، وتلك هي العبقرية والخبرة.

فلذلك كنت ــ سـيدي ــ تملـك من القـدرات الإدراكيـة مـا يفوق بـدرجات كثـيرة جميـع العقـول، ولـو اجتمعت مـع بعضـها بعضا؛ فقد كنت تملك قوة الذكاء والذاكرة وحـدة الـذهن ودقـة الملاحظة واستبصار العواقب وغير ذلك مما تحتاج إليه الوظيفة التي أنيطت بك.

بالإضافة إلى ذلك كله، ذلك الصفاء والقدسية التي تجعلـك محلا لتنزل إلهامات الله وملائكته، فترى العواقب، والأمـور كمـا هي من غير تشويه ولا تحريف ولا تبديل.

ومن يجادل في امتلاكـك لكـل تلـك القـدرات جاهـل بقـدر النبوة وعظمتها، ذلك أن النبوة تتناقض مع كل ما يخـل بـأدوات الإدراك، والاستقبال؛ فيستحيل أن يكـون النـبي أبلـه أو غبيـا أو مغفلا أو غـير ذلـك من النقـائص الـتي يتـبين من خلالهـا نقص

جوهره، وضعف إدراكه.

وكيف يكون ذلـك سـيدي؟.. وهـل يمكن لمن اسـتطاع أن يعاين الملكوت أن يعجز عن معاينـة الملـك؟.. وهـل يمكن لمن استطاع أن يتواصل مع عالم الغيب أن يعجـز عن التواصـل مـع عالم شهاده؟.. وهل يمكن لمن استطاع أن تمتـد عينـاه للأفلاك العليا، فيرى من أسرارها ما لا يراه غيره أن يعجز عن رؤيـة مـا هو أمامه؟

إن الذي يقول ذلك سيدي، لا يختلف عن ذلك الذي يتصـور أنه يمكن لمن استطاع عقله أن يحل أعقـد المسـائل الرياضـية أن يعجز عن حل مسألة جمع أو طرح أو ضرب.

بل إن الأمر بالنسبة لك أعظم؛ فأنت لم تكن تملك الـذكاء المجرد، ولا العبقرية البشرية المحدودة فقط، وإنما كنت تملـك معهمـا حكمـة مسـددة من الملأ الأعلى متواصـلة تواصـلا دائمـا معك..

ولذلك كنت غنيا عن استشارة غيرك، وقـد قلت في ذلـك: (أما إنَّ الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله تعالى رحمـة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركهـا لم يعـدم غيًّا)(1)

بـل إن القـرآن الكـريم أشـار إلى ذلـك عنـدما أمـرك باستشارة أصحابك، فقد أخبرك أن ذلك من مقتضـيات رحمتـك بهم، وتأليفك لقلوبهم، قـال تعـالى: ﴿فَبِمَـا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]

إن مثلك في ذلك ـ سيدي ـ مثل الأستاذ الذي يتيح لطلبتـه

(1) رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب.

أن يدلوا بآراهم في مسألة من المسائل، ثم يظهر عجبه من عبقريتهم وذكائهم، وإن كان هو نفسه يعلم بذلك مسبقا.. ولكن رحمته بهم تجعله ينهج ذلك المنهج.

وقد ورد هذا في شمائلك ـ سيدي ــ فقد وصفك هند بن أبي هالة، فقال: (يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق)(1)

وقريب منه ما وصفك به أنس حين قال: (كان إذا لقيه أحد من أصحابه فتناول أذنه، ناوله إياها، ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه)(2)

وقريب من ذلك أيضا ما ورد في القرآن الكريم من عتاب الله تعالى لك، وهو عتاب المحب لمحبه، فعند التأمل في مواردها نجدها جميعا تنبعث من رحمتك بمن تريد أن تؤلف قلوبهم.. ولذلك فإن ذلك العتاب لم يكن حقيقيا، وإنما هو من باب [إياك أعني واسمعي يا جارة]

إن مثله ـ سيدي ـ مثل أن يقول الوالد لمعلم ابنه: لم لم تعاقبه عندما أخطأ؟.. ولم لنت له مع أنه كان في إمكانك أن تعاقبه؟.. وهو لا يقصد بذلك عتاب المعلم، وإنما يقصد توجيه اللوم لابنه وتربيته من خلال ذلك.

ولهذا، فإن قوله تعالى مخاطبا لك: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: 1] ليس من ذلك العتاب الذي يفهمه المحجوبون، وإنما هو من عتاب المحبين..

---

(1) شمائل الترمذي.

(2) رواه ابن سعد.

فأنت لم تحرم ما أحل الله لك إلا لأنك كنت تشعر أنك مأمور بأن تحسن لزوجاتك، وأن تعطي المثل للمؤمنين في الرفق بهن مهما أسأن التصرف معك، ولذلك كنت تسعى في مرضاتهن، لا لأجلهن، وإنما لأجل تحقيق عبودية الله في التعامل معهن، ولهذا نبهك الله، أو نبههن بطريق غير مباشر إلى أن يراعين حسن العشرة معك..

ولهذا جاء بعد تلك الآيات ذلك التهديد الشديد لنسائك إن أسأن العشرة معك، قال تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)﴾ [التحريم: 4، 5]

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى مخاطبا لك: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [التوبة: 43]، فقد كنت ـ سيدي ـ في قمة الصفاء والرقة والرحمة.. ولذلك كنت تقبل كل من اعتذر لك حتى لو كنت تعلم كذبه حرصا عليه ورحمة به، فنبهك الله أو نبههم إلى أن إذنك لا ينفع إلا الصادقين.

ومثل هذا أيضا تلك الرحمة التي كنت تبديها للمنافقين، والتي تصور البعض أنك كنت مخطئا فيها حتى جاء من جاء ليصحح لك خطأك.

وهكذا يقال في كل ما ورد في الروايات من استشارتك لأصحابك؛ فلم تكن عن نقص حكمة، ولا عن حاجتك لهم، وإنما كانت تأليفا لقلوبهم وتربية لهم.

لكن المغرضين سيدي، راحوا يفهمونها من غير مراعاة

لقدرك، ولا احترام لنبوتك، ولذلك رموك بالعظائم، وجردوك ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ــ من كل معاني الحكمة والذكاء والبصيرة، وجعلوك عاجزا تنتظر ما يقرره أصحابك..

وكل ذلك ـ سيدي ـ في سبيل أن يرفعوا أصحابك، ويثبتوا مناقبهم، التي توهموا أنها لا يمكن أن تثبت إلا بالحط من شأنك، وإبراز ضعفك، لتبرز من خلال تلك المواقف قدرة أصحابك وذكاؤهم وحكمتهم، وأن الله اصطفاهم لك، وأنك ـ لولاهم ـ لنزل بك العذب، ولأخرجت من ديوان النبوة.

لا يمكنني ـ سيدي ـ أن أورد لك هنا ما ذكروا، فهو كثير جدا، وهم يذكرونه بفخر واعتزاز، معظمين لذلك الصحابي الذي جرت تلك المواقف على يديه، متناسين أنهم برفعهم له وضعوك.. وبتبيينهم لذكائه وفطنته وحكمته واستبصاره للأمور اتهموك بالغباء والغفلة والعجلة وغيرها من الصفات التي لا تتوافق مع نبوتك.

ومن الأمثلة على ذلك ما يسمونه [موافقات عمر]، والتي ألفت فيها الكتب التي حاول أصحابها ـ من أجل إعطاء المزيد من القدسية للصحابة ـ أن يعتبروا عمر هو صاحب الفضل في تلك الأحكام الإلهية.. وهو ما يعطي بعد ذلك ذريعة لكل مشكك في أن يعتبر عمر ممن أسسوا هذا الدين، وممن وضعوا بعض الأحكام المرتبطة به..

فمن تلك الموافقات: الصلاة عند مقام إبراهيم، والتي ورد بشأنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: 125)

ومنها دعوته للحجاب، والذي نزل في شأنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب:

(53

ومنها قوله لأمهات المؤمنين: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ...﴾ (التحريم: 5)، فنزلت كما قال.

ومنها ما ورد في تحريم الخمر في عدة آيات، كقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (البقرة: 219)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: 43)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: 90)

ومنها ما ورد في سورة المؤمنون من قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(المؤمنون: 14)

ومنها الصلاة على المنافقين عند موتهم في واقعة موت عبد الله ابن أبي ابن سلول ونزول قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ﴾(التوبة: 84)

ومنها الإستغفار للمنافقين، قال تعالى: ﴿سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(المنافقون: 6)

ومنها واقعة الإفك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: 16)

ومنها واقعة اليهود وعداوة جبريل وقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (البقرة: 97)

ومنها واقعة قتـل عمـر لمن رفض حكم رسـول اللـه حيث قال تعالى: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً (النساء: 65)

ومنها واقعة الإستئذان في الدخول وقول اللـه تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النور: 27)،

ومنها حكمه في أسارى بـدر، فـنزلت كمـا ذكـر: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ... (الأنفال: 67)

وفي هـذا المقـام يـذكر الخطبـاء والوعـاظ كثـيرا، وببعض التباهي أنك حين نزلت هـذه الآيـة: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ (الأنفـال: 67) قلت: (لـو نـزلت نار من السماء لأحرقتنا إلا عمر)[1]

وهم لا يكتفـون بـذلك ـ سـيدي ـ بـل إنهم يمططـون في القصـة، ويضـيفون إليهـا بعض التوابـل ليخـرج النـاس منبهـرين بعبقرية عمر وذكائه وحكمته، وينسوا أنهم خرجوا أيضا وقد بنوا كل ذلك البنيان على حساب تقديرهم لك ولنبوتـك ولإلهـام اللـه لك.

ونحن لا يهمنـا ـ سـيدي ـ أن يقـدروا عمـر أو غـيره من الصحابة أو التـابعين أو تـابعيهم.. ولكن لا على حسـابك.. فنحن مأمورون بالتأسـي بـك وتعظيمـك وتعزيـرك وتوقـيرك.. ولسـنا

---

(1) ذكر القصة الطبري وابن كثير والقرطبي وابن العربي والماوردي وغيرهم.

مأمورين بفعل ذلك مع غيرك.

لم يكتفوا بذلك ـ سيدي ـ بل إنهم راحوا لأخطر موقف وقفه بعض أصحابك معك، وذلك عند احتضارك، في ذلك الحين الذي كان الأصل أن يطلبوا منك فيه الوصية، ليعرفوا من هو خليفتك من بعدك.. لكنهم لم يفعلوا، بل راحوا يمنعونك أن توصي..

لقد ذكر ابن عباس ما حدث في ذلك اليوم متأسفا حزينا، فقال: (لما حضر رسول الله، وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب، قال النبي ﷺ: (هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده)، فقال عمر: (إن النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله)، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو، والاختلاف عند النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (قوموا)، قال عبيد الله: (راوي الحديث عن ابن عباس، وهو ابنه): فكان ابن عباس يقول: (إن الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم، ولغطهم)[1]

لقد روى ابن عباس هذه الحادثة متألما متأسفا، وكان الأصل في كل الأمة أن تفعل ذلك، فكيف يحال بين نبي وبين أن يوصي؟.. لكنهم للأسف ـ سيدي ـ لم يفعلوا، بل راحوا يعتبرونك مخطئا بطلب كتابة الوصية، ويعتبرون الحكمة في قول من منعك.. وكل ذلك جهلا بقدرك.

لقد عبر بعضهم عن ذلك، فقال: (إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك، لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنه ظهرت منه أي من كلام

1() رواه البخاري.

الرسـول ﷺ قرينـة دلت على أن الأمـر ليس على التحتم، بـل على الاختيار، فاختلف اجتهادهم، وصمم عمر على الامتنـاع لمـا قام عنده من القرائن بأنـه ﷺ قـال ذلـك عن غـير قصـد جـازم، وعزمه ﷺ كان إما بالوحي وإما بالاجتهاد، وكذلك تركـه إن كـان بالوحي فبالوحي وإلا فبالاجتهاد أيضاً..)(1)

وما قاله عجيب جدا، فكيف يقال لأمرك ـ سيدي ـــ أنـه لم يكن على سـبيل الحتم واللـزوم، وقـد ورد في القـرآن الكـريم التشديد على إجابتـك مطلقـا، قـال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفـال: 24]، بل حذر بعدها من الفتنة التي قد تنجر من عدم إجابتـك، فقـال: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْكُمْ خَاصَّـةً وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: 25]

ثم كيـف يقـال بـأن ذلـك الأمـر لم يكن على سـبيل الحتم واللزوم، وقد قلت ـ سيدي ـ مبينـا أهميتـه وخطـره: (هلم أكتب لكم كتابـاً لا تضـلوا بعـده)، فهـل هنـاك شـيء أهم من عـدم الضلال.. بل عدم الضلال الأبدي؟

ومثل ذلك ـ سيدي ـ ما ذكره آخر مـبررا فعـل عمـر، حيث قال: (إنما قصد عمر التخفيـف على رسـول اللـه ﷺ حين غلبـه الوجع، ولو كان مراده ﷺ أن يكتب ما لا يستغنون عنه لم يتركه لاختلافهم ولا لغيره لقوله تعالى ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ﴾ [المائـدة: 67] كما لم يترك تبليغ غير ذلك لمخالفة من خالفه ومعاداة من عـاداه، وكمـا أمـر في ذلـك الحـال بـإخراج اليهـود من جزيـرة العرب وغير ذلك مما ذكره في الحديث)(2)

1() هو قول المازري، كما نقله الحافظ في الفتح (7/740)

2() نقله عنه النووي في شرح مسلم (11/132).

وما ذكره هذا لا يقل غرابة عما ذكره من قبله، لأنه يتنافى مع ما ورد في الحديث من اهتمامك بالوصية، أما تركك للكتابة، فليس تقصيرا منك ـ سيدي ـ حاشاك.. وإنما يفسر الأمر فيها كما يفسر سكوتك عن تحديد ليلة القدر بعدما حصل التنازع، فقد ورد في الحديث عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا ليلة القدر فتلاحى (أي تخاصم وتنازع) رجلان من المسلمين، فقال: (خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرُفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة)(3)

وهكذا كان التنازع سببا في الحرمان من تحديد ليلة القدر.. لأنها نعمة كبرى.. فلما لم يقدروها حق قدرها حرموا من ذلك.. وهكذا كان حرمانهم من تلك الوصية العظيمة بسبب التنازع.. لأنه حصل لك علم ـ سيدي ـ بأن هؤلاء الذين اجترأوا على التنازع بين يديك لن يصعب عليهم أن يمزقوا وصيتك أو يؤولوها أو يفعلوا بها ما شاءوا.

وهكذا قال آخر مبررا فعل عمر: (ائتوني أمر، وكان حق المأمور أن يبادر للامتثال، لكن ظهر لعمر مع طائفة أنه ليس على الوجوب، وأنه من باب الإرشاد للأصلح، فكرهوا أن يكلفوه من ذلك ما يشق عليه في تلك الحالة مع استحضارهم لقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، ولهذا قال عمر: حسبنا كتاب الله، وظهر لطائفة أخرى أن الأولى أن يكتب لما فيه من زيادة الإيضاح، ودل أمره لهم بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار، ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أياماً ولم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واجباً لم يتركه لاختلافهم، لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، وقد كان

(3) رواه البخاري.

الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر فإذا عزم امتثلوا)(1)

وقال آخر: (أما كلام عمر فقد اتفق العلماء المتكلمون في شرح الحـديث على أنـه من دلائـل فقـه عمـر وفضـائله ودقيـق نظره، لأنه خشي أن يكتب ﷺ أموراً ربما عجزوا عنها واستحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا محالة للاجتهاد فيها، فقال عمـر: حسبنا كتاب الله لقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعـام: 38]، وقولـه: ﴿ الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]؛ فعلم أن الله تعالى أكمـل دينـه فـأمن الضـلالة على الأمـة وأراد الترفيـه على رسول الله ﷺ، فكان عمر أفقه من ابن عباس وموافقيـه) (2)

هذه ـ سيدي ـ مواقفهم من طلبك لكتابة الوصـية، ومنعـك منها.. والتي جعلهم حرصهم على الصـحابة يتهمونـك بأنـك كنت المخطئ في طلب ذلـك، وأن الحكمـة فيمن منعـوك من كتابـة وصيتك.

لكنهم في نفس الوقت يقفـون موقفـا متناقضـا تمامـا مـع وصايا أصحابك الذين أحلـوهم من المنزلـة مـا لم يحلـوك.. بـل أجـازوا لهم مـا لم يجـيزوا لـك.. فهم يـذكرون بإعجـاب شـديد موقف أبي بكر في مـرض موتـه عنـد وصـيته لعمـر، ويعتـبرون ذلك من حرص أبي بكر على الأمة من بعـده، ورحمتـه بهـا، مـع أن الحالة التي أملى فيها أبو بكر وصيته أخطر من الحالـة الـتي كنت فيها.. فقد حدث بعضهم قال: (دعا أبـو بكـر عثمـان خاليـاً فقال له: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا مـا عهـد أبـو بكـر

1() نقله ابن حجر في الفتح 1/252).

2() النووي في شرح مسلم (11/132).

بن أبي قحافة إلى المسلمين: أمّا بعد.. قال: ثمّ أغمي عليه، فذهب عنه، فكتب عثمان: أمّا بعد: فإنّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً منه. ثمّ أفاق أبو بكر فقال: أقرأ عليَّ، فقرأ عليه، فكبّر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن أفتتلت نفسي في غشيتي! قال: نعم! قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. وأقرها أبو بكر من هذا الموضع)(1)

وهكذا نجدهم يروون عن أم المؤمنين عائشة قولها مخاطبه عبدالله بن عمر: (يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة)(2)

وهم يثنون عليها، وعلى كل من أوصى من الخلفاء، ويذكرون أن ذلك من حرصهم الشديد على مصالح الأمة.. إلا أنت ــ سيدي ــ فإنهم يحتقرون وصيتك، ويعتبرون الأولى ألا توصي.. لتقوم الأمة بأمر نفسها من غير أن تستند إلى ما تراه صالحا لها.

هذه مجرد نماذج عن تلك الصورة التي يصورونك بها ـ سيدي ــ ولهذا يرون أنك يمكن أن تخطئ وتتوهم وتغفل.. وتصيبك كل الآفات التي تحول بينك وبين الإدراك الصحيح للأشياء.. وكل ذلك لجهلهم بالنبوة، ومرتبتها العالية السامية التي لا يمكن إدراكها.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل لك إلى الله أن أعرفك كما أنت، لا كما عرفوني بك.. فأنت ـ سيدي ـ أحكم الحكماء، وأعلم

1() تاريخ الطبري 2: 618. تاريخ مدينة دمشق 3: 411. الطبقات الكبرى 3: 200. الثقات 2: 192..

2() الإِمامة والسياسة: 1 | 28..

العلماء، وأذكى الأذكياء.. وأنت الذي لو اجتمعت عقول العالمين جميعا ما عدلت عقلك.. ولو اجتمع إيمانهم ما عدل إيمانك.. ولو اجتمعت حكمتهم ما عدلت حكمتـك.. وأنى لهم ذلـك وأنت ولي الله الأعظم، ورسوله الأكرم.

وأسـألك ــ سـيدي ــ وأتوسـل بـك إلى اللـه أن يهبـني من الذكاء والحكمة وكل أدوات الإدراك، ما يعينني على فهم حقائق الأشياء كمـا هي، لا كمـا يصـورونها لي، وأن يسـددني في ذلـك كلـه، ويلهمـني، حـتى أكـون أهلا لصـحبتك ومعيتـك، إنـك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

الهادي البصير

سيدي يا رسول الله.. أيها الداعي إلى اللــه على بصـيرة.. يـــا من لا يســـتنير بنـــور هـــدايتك إلا الموفقـــون المتـــأدبون المتواضـــــعون.. ولا يغض الطـــــرف عنهـــا إلا المخـــــذولون المستكبرون المتفيهقون.

لقد رحت ـ سيدي ـ أتأمل فيما جئت به من ألـوان الهدايـة ومعانيها، وقارنتها بكل ما جـاء بـه غـيرك؛ فوجـدت أنـك الأوحـد الذي جاء بالهداية الشاملة التي تجيب عن كل الأسئلة، وتصـحح كل الأخطاء، وتكشف كل الغـوامض، وتـرد على كـل الشـبهات، وتشمل جميع لطائف الإنسـان، وتعم كـل منـاحي حياتـه.. فمن اكتفي بهدايتك هُدي إلى السـراط المسـتقيم، ومن ابتغى عنهـا بدلا، أو خلطها بغيرها، انحرف عنه إلى أهوائه وشياطينه.

ولم تكن هدايتك سيدي قاصرة على تلك التفسيرات الـتي أعطت للحياة صورتها الجميلة التي يراهـا عليهـا المؤمنـون، ولا تلك القيم الرفيعـة الـتي ضـبطت بهـا حيـاتهم، ولا تلـك الأذواق اللطيفة التي جعلت المؤمنين يستشعرون الطمأنينـة والسـعادة والسلام التي لا يمكن تذوقها من منـابع غـيرك.. وإنمـا في تلـك الأساليب والوسائل الكثيرة التي وضحت بها الحقائق، وبينت بها القيم حـتى فقههـا عامـة النـاس وخاصـتهم.. كـل على حسـب قدرته وفهمه.

ولم يجتمع كل ذلك ـ سيدي ـ لأحد غيرك.. فلذلك كـان من أتباعـك الفلاسـفة والحكمـاء.. والأدبـاء والشـعراء.. والعلمـاء والفقهـاء.. والمتخصصـون في كـل المجـالات.. كمـا كـان من أتباعك العامة البسـطاء.. وغـيرهم من أصـناف النـاس.. ممـا لا نراه اجتمع عند غيرك.

وكلهم سيدي يذكر أنه نهل من منابعك العذبة، وارتوى من حوضـك الشـريف، وأنـك كفيتـه وأغنيتـه وآويتـه.. وأنـه لم يجـد السعادة إلا في صحبتك، ولا السلام إلا في اتباع تعاليمك.

وكيف لا تكون كذلك ـ سـيدي ــ وأنت الـذي لم تـدعو إلى الله من تلقاء نفسك، وإنما دعوت إليه بإذنه، ولذلك وصفك الله تعالى، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) ﴾ [الأحزاب: 45 - 47]

وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي آتـاك اللـه البصـيرة، فلم تختلط دعوتك بالأهواء، وإنما كانت عن رؤية خالصة، قال تعالى مخاطبا لك: ﴿قُـلْ هَـذِهِ سَـبِيلِي أَدْعُـو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِـيرَةٍ أَنَـا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُـبْحَانَ اللَّهِ وَمَـا أَنَـا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ ﴾ [يوسـف: 108]

ولذلك ـ سيدي ـ انتشرت دعوتـك بين ملايـير البشـر، وفي جميع الأجيال، وبين جميع اللغات والأعراق والبلدان.. واحتـوتهم جميعـا، وشـعروا جميعـا أنـك النـبي الـذي يمكنهم أن يفهمـوه ويتبعوه ويحبوه.

لذلك ـ سيدي ـ كنت أنت الهادي البصير.. الذي يقـود لـواء الـدعوة إلى اللـه.. فلا ينجح داعيـة إلا إذا اسـتن بسـنتك.. ولا يفشل أو يُخذل إلا بابتعاده عنها.

ائذن لي سيدي، أن أشكو إليك بعض ما فعله من يسـمون أنفسهم دعاة وهداة من قومي.. فقد راحوا يتركون اتباع سنتك في الهداية إلى الله، تلك التي عـبر عنهـا اللـه تعـالى بقولـه: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَـادِلْهُمْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]، وراحو يستعملون بدلها طرقا كثيرة، خلطوها بأهوائهم.. فزادوا دينك تشويها، وزادوا الخلق تنفيرا.

فبعضهم ـ سيدي ـ راح يعرض الإسلام كما تعرض الأحزاب السياسية مشاريعها، ولذلك استعمل كل الحيل، ولجأ إلى كل أنواع التمييع لدينك، حتى يراه الناس بالصورة التي يرغبون فيها.. ولذلك بدل أن يرفع الخلق إلى دينك، والهداية التي جئت بها، راح ينزل بدينك إلى مستواهم، ليتحللوا من كل شرائعه وقيمه.. وقد غفل هؤلاء أن دين الله أعظم من أن يكون حزبا من الأحزاب، أو جمعية من الجمعيات التي تخلط الدين بالدنيا، والقيم بالأهواء.

وراح آخرون يأخذون من الدين بعض مظاهره البعيدة عن حقائقها، فاعتبروا سنتك مجرد لحية طويلة، ولباس قصير، ومعهما الكثير من الجفاء والغلظة.

وراح آخرون يصورون الدين بصورة السيف والعنف والإرهاب..

وهكذا راح الكثير يستعملون وسائل منحرفة للدعوة إلى دينك.. بعيدا عن الهدي الذي جئت به، واتباعا للأهواء التي حذرت منها.

ولو أنهم سيدي تخلوا عن أهوائهم، ولجأوا إليك، وإلى القرآن الكريم الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا بينها وفسرها.. ولجأوا ــ مثلها ــ إلى سنتك الصحيحة الموافقة للقرآن.. ولجأوا ـ معهما ــ إلى اعترتك الطاهرة التي حفظت هديك.. لاهتدوا.. ودعوا إلى الله على بصيرة.. ولدخل الناس حينها في دين الله أفواجا.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله.. أن يعصمني من

كـل تلـك التحريفـات، وأن تكـون أنت قـدوتي في الـدعوة إلى الله.. حتى لا أشـوه دينـك أو أحـرف القيم العظيمـة الـتي جئت بهـا.. وحـتى أكـون أهلا لصـحبتك ومعيتـك، إنـك أنت صـاحب الوسيلة العظمى، والجاه العظيم.

هذا الكتاب

تهدف هذه الرسائل إلى ثلاثة أهداف كبرى:

أولا ـ بيـان كمـالات رسـول اللـه ﷺ في المجـالات المختلفة، فالحب لا يكون إلا بعد إدراك الكمال.

ثانيا ــ رد الشـبهات والتحريفـات عن رسـول اللـه ﷺ، ذلك أنها تتنافى مع الكمال، وقـد تسـيء إليـه، وقـد تكون هي الحجاب الذي يحول بين القلب وبين المحبة.

ثالثا ـ التوسل برسول اللـه ﷺ لتحقيـق مـا يرتبـط بالكمال من سلوك وأخلاق وغيرها، وقد جعلنا ذلــك في خاتمة كل رسالة، مثلما يقدم للـدعاء بالثنـاء على اللـه، ثم يختم بطلب الحاجات.

ولم يكن هـدفنا من التوسـل طلب الحاجـة فقـط، وإنما كان هدفنا الأكبر منه تبيين الأثـر السـلوكي لمحبـة رسول الله ﷺ في كل جانب من الجوانب، لأن العقيــدة الــتي لا تثمــر عملا عقيــدة الكســالى والمــدعين، لا المجدين والصادقين.

وقــد جمعنــا في هــذه الرســائل أربعين صــفة من صفات رسول الله ﷺ، وشرحناها، وبينا أدلتها المختلفــة من خلال تلك الخطابات الموجهة إليه.